منتدى مكتبة الاسكندرية

اندريه مالرو

الحبل والفئران



النص كاملاً



النصّ كامـلاً

حقوق لوحة الغلاف الأصلية محفوظة
لمنشورات عويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

رَوَائِع الأَدَبِ وَالفِكر مَنقُولَة إلِى العَربيَّة

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 B R.C. Paris

Les EDITIONS GALLIMARD
ont cédé par contrat en date du
24 Septembre 1981 aux EDITIONS OUEIDAT
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"
les droits exclusifs de traduction,
publication et diffusion en langue arabe
dans le monde entier de l'ouvrage

André MALRAUX : Le Miroir des Limbes 2:
La Corde et les Souris dernière version 1976.

EDITIONS GALLIMARD
par délégation du
Président Directeur Général
A Chevallier

© منشورات عويدات - بيروت
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس .

الطبعة الأولى ١٩٨٢

أندريه مالرو

الحبل والفئران

مرآة اليمبس

•



ترجمة

هنري زغيب

عويدات

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

I

ذلك العيد في داكار

داكار

آذار ١٩٦٦

كان ليوبولد سنغور ، رئيس جمهورية السنغال ، يعرض ، في داكار ، أروع مجموعة منحوتات إفريقية : حوالى ٦٠٠ قطعة ، بينها القالب الشهير للقناع الذي أوحى بالفن الزنجي لدُرين ، وفلامنك وآخرين .

افتُتح المعرض في متحف الزجاج والفولاذ ، وكان الرئيس دشنه قبل ذلك بقليل ومن خبرتي أنني لن أشاهد شيئاً في الافتتاح ، اختلفت إلى المتحف يوم أمس .

حتى حين اشتغالي على المتحف الوهمي للنحت العالمي ، لم أشعر ، الى هذا الحدّ ، بهيولى الآلهة . فمتحف الانسان عندنا (في فرنسا) متحف إتنوغرافي ، يتبادل فيه الآلهة حكايات عن الآلهة

على كيلومترات من هنا ، العديد من القرى ذات الاكواخ المخروطية . والآلهة لا تستحيل تماثيل مدهشة إلا حين تتجرد ، وهي غالباً ما تكون في رأس السلالة . من هنا أنّ للغرب قديسيه ، وللصين أمواتها ، ولأفريقيا أصنامها .

قبل سنوات ، كنت اشتركت في احتفالات استقلال السنغال . وقبلها ، كنت أعلنت ، باسم الجنرال ديغول ،

استقلال بلدان افريقيا الاستوائية الفرنسية القديمة : التشاد ، جمهورية افريقيا الوسطى ، الكونغو ، الغابون . . . وافريقيا الاستوائية ، هي افريقيا «قلب الظلمات» (رائعة جوزف كونراد) ، الدغل المتربص بالعواصم . وفي التشاد ، كانت فورلامي (٦٠٠٠ نسمة لدى رحيل لوكلير) تتحول مزيجاً من خمسين ألف نسمة . وحين أردنا ، أنا والرئيس تومبالباي ، الانتقال من قصره الى سيارته الكاديلاك (حوالى ٢٠ متراً) مررنا بجماعة راقصين عراة لوّنوا أجسادهم بالأزرق . وفي الساحة الكبرى ، تجمع نحو عشرة آلاف شخص من جميع القبائل ، تهزّهم الحميّا نفسها ، ويحيط بهم خيّالة حدود الكاميرون ، معتمرين قبعات نحاسية ، وأحصنتهم مجلّلة بجلول مكعّبة .

كان ذلك ، قبيل افتتاح الجمعية العمومية . حولنا ، كانت تشاد ما قبل التاريخ ، وافريقيا اللامتناهية التي شاهدت ، من الطائرة ، شروق الشمس عليها . وشاهدت غوادلوب بحشودها في الساحة الكبرى ، بأزهارها الليلية ، واذاعتها الكانت تلاحقنا ، وبحر الكارايب يرتجف في ضوء القمر .

لم أجد في التشاد الهذيان السياسي لجماعة تتكلم الفرنسية ، بل اكتشفت طموح جماعة تطرقها غرابتها كما تطرق أرجلها الأرض ، في رقص الرجال الفهود وسط حلقة قوارير على رؤوس النساء . فبالأمس ، كانت التشاد تعني بضع مطارح في الوحدة . فمن أيّ سهل معشب نبتت هذه الجماعة ، التي كأنها ، في افريقيا وفي آسيا ، باتت تنبت في أينما كان ؟ وإنما بأولئك الراقصين الزرق العراة ، وبالمقنّعين ، والخيالة

الكارولنجيين ، كان على الرئيس تومبالباي أن ينشىء دولة .

انها الاحيائية ، في الاسلام الزنجي . عمارات جديدة في التشاد الجديدة : من التشاد الى برازافيل ، كانت تلك الأبنية ، فوق الرقص العريق ، تهيء الدولة الى مصاف الأمم الردّية .

كان رفاقي ينظرون الى الألوان الفرنسية تنزل ، لتصعد مكانها الألوان التشادية ، في غضب لافت لم اكن أشاركهم فيه . وإنّ الذي حملني الى الثورة ـ كما كان مفهومها عام ١٩٢٥ ، هو رفضي الاستعمار الذي عرفته في الهند الصينية . وفي التشاد ، أحد آخر الحكام الفرنسيين ، كان مرسال ده كوبيه ، الليبرالي الذي دعا جيد ، حتى كتب هذا في مذكراته : « ثمة مستشفيات تعوّض ، شيئاً ، الشركات أصحاب الامتيازات الكبرى » .

جميع هذه الأعلام الوطنية ، كانت تعلو في سماء افريقيا ، بفضلنا نحن ، الديغوليين ، اذ حققنا ما كان أخصامنا يعدون به طويلاً بلا جدوى . واذا كان أسلافنا مدهوشين بالامبراطوريات الكبرى ، فأنا كذلك ، كنت مدهوشاً بالمغامرة الكائنت تحملنا إلى الساحات الأفريقية الوسيعة حيث كان الراقصون ذوو الاجساد المطلية يصرخون ، والى الحدائق الرئاسية حيث كان الرجال ـ الأسود يتحدّى بعضهم بعضا أمام مشاهدات مدهوشات ، بثياب الأبهّة ، كما أيام قرطاجة .

في الغابون ، البحر هو الممر الأوقياني لاشجار جوز الهند الكثيفة . وفيه ، من بقايا الضباط الفيشيين ، تنتؤ ، بعد ، سفينة غرقى ، وثمة حكايات الحطابين ورفيقاتهم . والغابة حتى ليبرفيل . انها بلاد عجوز . كنائسها كما كنائس أريافنا

الفرنسية ، الكاهن فيها ما يزال ينتظر تمثال قديس لن يأتي . هذا ، الى مرسلين عديدين في الغابون . . . وخاصة ، في لامبارينيه ، الدكتور شوايتزر .

عرفت المرسلين من التشاد حتى المحيط . وجميعهم وفدوا أيام الاستعمار الماسوني . بعضهم كهنة رعايا ، وبعضهم الآخر من الأتقياء . وكانوا الزاسيين أو اسبانيين ، ويمكن تقسيمهم وفق انتماءاتهم اللاهوتية : منهم كهنة الايمان ، أو كهنة الرجاء ، أو كهنة المحبة . وكانت أعمالهم تبقى بعد الاستعمار ، لأن رؤساء الدول الفرنكوفونية الافريقية الجديدة كانوا مسيحيين في الغالب (كما بروتستانتية تشان كاي تشك !) . وفي فورلامي ، فوق الرقص المسعور ، كانت ترتفع منصات الكاتدرائية .

لم اكتب كثيراً من المؤمنين عن المرسلين . لكنني أتذكر الطريقة التي بها كان شويتزر ـ المرسل هو الآخر ـ يحدثني عن لامبارينيه :

ـ نعرف جيداً ، سيد مالرو ، أن في الناس ميلاً الى اعتقاد جيرانهم مسحوقين بالمصلحة . وهذا ، شعور يبدو لنا . . . ثانوياً ، انما أجده عميقاً وعريقاً وعنيداً ، وأجده مهمّاً لأن المؤمنين لا يتخلصون من الوحدة إلاّ اذا آمنوا بالتجرّد .

ـ وهل اكثر تجرّداً من المستشفى ؟

ـ مرضانا مقتنعون بأن الأطباء والممرضين ذوو مراكز رفيعة ، وبأن الطب مهنة . . .

ـ إلاّ طبّك أنت . . .

ـ إسمعني جيداً . . .

وراح يتكلم في بطء وفي سخرية غريبة كانت تطلّ من بين شاربيه الأشيبين كموسيقيّ ختيار :

ـ عدا الفريق الصغير الذي يعمل معي ، يعتقدني الجميع ألعباناً أعرف كيف أخفي مصلحتي .. بل يعتقدونني ساحراً ، ويحترمونني مهابة ، لذلك . وهذا ليس خصيصة لدى الزنوج فقط ، بل لدى فلاّحينا كذلك . إن هذا الشعور أعمق من الشعور بما فوق الطبيعي .

ـ لمست هذا الشعور في مراقد المخيّمات .

ـ حين أرى الأقنعة ترقص حول حلقات النار (وهو مشهد مدهش) ، أعرف أن عند انتهاء الهذيان ، سيعودون الى الحذر ، كما الى الجوع والغريزة الجنسية . ربما كان الحال كذلك أيام الفيدا ، فمن ذلك أثر في الكتاب المقدس ، أجد فيه شيطاناً قديماً . ولعل هذا الشعور مشترك لدى المسيحيين والمسلمين والإحيائيين . . .

ـ والمفكرين الأحرار . . .

ـ هنا ، الماسونيون مسيحيون على طريقتهم ، فلا تخدع ، سيد مالرو . مع تحرير افريقيا ، صحيح أن المسيحية تحقق تقدماً ، انما الإسلام كذلك ، وإنني أشهد إحياء حقيقياً للإحيائية ، يدهشني كثيراً .

ـ كتبت بالأمس أن كل انسان هو إيمانه ، والآن استمع إليه مفتكراً في جزء من الانسان يغطيه فيه إيمانه .

ـ هنا ، أيضاً ، لا تنخدع ، سيد مالرو ، كل فكرة تُفتكر حتى أقصاها ، تنتهي في التصوف . وقد تضيع فيه . ولم لا ؟ فالضمير الحي أحياناً من عمل الشيطان .

ربما كان دوستويفسكي رضي بهذه العبارة الساخرة ، خاتمة لتأمل سحيق وراح الدكتور شويتزر يكمل ، فيما ، رأسه الأشيب منحنٍ ، يتأمل حشرة تسير على حذائه :

ـ طوال طفولتي كلها ، بقيت اتساءل عما حلّ بالمجوس في ما بعد هل عادوا الى بلادهم ، ولم يتغير شيء ؟

بين زيارة الرئيس البروتوكولية ، وتدشين المتحف ، ذهبت إلى كازامانسا ، وكنت أحلم بها من زمان ، رومانسياً ربما ، إنما ، أكيداً ، لرغبة في اكتشاف إفريقيا . وتراءت لي هذه ، في رقصات غوريا الرائعة ، في خلاسيات ماركيز بوفليه ، بحجابهن على ثيابهنّ المنتفخة ، المعتمرات قبعات مجوس ، وضوء القمر هاطل على مشلحهن الأخضر . تسنى لي أرى كل هذا ، في جلسة شرائح مشروحة . ورأيت القمر ينهمر على خيالات القبعات فيعكسها على زخرفات الشرفات . وكان كلب مسعور وسط الرقصات ، يحوّل الرقصة الليلية إلى رقصة أشباح .

ونسّم على غوريا هواء الليل . ومررنا في معابر طويلة من الموسلين والمادراس الليلكي المعشوشب ، من سنغال الأمس ، الهاجع على ضفاف خلجانه . فكازامانسا نهر / بحيرة ، شلال مزروع موجات بحرّية . في الغابة ، رأيت أبراجاً سحيقة ،

ونظيفة . ولاحظت انهم حافظوا على ملوكهم الكهنة ، من لم تعد سلطتهم إلاّ روحية ، لكنها باقية باستمرار طريقة انتخابهم : يموت الملك ، فتعينّ القبيلة خلفه . يتلكأ ؟ يُضرب حتى الموت . وإن سلم من الضرب ولم يمت ، يكون هو الملك ، مما يحتم عليه إتمام الأضحيات ، وصلاحيات التصرف بالفتيات اللواتي مسّهنّ صولجانه الذي من قش .

الملك الأول كان شاباً ، لابساً معطفاً أحمر يخفي تحته الصولجان ، محاطاً بجمع لباس فرنسي ، من النبلاء كما أيام زمان . بعد التحية ، سألته إن كانت سلطته تتضاءل :

ـ المرسلون عاجزون أمام الأشجار السحرية . ولا تزال الشخصيات الكبيرة تتوافد لزيارتي : سفير انكلترا الاسبوع الماضي ، وانت اليوم .

جواب مفحم من ملك . فوق بلاطة ، كانت الشمس الافريقية تصل عبر الاشجار الباسقة . الضيقة التالية ، كانت خالية : النساء في الصيد بالشباك ، والرجال في كحللة النخل . على الدرجات العالية ، كان ملك ختيار يلعب مع طفل . تقبل تنباكنا وراح ينظر إلينا نبتعد في ساحات طويلة بلا غبار .

وصلنا منطقة الملكة . وفي قصرها الذي من صلصال وقصب ، في آخر ممر تحرسه أعمدة خشبية ، كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً ذا ثنيات كثيرة ، هدأ عن وجه ضحوك ملهم . وكانت محاطة بذويها : أهلها وأطفال الضيعة ، ومرافقي . كانت يداها مرفوعتين ، كما لو أنها قدّمت أضحيات ، وكان لها منظر كاهنة . وراح المترجم ينقل لي :

ـ قل للجنرال ديغول ، يا حضرة الوزير ، انني أفكر به .

ـ سيسر من ذلك ، حضرة الملكة .

ولم لا ؟ وكان سفير انكلترا (أو حاكم غامبيا ؟) أهداها زجاجة ويسكي :

ـ جلالة الملكة تهدي حضرتكم افخر خمر في العالم .

وقلت للمسؤول السنغالي ، المدهوش والمسرور معاً ، إن الملكة ، في لقاءات كهذه ، لها اكثر استحقاقاً من السفير ومني . وفي هذه الأثناء ، أمسكتني من يدي . فتمتم المترجم :
تصطحبك إلى الحِرز .

انتظرت أن أرى أصناماً وتماثيل . لكن حرز الملكة ، كان شجرة باسقة أُفرغت المساحة حولها ، فصارت تهيمن على الغابة . ومن تشابك مليء بالعقد نشبت أهداب عالية لتكون نصباً يعلو نحو ثلاثين متراً في هيبة تعبّدية ، فيما كانت فجوة في الجذع ، تكوّن كنيسة مثلثة الأضلاع يفصلها عن الساحة ، حاجز لا يعبره سوى الملكة ، خاصة على مساحة من الأرض متناهية النظافة ، لأن الساحة دائمًا مغطاة بالقابوق النفنافي . وفي وسط هذه النقاوة ، كما في الأحلام ، كان دم القرابين يتخثر على قدم الشجرة .

لم أكن أتأمل شجرة أميرة ، مع أنها كذلك ، بل نصباً من المهابة ، وسيّدة عالم يجتذب إليه الناس في طاقة فوطبيعية . وفجأة ، قفزت الملكة الى عنقي ، وقبّلتني .

سألت :

ـ هل قوة هذه الشجرة ، تحمي الأموات ؟

عدنا الى القصر ، تتبعنا هرّتها المصرية الكبيرة الجثة ، المتوحشة السوداء كما هرره ساحراتنا . تخرس الأطفال ، وكأن سكوتهم ناجم عن نظافة ، في الضيعة ، غير معهودة . لم تكن الملكة تجيب . انما أخيراً وبصوت حازم (الصوت الذي اشتهرت به ملكات هذه المنطقة منذ أجيال) قالت :

ـ ممنوع أن يتكلم أحد على الموتى ، وإلاّ ما يكون نفعهم الاحتفال الجنائزي الذي يقام لهم ؟

وتذكّرت القول : « ومن أجل العذاب القوي ، رُبطت برونهو بذيل حصان ، من شعرها الأشيب » .

عند مغادرتنا ، وقفت الملكة الميروفنجية على درج قصرها الصلصالي ، ومدت يدين مرفوعتين ، علامة المباركة . والتفتّ ، فاذا النفناف يتساقط من أغصان الشجرة العظيمة على الثوب الفضفاض ، ثم ينزلق عنه في صمت كثير .

قليلاً ، وتتبعثر هذي الضياع ، والشجرة العظيمة ، إذ تطهّرها الزوابع ، باقية تمد على الغابة أغصانها السلطانية ، ولن تتذكر الزمن الكائنة فيه تخاطب الناس .

إن الرئيس سنغور فرنسي بمعنى ما نهرو انكليزي ، نهرو البدون غاندي ، المرتبط بثقافة دون الفيداس . أيام الصراع من أجل الاستقلال ، كانت يوميات أصدقائه تسمّى « الوضع البشري » . في المعرض ، حاولنا استعراض انطباعنا من المعروض ، في القصر الذي بناه الحاكم واستضافني فيه . إنه قصره « النيودلهي » . وسرت إشاعات حتى أطراف المدينة .

فالمعرض ليس سوى إحدى التظاهرات لمهرجان الفنون الزنجية الذي شاء سنغور أن تحضره كلّ افريقيا ، كما هي حاضرة في المتحف : تظاهرة الصوت والضوء في غوريا ، ضيع الحرفيين ، أعمال مسرحية في مسرح دانيال سورانو ، وخاصة فرق الرقص .

تبادلنا الخطابات . وقلت في خطابي :

ـ في نصّك ، أوليت الرقص والنحت أهمية أولى ، لم تدهشني ، وأنت تؤسّس الفن الأفريقي على الإيقاع بقدر ما أدهشني إغفالك الموسيقي . وأحسست أنّ نهرو يعتبر الموسيقى فناً أهم من منحوتات اكبر معابد الهند فبعد استقبال رسمي ، اصطحبني إلى صالة صغيرة كانت تُعزف فيها « الموسيقى التي تُعزف في الليل » . صحيح أن راقصات رائعات كن يرافقنها . . .

ـ إن كنت لم اتكلم على الموسيقى ، فلأن المعرض معرض نحت . أفكر بموسيقانا أقل مما برقصنا الذي يهمني كثيراً اذ هو عمّ العالم . ألفتك الى أن العرق الأسود المهاجر الى أميركا بقي نقياً في أسلوبه وبقي فلّاحاً ، وحين لن يعود كذلك ، يندثر . لهذا ، يبقى الزنوج الأميركيون متعلقين بالجنوب مهما حصل . فحتى في أميركا ، يرقص الزنوج رقص تراثهم . ولكان الغرب يفهم ذلك أفضل ، لو وعى تراثنا وما أضاف على الايقاع للموسيقي .

ـ لكنه بدأ يعي . . .

ـ صحيح . وأندريه جيد يقول في مكان ما ، إن أغانيكم

الشعبية « مقارنة » بالأغاني الأفريقية ، تبدو هزيلة وبدائية . وأذكر أنّ الكاهن مدرب فرقة إنشادنا ، صغاراً ، كم كان يجهد في تلقيننا الإداء والتنويعات . ثم ، الفتك الى صعوبة عزف الجاز وهو من عندنا . أنتم بدأتم تكتشفون الاتنا النقريّة ، فيما حسب أسطورة دوغونية ، ظهر التام تام قبل أيّ فنٍّ آخر . هل تعرفون روح موسيقانا ؟ انها ضربة الأكف . ونُتّهم بهذا ، كما لو أن خصيصة الحمار الوحشي ليست في جلده المخطّط .

عندكم موسيقى أخرى عمّت العالم : تلك التي ولدت من اليأس ، في الولايات المتحدة . فيها ، أيضاً ، يمكنكم القول إن الزنوج يغّنون حياتهم .

ـ في المهرجان ، لم نرفض الموسيقى العصرية ، لكن على فنوننا أن تكون وسيلة كرامة مستعادة . إنني ، كما تعلمون ، مناضل قديم للزنوجية ، ووعيت المهرجان والمعرض دفاعاً عن الزنوجية . انما اريد ، فيهما ، اكتشاف الذروة لا اليأس . يقولون عندنا : « الحائك يغني وهو يرمي مكوكه ، فيدخل صوته في السلسلة ، حاملاً صوت أسلافه » . هل تعرفون بأن فلّاحينا اخترعوا رقصة خاصة بمخطط الإنماء ، وبأن موسيقانا ترافق مبارياتنا الرياضية ؟ في النهاية ، بالإيقاع ، كل فن زنجي ، شعر .

بعض هذه المعادلات ، معروف ، كتبه غير مرّة ، واستعاده في خطاب التدشين . واذكر هنا ، قوله في إحدى قصائده :

« إذا نادتنا نهضة العالم ،
فلنُجِبْ : « إننا حاضرون » . . .

كما الخميرة الضرورية للعجين الأبيض ،
إذ من يعطي الإيقاع الضروري
للعالم الفقيد ذي الآلات والمدافع ؟ ؟ » . . .

ويبدو ، اكيداً ، أنه كتب هذه القصيدة ، قبل بلوغه خبرة الحكم والسلطة . ثم أردف :

ـ كان يلزم ان يندهش بيكاسو من قناع باوولّي (من منطقة باوولية) ، وأن يتغنى أبولينير بالأصنام الخشبية ، لكي ينحو الفن في الغرب ، بعد الفي سنة ، الى التخلي عن تقليد الطبيعة .

أدهشني استشهاده بذلك . فأجبته بما كنت كتبته سابقاً ، أن التخلي ، في رأيي ، عن محاكاة الطبيعة ، في الفن ، يؤدي الى محاكاة الأشياء المقدسة ، وأنّ النحت اليوناني ، في نظري ، لم يدفع الى محاكاة الطبيعة (بِمَ تمثال « فينوس ميلو » اكثر واقعية من تمثال مصري ؟) بل الذي دفع هو انتصار المثالية على الروحانية في الفن .

وأضاف الرئيس :

ـ يمكن ان المدخل الى فنّنا ، هيأه آخرون . لست ضليعاً مثلك بتاريخ الفن . لكنني مؤمن بطاقتنا الاستيعابية على اكتشاف الفوطبيعي في الطبيعي . وفي وجه بيزنطية ، تقف إفريقيا في حرية تامة . فالطبيعة في بيزنطية أقلّ نقلاً مما عندنا . ونحن وحدنا حوّلنا منطق العين الى منطق اللمس .

ـ ربما لذلك ، تأثير نحتكم الأساسي على نحتنا ، هو تأثير الحرية . لكن الأقنعة ساعدت ـ بل اكثر من ساعدت ـ على

الاحلال مكان الميراث المتوسطي ميراث العصور السحيقة ، منذ النحت السومري الى النحت الروماني .

ـ أنا أقل منك اندهاشاً لهذا التأثير على الماضي ، لأن عليّ حمل الحاضر ، وإن شاء الله ، حمل المستقبل . والفعل الأساسي للزنوجية ، كان دائماً إحلال روح الخلق مكان روح التقليد . وهذا ، عكس رأي المستعمرين الأبله . وأريد من الزنجي اليوم ان يعي ذلك .

ـ هل واحد فقط من الفنانين الذين سيستمعون إليك غداً في المعرض ، يمكنه « خلق » قناع؟ لا أظن أحداً من أصدقائي الأفارقة : أدباء وشعراء ونحاتين ، يحسّ بفن الأقنعة أو بفن السالفين ، كما النحاتون الذين خلقوا هذه الأشكال . ولا واحد منا ، نحن الفرنسيين ، يحس بعظمة ملوك بوابة شارتر ، كما النحات الذي نحتهم . أليس من كان ينحت الأقنعة ، كان ، في نظر الأفريقي اليوم ، يعود الى الفوطبيعي ، الكنت تتحدث عنه ، لا الى موهبة جمالية خاصة ؟ .

ـ الصفة الجمالية كانت وسيلة تعبيره عن الفوطبيعي . تماماً كما عندكم في ملوك شارتر . لذا ، إيماني كبير بهذا المعرض ، وبكل ما أحاول فعله هنا .

ـ لكن المتحف الوهمي عندنا ، مفتوح لجميع الفنانين . . .

ـ صحيح . إنما فنانونا يتحاورون مع الفن الشمولي الكوني ، في طريقة خاصة . معك حق : ليس على نحاتينا أن يصبّوا جهودهم في نحت أقنعة جديدة ، إذ ، في الفن الشمولي ، يجب ان يحسوا بأنفسهم أهلاً متعاطفين ، إنما على طريقتهم . ويجب

ان يعرفوا بأنّ عنف الانفعال الذي اسمه افريقيا ، أعطاهم أكثر مما أعطى سواهم بكثير . الأقنعة ستندثر ، لكن إفريقيا لن تمتص ، طويلاً ، الفن الغربي الحديث . إننا نعرف ان كل الطبيعة يحرّكها الحضور البشري ، وسنخلص الى امتلاكه . لا يمكنك ان تتصوّر ، إلى أيّ حدّ ، كان فنانونا وحيدين متروكين ، حين كنتُ في العشرين . ولم يكونوا يعتبرون انفسهم فرنسيين ، كي لا يكونوا فنانين من الدرجة الثانية . اننا نرقص جيداً ، شرط ألاّ نرقص البانانيا القديمة . كنا ناساً بلا تاريخ ، التاريخ كان للغرب ولغزو الغرب ، العالم ، لا لغزونا نحن أحداً .

ليست كازامانسا بعيدة عن نهر السنغال . وكونغو لومومبا تعكس نيران الغابات الدموية . وراح سنغور يكمل :

ـ في الواقع ، حين أفكر بثقل التاريخ علينا ، أقف مشدوهاً . مع هيغل وماركس ، هيمنت حتمية التاريخ على اوروبا . وفيما كانت أوروبا تحمل للتاريخ احترام الطبقات المغلقة ، حملنا نحن إليه احترام المنبوذين . وبأية رحابة تقبّلنا تهجّمات فاليري !!!

ثم أضاف ببعض الحزن :

ـ أنا وأنتَ ، كنا اصبحنا رجالاً !!!

ها نحن في الصالة الصغيرة لمنظمة الوحدة من أجل الحقيقة ـ شارع فيسكونتي . السجادة زرقاء ، بعض الكراسي ، السقف واطئ ، جمع غفير : ولا أظن فاليري أتى إلاّ إرضاء لبول ديجاردان . اساتذة التاريخ يتهجمون في لباقة . وفي جوابه ،

كان فاليري حازماً :

ـ كما أجاب المجنّد حين سئل عن جاندراك : كانت زوجة نابوليون .

هنا قام أحد الأساتذة ، وأسمه إيزاك على ما أعتقد :

ـ ولكن . . . لِمَ ليست زوجة نابوليون ؟

وهو يقصد ان التاريخ يرسم دورها التاريخي . لكن فاليري أجاب في غموض :

ـ على الأقل لسببين . . .

وعقّب على قوله ، في طيبة وصدق نية . كان أخصامه يدافعون عن طرائق التاريخ ، فيما هو كان يرمي الى تقويم الجوهر . وبات النقاش حوار طرشان ، إذ الكانوا يتكلمون ، لم يكونوا يفكرون إلا بالحرب العالمية الأولى . لم يعد الحوار عن ماركس ، ولا عن شبنغلر ، ولا حتى عن نيتشه .

كان الهدف ، الوصول الى نقطة : هل مصير الانسانية معروف ؟ اليوم ، في مفهوم سنغور ، التاريخ من صنع السنغال ، وهو مجموع الأحداث التاريخية التي هاجمت العالم لتُدخل فيه افريقيا . وفي تلك الصالة الصغيرة من شارع فيسكونتي ، قبل ثلاثين أو أربعين عاماً ، كانوا يحدثوننا عن تاريخ بلا هتلر ولا ستالين ولا قنبلة ذرية ، ولا معسكرات إبادة .

هنا أردفت لسنغور :

ـ يبدو لي ان التاريخ وجد قوته ، حين استجاب لنداءات غير عقلانية . كما الدين مثلاً . ولا يهمّ أن يجيبا جيّداً ، بل انهما يجيبان حين يسكت كل ما عداهما .

ـ كان فاليري يفكر خاصة بـالتواريـخ الوطنيـة التي تجعل الأمة ، « غير مجدية ولا تطاق » .

ولكن ، ثمة عند السوفيات ، تاريخ شمولي غير وطني ، يؤدي الى الاتحـاد السوفيـاتي . على افـريقيانـا أن تدخـل في التـاريخ ، إنمـا ولا تاريـخ واحد يؤدي الى افـريقيـا . قيـل للجزائريين : « ليس من أمة جزائرية » ، فأجابوا : « وما همّ . نصنع أمة جزائرية » . وهكذا السنغاليون ، التاريخ عندهم هو ما يهتمون هم أنفسهم به .

وسكت سنغور .

ليس ، في رأيي ، من رجل سياسة . رجال الحكم الذين دوّنت آراءهم : ستـالين بـالأمس ، ونهرو وماوتسي تـونغ ، وقبلهم جميعهم الجنرال ديغول ، ولدوا من المعركة . أحببت سخطهم على رجال السياسة وخاصة على المستعمرين ، فحتى حين أُجبروا على المفاوضات ، (نهرو ، مثلاً ، فاوض كثيراً) ، حافظوا ، من صراعهم لأجل الاستقلال أو الثورة ، على ما جعلهم يكرهون العُقَد ، ولم يكونوا يجهلونها . فهذا هو الصراع الذي يسمونه ، هم ، التاريخ . بعدها ، يحاول الناس أن يلقوا عليهم مصير العالم .

عن آخر آراء سنغور ، أجبت :

ـ الغَربان يؤمنان بالتاريخ ، إنما لا بالتاريخ نفسه . مرة

قال لي تروتسكي : « ليس سوى حضارة واحدة » ، ولا بدّ من ان يكون ستالين يؤمن الايمان نفسه ، لأن اهرنبورغ كان يردّد العبارة كثيراً . طبعاً ، المقصود : حضارة التطوّر ، يُرمَز اليها بالآلات وبالشيوعية . هذه الحضارة ، تحتويكم انتم ، شرط ان تعتبروا افريقيا طفولة كبيرة .

ـ ليست اميركا بعيدة عن هذا التفكير ، أقله عن الشيوعية . لذلك يشكّ الغربيون بوحدة حضارتنا . فالفن الأوروبي ، ايطالياً كان أم فرنسياً أم المانياً ، نابع من الحضارة الاغريقية اللاتينية ، والمنطق الاستدلالي ، منفوحاً بالنفَس المسيحي . وهو ، رغم انتفاضاته العديدة ، يبقى ، في خطوطه الرئيسية ، منسجماً مع نفسه وكذلك فننا .

لاحظت أنه عيّر في تعابيره . وفي لهجته . طبعاً لأنه درس طويلاً هذه المسائل ، ولأنه وجد أجوبة عن استنتاجاته السابقة . لذا ، اضاف :

ـ نريد ، ان نكون انفسنا لأنفسنا . وهذه الامتلاكية ، ننتظرها من حضارة الشمولية . لهذا ننهد الى اكثر من ثورات إجتماعية ، وأكثر من ارتياد الكون : إلى تفتح نزعة إنسانية جديدة يمكنه هذه المرة أن يستوعب جميع الناس على كوكبنا الأرضي . فكرة ساذجة ؟ ربما . إنما في السياسة ، كما في كل عمل كبير ، ليس على الأفكار الكبرى أن تكون متفرّدة .

ـ نهرو كان يقاسمكم أملكم . ستالين ، لا . ظن المنطق ، في القرن الثامن عشر ، أنه صار شمولياً . مرة سألت غوركي إذا كان ستالين يفكر من زاوية ما ، بمعنى الحياة . فأجابني غوركي

ببعض السخرية : « يفكر ان الناس موجودون على الأرض ليكونوا شيوعيين ، وأن الشيوعيين موجودون لتعميم العدالة على الأرض » . وهي فكرة ممتازة من حيث الإحادية .

ـ قد يكون اخترعها . . .

ـ ربما . وربما لا . فلنتذكرْ عبارته في كلمته لدى موت لينين : « اعطي دمي قطرة قطرة للبروليتاريا » . يومها ، لم تؤخذ العبارة على انها كلام استهلاك . وجميع الناس ، إن هم صاروا احراراً اجتماعياً ، سيواجهون المشاكل نفسها التي واجهها قدامى الناس الأحرار .

فكّر سنغور برهة ، وأجاب :

ـ هذا ما يحصل لنا . حين استقبلت اعضاء الأكاديمية السوفياتية للعلوم ، دوّنت عبارة من زفوركيين : « نعرف اليوم أنْ يمكننا إنتاج بيوت كثيرة . لكن مشكلتنا ، أن نعطي ، في المستقبل ، معنى لهذا التكاثر » .

ـ إعطاء المعنى له ، أو إيجاد معناه ؟

ـ حتماً كان يقصد إعطاء المعنى . نحن كذلك نقول الشيء نفسه . على ما حملته الزنوجية الى الانسانية الشمولية ، أن يتحول عملياً . وسيبقى القرن العشرون عصر اكتشاف الحضارة الزنجية الافريقية . وبعد عشر سنوات نكون أعدنا الى الزنوج الاميركيين ، عنفوان افريقيا وهم بدأوا يزينونها بكل الفضائل التي تفضح حضارة البيض الصناعية : إنها افريقيا الفردوس الأرضي . أذكّرك هنا بعبارة لانغستون هيوغ : « أريد اشجاراً

باسقة كثيفة تحني من ثقل الببغاوات الثرثارات ، لا هذا الوطن ذا العصافير الرمادية » .

نزعته الانسانية استوقفتني . مع رئيس التشاد ، كان عالم غريب عن عالمنا ، يبدو لي متحفزاً للدخول في اللعبة . اتذكر وليمة عنده (والمأدبة ، أحياناً توحي بالغربة اكثر من الكلام) مع أربعة رؤساء أفارقة ، مهلوسين من لومومبا ، ومستغربين ـ وأنا معهم ـ كيف أنه لم يُقتَل بعد. ولومومبا ، من افريقيا اخرى لا ينتسب إليها سنغور .

كان هذا الاخير ، ببزة رسمية ، خاطها له باريسي ، واقفاً عند شباك كبير تتسرّب منه ضجة السيارات ، فانطبع في ذاكرتي كما قزم ذو نكهة هندية ، عضو في مجلس بلدية بانغي ، كان قدّمه لي ، مع المجلس ، رئيس الجمهورية . ولكن جمهورية افريقيا الوسطى ، كما كازامانسا والتشاد ، ولدت من العشب والغابات : ليس من غابة حول قصر داكار ، بل الأوقيانوس بدون مراكب عبيد ، والمدينة ، وافريقيا المدجنة ، الفرنسية منذ المعاهدة الأولى .

عشية انتخاب الجنرال ديغول ، عام ١٩٥٨ ، جاء إليه النواب الديغوليون ، في المكتب الكائنت الجمعية الوطنية حجزته له ، بنواب مترددين . ليلتها ، كان ، كما نادراً ما رأيته ، هادئاً جلوداً . حدثت جلبة اخرسها الجنرال بنظرة . عندها تقدم ، خطوة واحدة ، وزير افريقي قصير كسر الصمت بسؤال باسم : كان هوفويت بوانيي ، الذي كان جاري في مقاعد الجمعية الوطنية ، وصار رئيس شاطىء العاج في ما بعد . وكانت رئاسة سنغور مختلفة عن رئاسته ، لأنها تبدو تتويجاً لنضاله كمثقف .

ذلك ان سنغور ـ كما نهرو وماو ـ لا كما ديغول ، المؤرخ بطبيعته ـ يبدو حساساً على التاريخ ، لأنه شارك في صنعه . وهو أعطى تعليماته أن يُحْفَر على الجدار عند مدخل المعرض : « وحده الانسان يمكنه ان يحلم ويعبّر عن حلمه ـ في أعمال تتجاوزه ـ وفي هذا الميدان ، وحده الزنجي ملك . من هنا القيمة النموذجية للحضارة الزنجية الافريقية ، ومن هنا ضرورة فك رموزها ، لتبنى عليها نزعة إنسانية جديدة » . والواقع ان كلّ نزعة إنسانية شمولية تشبه الذي يحلم بها . ·

هنا ، قلت لسنغور :

ـ حين تحدثت عن مناقشة شارع فيسكونتي ، تذكرت أحد ابرز المشاركين : كيزرلنغ . كان الزمن عهد مدرسة الحكمة . طبيعي ان القارات المحرّرة تطالب بالمشاركة في نزعة إنسانية شاملة ، لتظهر قِيَمها الخاصه . إنما ، بعد خمسين عاماً ، اضمحل البحث عما كان يسمى الحكمة . ومن البديهي ان نبحث لها عن بديل .

ـ وعندنا أيضاً تضمحلّ . ولكن ، وراء ماذا يلهث العالم كله منذ ١٩٤٥ ؟ ليس هدف الحضارة : اختراع برادات ، فما هو ؟ هل اجتياح الانسان للكون ؟ وأي اجتياح ؟ لا السياسة ولا الأخلاق ولا الشرائع التي تفرضها الحضارة المعاصرة ، مبنية على الفكر العلمي الذي يتطلبه هذا الاجتياح . . .

كانت زمامير السيارات متواصلة في حرّ الخارج . وتذكرت : « وداكار ، بعد كل شيء ، اجتياح جميل . . . » . وقلت :

ـ حضارتنا تؤمن بمواصلة مسار الحضارات الباقية ، لأنها تتمة

لها . لكنها تقطع المواصلة معها ، بوجود الآلة . كان نهرو قال لي ان رمسيس كان تكلّم على حكم امبراطورية مع نابوليون ، لا مع رئيس الولايات المتحدة . والآلة تجعل سؤالك مصيرياً في عصرنا . فالقرن التاسع عشر كان يظننا سنواصل حضارته بالحرية والعدالة . . .

ـ لكن هذا حصل . . .

ـ ثمة نزع الاستعمار ، وغريزة الموت (لدى فرويد) ومعسكرات الإبادة ، وكل الباقي . . .

عند استقبالي في جامعة بيناريس السنسكريتية ، كان الفكر التقليدي الغربي ما يزال مسيطراً . ورداً على كلمة ترحيبية عادية جداً ، قلت : «وحدها الهند تجاسرت على القول : كل انسان يمكنه بلوغ الله عن طريق آلهته الخاصة . ولم تقو هذه الفكرة ، كما في عصرنا اليوم ، الذي يشهد صدام الفكر العلمي ـ لا الفكر التقني بل البحث عن شرائع الكون ـ مع الفكر الماورائي . اليوم يبدأ أخطر حوار عرفه الفكر البشري : بين تلك الشرائع ، ومعنى الحياة ، بين أينشتاين وبيناريس».

اختصرت هذه الفكرة لسنغور فأجاب :

ـ واليونان ؟

ـ إنها حملت الى العالم إرادة المعرفة . خلفها ، كانت الديانة الأولمبية ، وعدد من الديانات السحيقة ، كما المسيحية اليوم خلف إرادتنا المعرفة . أميركا ليست ملحدة ، ولا كلوديل ولا بيغي ولا رووو . واتساءل إن لم تكن المسيحية هي التي تضمن

ديمومة حضارتنا . فالتناغم ، كما وعاه الشرق الأقصى ، حتى خارج البوذية ، لم يعد يجيب عن السؤال الذي يطرحه معنى الحياة البشرية ، بل بات يبعده . فالمسائل الماورائية ، وهي تّمحي أمام الكشف ، كانت تّمحي حين كان ابن السماء يخطّ أول ثلم من السنة .

- والزنوجية أيضاً تخط أول ثلم . فاكثر الذين ، اليوم ، يغرفون من اليونان . يخونونها . فأيّة قارة ، إن لم تكن افريقيا ، تجرؤ على استعادة قول اناغزاغور : « كل ما يظهر ، هو رؤيا من اللامنظور » ؟ أو تجرؤ على القول إنها تجد عبقريتها كلما تغنّت بالأرض الأم ؟ علينا أن نسهم في استعادة وحدة الانسان والعالم ، وحدة الطبيعة والفوطبيعي . من هنا ، ان اكبر أساطير اليونان ، هي اسطورة « أنطيه » .

وكم بدا لي استشهاده باليونان فردياً ، أمام رعشة الحرارة الممتدة إلى البحيرات الكبرى ، الى الغابات اللامتناهية حيث ينبت الناس كما الشجر . . . فوحدة الطبيعة والفو طبيعي ، التي عرفها نهرو ، نابعة من الأكروبول (أثينا) على مئة كيلومتر من ملكة سبأ . هنا ، عقّبتُ :

- تريد ، أنت ، اتحاداً وحدوياً وثيقاً . ثمة الاتحاد الهندي الاسلامي (دلهي ، أغرا ، وكل الغانج تقريباً) ، واتحاد المسيحية وروما ، كانا ناجحين . لكن ماوتسي تونغ لا يبحث عن نزعة إنسانية شاملة ، وحتى ماركسية ، إنه ينتظر نجاح اتحاده هو .

- من يريدون بناء العالم الثالث ، يملكون ، على الأقل ، ثقافتين .

فكّر ، برهة ، وأجاب :

ـ حتى زملائي الذين يكملون ممارسة التعويذة والحجاب سرّاً (وجميعهم لديهم تعويذات) حتى الذين شغلوا قبلك وزارتك ، حتى الذين جاوروك وزراء دولة ... المهم ... اخيراً البرازيل .. حين اتكلم على ثقافتين ، يجب ان اتكلم فعلياً على ثقافتين . صحيح اننا نجيء من الماضي ، إنما لا من حالة الطفولة الكانت تمنحنا إياها دول الاستعمار . في مملكة سينيا ، حيث ولادتي ، كان الملك وريث المؤسس . وكان يمثل وحدة المملكة . تماماً كما عندكم . بل اكثر : كان يجمع جماعة الأحياء ، الى الأسلاف والعباقرة والألوهية . منذ ثلاثة أعوام ، أخلى فلاحونا القرى الجديدة ، لأن توزيع الحصص لم يكن ملائماً لهم .

طبعاً ، لا أنكر أن العديدين من زملائه ـ رؤساء افريقيا السوداء ـ وبينهم وزراء سابقون ـ مسيحيون ، وماسونيون في بعض المناسبات ، وعبّاد أصنام وتعاويذ . وأتذكر هنا ، الأب فولبير يولو ، رئيس الكونغو الفرنسي ، حين ذهبت اليه أفاوضه في استقلال بلاده . كان على منصة تحيط بها أشجار باسقة عشش فيها المستمعون . وفي الكاتدرائية الافريقية الكبيرة ، كان أطفال الكورس الزنوج ، وفي أعناقهم فطر الأشجار ، جالسين على مقاعد خشبية . وفي الليل ، عند انتهاء استلام القصر رسمياً ، بدأت رقصة جماعية لأعضاء الحكومة ، فإذا بالأب يولو ـ في جبته البيضاء ـ يركب ظهر وزير الداخلية الذي راح يدب على الأربع ، والجميع يصرخون : « الاستقلال ، تشا تشا تشا ، ربحناه تشا تشا تشا » ، وكان قنصل الولايات المتحدة

يأخذ تسجيلاً صوتياً للرقصة ، من ميكروفون صغير أخفاه في سترته .

في البعيد ، كان النهر العظيم ، وناطحات السحاب المصعوقة في ليوبولدفيل وكونغو لومومبا التي كان عمقها القاتم هاجس كل افريقيا ، إلا ذاك الأب الموقّر .

سنغور ، مثلي ، يعرف جمال هذا المنظار ، ويعرف ، اكثر مني ، مدلوله الليلي ، هو الذي يعرف حلم كل الرؤساء الأفارقة بتوحيد افريقيا . وخصمه المباشر كان رئيس مالي ، موديبو كيتا ، سَلفي في المكتب الوزاري لدى القصر الملكي - وإليه كان سنغور يغمز : لكنه لم يكن يجهل افريقيا ، بدءاً من كازامانسا . ومع أنه يحملها في قلبه ، يخشاها إذ يُحْرَج لوضع روحه في تصرف الدولة . والدولة ، هي الدولة المعاصرة . من هنا استطراده :

- منذ ثلاثين سنة ، وأنا ابشر بالحضارات الخلاسية . علينا أن نخلق معاً نموذجاً خلاسياً ثقافياً كبيراً ، كما تم في مصر والهند واليونان . ولم تكن حضارة الشمولية تستحق ، بعد ، هذا الاسم ، اذ كان ، بعد ينقصها نبض الطاقات الهاجعة في إفريقيا وحتى في آسيا ، حيث حرارة الروح . ذلك ان الحضارة الأفريقية اللاتينية ستوحّد التكميليات الحضارية . وعام ١٩٤٢ ، كان ديغول يقول لأحد الحكّام : « انت بورجوازي ، والمستقبل للخلاسية » . فالغرب شوّه الانسان . وأفظع الاستعمارات : ديكتاتورية التقنية الأوروبية أو الاميركية أو الروسية ، وهي لا علاقة لها مطلقاً مع المنطق اليوناني . من هنا ان مندوب الثورة الجزائرية كان يقول لي : « فرنسا هي أنتم ، وأنا ، ورئيس

جمهورية مدغشقر ، هي الثقافة الفرنسية . وحين كنا أطفالاً ، كان فيكتور هوغو سيداً كبيراً من أسياد التام تام » .

ـ ولِمَ لا ؟ نحن قلنا انفسنا ورثة الرومان ، طوال قرون . مع ان الرومان أهلكونا : ٤٠ ألف يد مبتورة في أوكسيلّودونوم ، ومع ان فرنسا صارت أكبر قوة رومانية . أما فيكتور هوغو ، فهو كان يؤمن بتفتح افريقيا ، انما بأممية الشعوب . ورغم تمجيدك الزنوجية ، أنت تعيش من أجل السنغال . هنا أيضاً ، يتولّد مفهوم الأمة ، ونيتشه يغلب ماركس في نظريته .

ـ نعم . والسنغال ليست فقط إدارة شعب يجب ان اتقمصها بقوة الشاعرات في ضيعتي ، حتى لو هي ، كما الجزائر ، لم توجد بعد . فإنها ستوجد .

عاد ضجيج السيارات ، معلناً ازدحام سير . لكن سنغور أكمل :

ـ أسهل عليّ التصاقي باليونان من نيويورك . ولكن ، ما العمل ، وعليّ اعتناق المنطق البوليتقني حين الجماهير تتمنى بقاء الزنوجية بدائية ، بل ذات نظام قبلي . انت تعلم كم ناضلت ضد الاستعمار . تماماً مثلك . لكنني حين وقعت أسير النازيين ، شعرت انني فرنسي ، أو على الأقل منتمٍ الى الجمهورية . بومبيدو عرّفني الى الاشتراكية . فحقوق الانسان حقيقة موجودة . وانتم جعلتم الزنوجية شرعيّة حين لم تكن بعد واعية هي نفسها ماهيّتها .

هنا تذكرت يوم كنا ، الجنرال ديغول ، سنغور ، وأنا ، في مسرح الكوميدي فرانسيز ، حين انتهى موريس إسكاند من

إلقاء قصيدته المكتوبة في المعتقل . وتذكرت أيضاً نقاشاً مملاً في خيمتي خلال فترة اعتقالي (١٩٤٠) ، بين المجاري الصقلوبية والقساطل المهملة . كان معنا ، أيامها ، قناصة سنغاليون ، فسأل أحد العرفاء الفرنسيين في مرارة : « ما كنا نسميه«أمة » ، ما هو؟ » ؟ ، فأجاب قناص سنغالي : « وكيف أنّك لا تعرف ، أنت » ؟ .

وعاد سنغور الى الكلام :

ـ اسمعوا زمامير السيارات . . . معهم حق ، هؤلاء السائقون . . . ولكن أي رئيس افريقي لم يشعر بنفسه في اقلية ، داخل وطنه أو داخل حزبه ؟ هذه ضريبة أن يكون سابقاً عصره . أريد افريقيا ، لكنني لن أناضل ضد الآلة ، لأنها ، وحدها ، تنتصر على الفقر .

وكان هذا ، حرفياً ، ما قاله لي نهرو . وتذكرت أيامي العشرة في بونتينيي حيث كانت تتصارع حضارات أوروبا وآسيا ، وحيث صرخ جيد عائداً من الكونغو : « ولكن ، في كل هذا ، ماذا عن الزنوج ؟ وأين دورهم ؟ » .

أجبت سنغور :

ـ لكن الآلة ، كما تعرف ، شيطان . . .

ـ بِمَ ؟

ـ المال المكتَنز من الآلة ، لا يستثمر إلاّ في آلات أخرى . . . انها ساحر رهيب . . بالمال الذي ربحه السيد بيجو اذ كان يصنع الدراجات ، صار يصنع سيارات ، أو وضعه في مصرف

يستثمره . . . وبم سيستثمر الغرب ما غنمه من مال؟ ان شراء لوحات من رامبرانت ، لن يصدّع ميزانية الجنرال موتورز . . .

- من حسن حظها في العالم الثالث، أنها ثمينة . . على كلٍ ، لن تكون لنا وسائل كثيرة ، حتى ضمن وسائلكم . . .

اكثر رؤساء الدول الذين التقيتهم ، عدا الشيوعيين ، (وحتى الرئيس كينيدي) أثاروا نقطة الطابع اللاإنساني في حضارتنا ، واتساعها للنضال ضد البؤس والمصائب . . .

من الشبابيك ، كنت أرى ناطحات السحاب الصغيرة في داكار ، وهي نفسها كما في القاهرة وبغداد وبومباي . على المدخنة ، عُلّقت ساعة صغيرة ، كأنها تشير الى الثانية عشرة والدقيقة ٢٩ ، الى الأبد . . . وهو التوقيت الذي فيه ولدت افريقيا الجديدة وآسيا الجديدة ، أيام ملكة سبأ ، وزمامير السيارات تحت الشبابيك .

نهرو أيضاً ، وغاندي ، وماو ، وآخرون ، تطلعوا الى العقارب التي تعلن أن أوروبا لم تعد سيدة العالم . وإذ كنت أستمع الى رئيس السنغال ، كنت أفكّر بأن القيصر لم يرَ يوماً ساعة حائط ، وبالعصر الذي حلّت فيه عقارب الساعة علامة الشمس على الأرض . . . بالعصر الكانت فيه الواجهات تضاء في وقتٍ ما ، وتنطفىء في وقت ما . وأمام ساعة الحائط الأمامي ، هذه ، بعد مئة عام أو مئتين ، قد يقف أحدهم يحلم بالعصر الذي فيه كانت تستيقظ القارات الهاجعة ، عصر أول قنبلة ذرية وعصر معسكرات الإبادة .

ودقت الثانية عشرة والنصف ، في ذاك المكتب المكيّف

الهـواء . هذه السـاعة ، يـوماً ، غـزت مسيحية الاجـراس ، والزمامير ، تحت الشبابيك ، تنبح مع الآلات . . . تطلعت الى سنغور ، وسمعت همسات القصائد الزنجية في المهرجان :

« افريقيا ، أنتِ بي . . .
كما تمثال حارز في ساحة الضيعة . . . » . . .

في اليوم التالي ، كان افتتاح المتحف ، واحتفال خطابي في مجلس النواب . . . بعد الافتتاح ، كانت مناقشات مع علماء من مؤسسة افريقيا السوداء ، ومـع كهنة سنغـاليين ، اتمنى دائـمًا لقاءهم مجدداً . في السهرة ، دعاني أحدهم ، بكلمة مديح ، إلى عنده لأرى « أشياء تعجبني حتمًا » .

رأنا أعرف هؤلاء المرتزقة . رأيت منهم كثيرين ، ممن كانت عندهم أشياء ثمينة علموها . إنما هذه المرة ، كان المحل أقرب الى مغارة . وفي بلدان اخرى من أفريقيا ، عرفت هذا النمط من الكهوف ، حيث الأقنعة معلقة على جلود أسود وقردة سود . هنا ، لاحظت التماثيل مكدّسة حُزَماً ، إذ يتم صنعها في محترف مخبأ . في مكان آخر ، لمحت قطعة ترابية صغيرة تشبه عشرات أمثالها ، عن « انتصار ساموثراس » . وهو ، وإن أنهكه المجد ، لا يزال الوجه اليوناني الوحيد الأقرب الى الفوطبيعي . ولم يحفظه محافظو اللوفر في صالة الروائع القديمة . بل نقلوه الى غـرفة خاصة ، لما يتمتع به التمثال من منظر يديه المكتوفتين ، مما ليس لدى سائر تماثيل الانتصارات ولا الملائكة ، لأن الأجنحة ايدي العصافير ، والوجه المجنح لا تكتمل روعته إلاّ إذا هو بدون أجنحة .

المثقفون الأفارقة ، الذين حدّثتهم يوم أمس ، وهم يتتبعون سنغور ، في تفاوت ، لا يجدون معنى لحياة الحيوانات والنباتات الأخوية والجبال ، إلا بمقدار توافق هذه الحياة مع عمل الموتى . شجرة ملكة كازامانسا مثلاً ، وكون الله سلف أسلاف العشائر التي هي اسلاف البشر . كان جمع وجههم للحائط ، كأنهم أسرى ، ومثلهم عقاب معفّر أبيض في هذا الكهف الأسود ، واقف على قاعدة سوداء ، بين كل تلك التماثيل التي بلا أجنحة . هكذا ، تمثال الانتصار ، الوجه المجنح الوحيد الذي رفعته اليونان من ساحة المعركة ، صار سلفاً أبيض . . .

اكتب هذه الأسطر ، أمام نافذتي . في الأسفل ، وفي ساحة غير منظورة ، كناسون مبكرون يمحون آثار الاستقبالات الرئاسية . لم أنس الطريقة التي تكلم بها سنغور على اليونان .

الفراشات ترفرف فوق مواكب القرنفل ، كما بالأمس فوق حدائق أونفال ، أيام هرقل . . . وأنا أستعيد حواري الأخير مع اثينا . يومها ، كانت الحكومة اليونانية دعتني لحفلة خاصة ، احيتها في الأكروبول . كنت أخطب ، يترجم كلامي الفوري شاعر يوناني ، وأمامي ، في العتم ، جمهور غفير بين الأعمدة الجبارة . ويومها حملت الى المناضلين اليونان في المقاومة وفي الحرب ، تحية مناضلينا . (فيوم تحرير باريس ، حملنا أعلاماً مثلّثة الألوان ، كنا وضعناها في أدغال كريت) . في تلك الليلة ، كان ولي عهد اليونان والأميرات ، على منصة ديموستين ، والنساء بثيابهن الصيفية ، على طراريح . وكانت مكبرات الصوت تنقل الكلمات الى الجماهير الممتدّة خطوطاً طويلة .

كنت وصلت ، يومها ، عند المساء ، فلم يتسنّ لي ، ان ارى البـانتيون ، ولا المـدينة ، ولا حتى المنصـة التي وقفت عليها خطيباً :

مرة اخرى ، نحن في ليلة اغريقية تحسر فوقنا عن شعشعات نجوم كان يترصّدها ساهر أرغوس منتظراً إشارة سقوط طروادة ، سوفوكل ، ذاهباً الى وضع انتيغون . . وكـذلك ، بيـريكليس حـين سكتت ساحـات البارثنـون : « اذا كان كـل شيء الى سقوط ، قولي عنا ، أيتها الأجيال المقبلة ، اننا بنينا هنا أجمل المدن وأسعدها ».

هنا ، أضيء الأكروبول ، وبدا بحارتنا البيض يصلون إليها من جبال البيريه ، في موكب مهيب : « الأكروبول ، هو المكان الوحيد في العالم ، المسكون بالشجاعة والفكر معاً . ولا يصل الينا اشيل وسوفوكل ، بالصورة نفسها ، إن لم نتذكّر أن كليهما كان مقاتلاً . من هنا أن العالم ، ينظر الى اليونان الخـالدة ، نظرته الى اثينا المفكّرة المتكئة على حربتها » .

ولا تزال لخطابي ، تلك الليلة ، نكهة خاصـة ، ذكرتنيهـا مشاهد الرجال الملوّنين في التشاد ، صبيحة الاستقلال . . . « ان الشعب الذي يحبّ الحياة ، حتى في العذاب ، هو الذي كان في آن واحد ، يغني الى القديسة صوفيا ، ويتضرع على قدمي هذه التلّة في انتـظار صرخـة أوديب التي ستخترق العصـور . انه الشعب الوحيد الذي يحتفل بعيد الـ « لا » . و « لا » الأمس ، كانت « لا » ميسولونغي و « لا » سولوموس . ولم ينس العالم أنها كانت « لا » أنتيغون و « لا » بروميتيه . فحين آخر شهيد من المقاومة اليونانية ، ارتمى على الأرض التي سيمضي عليها أول

ليلة له من وفاته ، كان ارتمى على الأرض التي ولد عليها أنبل وأقدم رفض في تاريخ البشرية تحت الأنجم نفسها التي سهرت على موتى سالامين » .

وكانت الأنوار مشعة ، أمامنا، في سالامين . وأبعد منها بقليل : في ثيبا . في نهاية تحضير خطابي ، دعوت اعضاء سفارتنا (وكانوا ساهموا في الاحتفال) الى كأس خمر في مطعم خاص بالخمور المعتقة ، كان خدمه ينظرون بدهشة الى الأكروبول مضاءً . لكن أحداً لم يوافني اليه . كنت وزيراً ، كما يحلو لنهرو أن يدعوني .

لدى عودتي من المطعم ، كان الاحتفال بدأ . لم اكن أفهم من اليونانية الحديثة سوى اسماء العلم ، وكانت أسماء الفرس ترنّ في مسمعي بوضوح :

« داريوس ، أيها المجد القديم ، تعال وأظهر على ذروة تلّتك الجنائزية

إرفع صندلك المزعفر الى قدمك ، ولّمع قلنسوتك الأمبراطورية ،

داريوس ، أيها الأب الذي لا الى اقتراب ، قم من الموت » .

والتمعت في العتمة ، شعشعة أضواء نوّرت أوديون هرقل الأتيكي . . . وأجاب صوت أجش ، صوت الكورس ، فقال :

« يا رفاق شبابي ،
ايها العجّز الفرس ، بأي داء مصابة مدينتي ؟ » .

ثم يبدو ظل داريوس :

« زوس أوصل النبوءة الى ولدي . . .
كان هدم المضيق ، وحفر عقاله ، وشق طريقاً مهيباً لجيشه الجرار . . .
أغلق البوسفور العظيم » .

وفي نهاية الانشاد :

« هي ذي الخرائب المهولة ، الراسخة في البال ، كما لم تفرغ مدينة من قبل » .

وتذكرت بداية تلك التراجيديا ، منذ اقلاع الأسطول الفارسي : « انه شعب السيوف ، قوة آسيا ، وراء سيده الشاب » .

كانت تلك العبارات التي بلا أشخاص ، تتصاعد في الليل من الأكروبول ، الأبتر كما بعد مرور داريوس . وكان هواء بحر الإيجيه ، يحرّك الأوكاليبتوس كما لدى عودة كزيركسيس مهزوماً :

« آه ، لو كان الموت
كفنني مع محاربيّ الموتى »

ثم يجيب الكورس :
لديّ ، لتحيّة عودتك ،
صوت البؤس ، والدعوة الى البؤس . . .
كم هي تلمع ، عين المضلِّلة » .

وتجيء الجمل الأخيرة :

« ابكِ . . . بخطى وئيدة . . . » .

في سفارتنا ، قبل اخلادي الى النوم ، رحت أفكر في ليلة كايان ، مع صور السجن ، والخانق المميز ، وآخر الأزواج المذّرين في الليل الاستوائي ، كما فكرت في شخصية أرسطوفان ، وهو راح يفتش عن بثرة المزين بالزنبق .

ولي العهد ، إذ صار ملكاً ، بات في المنفى . وإحدى الملكات ، على ما أظن ، تزوجت ولي عهد اسبانيا ، الذي التقته على متن اليخت « آغاممنون » حين كان في المياه الاقليمية اليونانية .

صباح اليوم التالي ، كان عليّ ان أرى متحف الأكروبول ، إذ أعيد افتتاحه .

في السوق ، كان الحديث يدور على الخطابات وعلى إضاءة الأكروبول . أما المتحف ، بكل أقسامه وموجوداته التي يعود أهمها الى ١٨٦٧ ، فكان تم توسيعه بشكل لافت . ولم اكن ألاحظ ان الأولمب غائب عنه . وكانت حاملات الهدايا ، كما أبطال أشيل ، يتفرّدن . من آلهة اشد عبوساً من الأولمبيين .

على الباب ، كانت صبية شقراء ، تشبه هيلين طروادة ، تنتظر كأن حبيبها . كأن جمالها الحي ، انعكاساً مقدساً للداخل . وخرجت . وكما ليلاً ، كان الهواء الطري يأتي من البحر . كان ضباب خفيف ، يفوح منه عطر الأرض . تذكرت ، قبل سنوات ، حين كنت ازحف تحت السنديانات القزمة ، في أدغال كوريزيا الشبيهة بساحة معارك الإيبر ، في حين كان يمرّ فوقنا الطيران الألماني . يومها ، فهمت من العطر ، انني امرّ قرب جبّ زنبق . كم سنة يدوم جبّ الزنبق ؟ في

أسفل البارثنون ، تحت الشمس ، كانت تطاردني أصوات الوجوه النصبية التي رأيتها لإلفنتا قبل أشهر :

« . . وجميع المخلوقات في .
كما في هواء مجنون دائم الهيجان في المدى » .

كنت أعرف جواب الإيجيه منذ الآلهات الكريتية المجنحة فوق أراجيحها : « لا أحب الآلهة التي تُعبَد في الليل » . ومع هذا :

« ويكون للّيلة المستوحشة ، في العيون العمياء ،
أن تلد الموت والنوم ، ومعهما كل سلالة الأحلام ،
. . لأن الحب والحقد كانا قبل الزمان ،
وسيبقيان بعده . . . » .

وثمة دلف ، وشق الفدريين فوق كهب فيتيا ، والأجنحة الكانت تضرب صفحات الجبال العالية مصوّتة فوق القصب ، كما في بلاد فارس ، حول محفورة داريوس . . هذا هو أكروبول أثينا ، الذي نفى بروميتيه والإرينيين . فبم كان يؤمن ، فعلاً ، سقراط وبيريكليس وسوفوكل ؟

أيضاً وأيضاً ، كانت سالامين قبالتي في الشمس . « وكم حقد يفكك اسم سالامين » ، كان صرخ ، تلك الليلة ، رسول كزيركسيس . فهل كان لي أحدس انني سأجيب : « حين آخر شهيد من المقاومة اليونانية سيلتصق بالأرض التي عليها سيقضي أول ليلة لوفاته . . . » . بعدما رأيت العديد من الرجال يمرون حدّي تلك الليلة ؟ تلك الليلة التي سهرنا فيها على جثة أول شهيد منّا في أحد الأدغال ، تحت علمنا المرفرف فوقنا . . . ليلة معركة داماري التي شهدنا فيها ، ونحن منبطحون على الثلج

الأبيض ، مزارعنا تحترق في الأفق . . . ليلة الفلاحات اللواتي كنّ يجئن بالأزهار إلى شهداء الأدغال بين كيلوغرامين من السكّر كتقدمة ، لم يكن احد يسرقها .

أتذكر ، وكان لي نحو العشرين ، حين قرأت « الفارسيات » على عتبة هذا الهيكل . فماذا تقولين بشبابي ، يا حياتي الثقيلة ؟ عام ١٩٢٢ ، كانت أثينا محصورة على قدمي الأكروبول ، مدينة مصفرّة تحت سماء جميلة زرقاء ، تعبق ، مسَاءً . برائحة اليانسون من المقاهي الصغيرة . واليوم ، ها هي المدينة الرمادية ، تحت سماء بلا لون ، تمد أرصفتها الرخامية ، وتمدّ حتى البحر طريق البيريه ،. المحفوفة بأشجار الغار . وكان حارس زيتونة الإلهة أهداني ورقة غار . ودوّنت على نسختي من كتاب أشيل : « ربما أثينا لم تكتشف السعادة بعد ، لكنها اكتشفت المجد » . وكان يمكنني أكتب : « هنا يبدأ قدر الإنسان ، وينتهي القدر » .

ورغم ديونيسوس نيتشه ، ورغم أرغوس لوكونت ده ليل ، كانت اليونان ، في نظر أناطول فرانس ـ وكان حياً بعد ـ ما كانته في« صلاة الأكروبول » : منافسة المسيحية . وكان ماركس كتب : « نقدّر الفن اليوناني لأنه يعبّر عن فجر الانسَان » . وكانت أثينا ، ومنها بيريلكيس ، أعلنت : « هل لك أن تعترفي ، أيتها الأجيال المقبلة ، أننا بنينا مدينة هي اجمل المدن وأسعدها » . . . من كان يقول انني سأجد هذه الأسطورة مُشِعّة ، حول كازامانسَا ؟ .

زالت « بالاس » آلهة الحرب ، عدّوة المسيح . فاليونان القديمة لا تواجه ـ دون ألق ـ ماضي العالم . لكن الألق تبدّل : ففي وجه الشرق الخالد الذي يحمله الانسَان في ذاته ، يأتي

مجيء العقل والمنطق ، وقحاً في موازاة العبادة الأولمبية . وهذه الأخيرة ، لم نعد نتقبلها تعمّ العالم ، لكن اليونان معلقة على جسد العنصر الأبيض كما التوراة . فقوة الغرب العظمى ، ولدت من شعبين صغيرين محمومين وقويين ، لم يغرف منهما حمّاهما ولا قوتها ، ولا سحرهما . على أن أوروبا حَدَسَت بالهيبة اليونانية القديمة . لكن هذه الهيبة ليست هي التي تقلقنا اليوم ، بل التقاء أفلاطون وأرسطو ، والتقاء الأكروبول ، وإله الهندسة ، المستوحد كما الدب الأكبر في قبة السماء .

ما الجمال ، اليوم ، إن لم يكن اسلوب الفوطبيعي اليوناني ؟ فإلهة المنطق والعقل ، التي شكّ بها فيدياس ، تبتعد وهي تتأمل مجد « الانتصار » تمثالاً في محترف تماثيل . إنها الهيولى تلاعب الخلود . انه المنطق ، ظلاً خفيفاً على تماثيل الصحراء . على قبور الفراعنة وملكات بابل اللواتي ما كنّ يعرفن قواعد الهندسة ، إنما كن يعزفن على القيثارة للنجوم . . .

نحن ، اكتشفنا قواعد للكون ، الكون الذي سيبقى هو نفسه ، لو لم يكن الانسان موجوداً .

الى هنا ، كنتُ وصلت في ذكرياتي ، حين عاد المرتزق الى حثي على مشاهدة « قطع نادرة من الفن الافريقي » وصلته مؤخراً . ورحت أشاهد ما عنده ، غير « انتصار ساموثراس » .

وكان ذلك كما درب الصليب ، في كنائس الإرساليات الافريقية ، لم ألاحظ إلاّ فناً متشابهاً ، إلا بعض المرسلين كانوا يسمحون لرعاياهم نحت تماثيل مميزة نوعاً . وكان درب الصليب ، هذا ، مميزاً بمصلوب زنجي كهنوتي متشنّج :

« يا سيدي ، إني أصنع آلهة زنوجاً كذلك ،
وأتجاسر أن أعطيك خطوطاً قاتمة ويائسة . . . » .

محفورة الهرب الى مصر ، على حمار هزيل ، ذكرتني بمحفورة رومانية ، بدون غيبوبة العذراء. انما كان فيها طابع قاسٍ ، لا يوحي بمراحل الجلجلة . فمن أي انجيل محرّف استُقِيتْ هذه المحفورة ؟ وكان كلب على قدمي المسيح في قانا ، وخلال العشاء السرّي ، وخلال دخول المسيح بالنخل الى اورشليم . حلمت طويلاً بقراءة الأناجيل المحرّفة ، خاصة حول طفولة يسوع ورفاقه وأترابه .

الثور والحمار ، في اللوحات ، ليسا في الأنجيل . وكانا في المحفورات أمامي متعددين . لم أجد قبلاً ، نحوتات مسيحية . بهذا الأسلوب ، وهو شائع في كل معرض سنغور وفي كل افريقيا . هل هي تخص افريقيا اكثر مما تخص المسيحية ؟

رحت أنظر اليها ، كما بالأمس ، في بغداد ، الى تماثيل برج العقرب الكانت تحيي النحت العذري ، وقبلها الى مدرسة نحتية من رومانيا . فالانسانية كفّت عن ايجاد وجوه كما وجوه فيوريتيّ . بل هي منذ ١٣٠٠ ، كفت عن ايجاد ديانات .

هذا المصلوب أمامي ، مؤثر ، غير قوي ـ كما تماثيل المصلوب الرينانية أو الاسبانية المؤسلبة في عنف. وهو قد يكون في مكانه ، اذا وضع في معسكر إبادة ، في الصراع ضد الشر المطلق . فهو يستدعي قوة الأخوّة ، إنما ليست هي التي تصل الى عمق رفيق الموت والزمن . وهي ليست قوة موعظة الجبل ، بل توحي بالآلام . وحدها التضحية تصل الى عمق الألم .

ورحت افكر : لماذا الديانات تمتد من المطلق الى الحب ؟ ترى لذلك ، صارت لاأدرية نوعاً من الشفقة ؟ إن سرّ التجسّد ، ولد من شعب رضي ان يباد ، على ان يرضى برجل أمبراطور يؤلّه .

صحيح ان الحمار والثور ليسا في الانجيل . إنما الخطيئة الأصلية كذلك . واللهجة القوية لذاك الذي وحده يملك القوة والمجد ، لا تغلب صوت يوحنا القائل : « المسيح قال : لم آتِ لأحاكم العالم ، بل لأخلّصه » . من هنا ، ان الطابع المؤثر في هذه المحفورات ، غريب عن طابع التماثيل الأفريقية ، وكذلك عن كاتدرائياتنا ، وقريب من فن اسرائيل المقدس .

ـ هه . . بدأوا يتوافدون .

ودخل كاهن سنغالي كنت تحدثت معه امس في المتحف بعد خطاب الافتتاح ، وقلت له : « ليس نحات واحد اليوم في داكار ، يمكنه صنع قناع » .

فأجابني :

ـ قد يصنع شيئاً آخر .

لم افهم ما قصد . لكنني قد افهم . . . وزعق التاجر المرتزق :

ـ سيّدنا الكاهن ، كان اوصاني على تماثيل .

فراح الكاهن في شرح بلكنة فرنسية سليمة :

ـ لاحظ كم بقيت الكنيسة امراً أوروبياً . بل اكثر :

اميركياً . تماثيلنا نحن ، تفهم الشرق اكثر . ليس من يصنع تماثيل المصلوب كما نحن . ونحاتوكم المعاصرون ، أعجز من ان يصنعوا تماثيل يصلي لها الناس . فما نفعها ! قم بجولة الى رعية من عندنا ، تكتشف ان مسيحيينا أعطوا الأنجيل في جيلين ما أعطته له أوروبا في مئتي عام . من يعرف هذا ؟ لا أحد . قداسة البابا ربما . التقاليد الدينية بيضاء دائماً . يجب ان تقوم تقاليد زنجية . وستقوم . كما الله ابيض مع البيض، سيكون زنجياً مع الزنوج . اننا أقرب الى التوراة من ا ملانية الأوروبية .

لاحظت ان هذه ، هي تعابير سنغور : « العقلانية ، الزنوجية » . النفَس نفسه . وكان هذا الكاهن يشبه الأب يولو رئيس الكونغو . فأردفت :

ـ ولِمَ لا ؟

ـ الجنرال ديغول يقول أيضاً : ولِمَ لا ؟

ـ ربما . . .

ـ ستسمع مؤمنينا ينشدون المسيح . لكن احداً لا يساعد يسوع على دخوله الى قلوب الزنوج . عليه القيام بذلك وحده . . . وحده .

وختم ، كما متوجهاً بالكلام الى المصلوب ، همساً :

ـ اذا استمرت الكنائس الأوروبية بضلالها ، اما علينا الذهاب لردّها الى الانجيل ؟

واستدرت لأجيبه ، فكان رحل .

خرجت من ذاك الكهف ، الى شارع كان فيه امامي زنجي يسوق حماراً ، ختياراً كما كازامانسا . في البعيد ، كانت المدينة بصخبها ، الاحتفالي . وعلى سطح « إلُورا » شاهدت دخان حريق الأضحيات ، وهو لا يترك أي اثر ، تماماً الاستلهامات المنسية ، كما الأجراس الكانت تقرع دقات التحرير فوق مغاور دوردونيا التاريخية حيث كنا خبأنا اسلحتنا .

« في ليلة كهذه . . . » قال شكسبير ، بعد التوراة ، انها ليالٍ يحس فيها الناس بمرور العصور كما مرور الهواء على وجه الرسول . . .

كانت خطى الحمار أمامي ، تهدر في الليل ، كما ، ذات ليلة ، كانت خطى الذي حمل العذراء الى مصر . . . تذكرت قول بول فاليري ، وهو يموت ، الى جان بولان : « ما أسخف الحياة » . كم تذكرت قول اينشتاين لي ، وهو أشعث الشعر ، وكمانه في يده : « الغريب أن يكون لكل هذا ، معنى » . . . ورددت قول الكاهن : « علينا الذهاب لردها الى الانجيل » .

دقت الساعة الواحدة . . .

وشعت في الشارع باقة من أضواء الزينة ، فبدا ظلي على الأرض طويلاً حتى لامس ظل الحمار . . . بعد لحظات ، عاد العتم الذي لا تعود فيه إلا عيون القطط ، كما ديانات تزول . . .

راحت دقات الساعة تذوب في ضوضاء الاحتفال الليلي . ورحت أنا أتذكر الساعة الصغيرة في قصر سنغور .

II

سَفَرٌ في رُؤَى العَرّافات

نهاية ١٩٦٦

توفي جورج سال ، مدير متاحف فرنسا .

وكنت خلفت اندريه جيد في مجلس ادارة المتاحف ، بعدما كان ، هو ، خلف بول فاليري .

ذات يوم من ١٩٥٧ ، حمل إليّ جورج سال صورة لوحة لم يتوصل أي خبير الى تحديد عمرها ، كان أرسلها اليه تاجر اثريات ايراني اعرفه .

حين عام ١٩٥٢ رجعت ، ثانية ، الى أصفهان (بعد مرة اولى عام ١٩٢٩) كانت الشاحنات حلت مكان القوافل ، والساحة الجرداء الرئيسية بات فيها حوض مزنر برؤوس الذئاب ، تماثيل . . . وكان إهمال ايران يغطي وحدة بلاد فارس القديمة حيث حسك السمك الميكي كان يلمع على الرمل تحت شمس الف ليلة وليلة ، وحيث قبب المساجد الزرقاء نابتة في صدور المدن ، كما حجارة الفيروز في رماد البعث . أحب أصفهان كما احب ستندال ميلانو . ورأيت فيها تجار الأثريات ، وهم متجولون بلا محلات ، يحملون ، في حقائب كبيرة ، قطع قماش قديم ، تماثيل نسخ صغيرة ، قطع نقود عليها نقش

الاسكندر ، وأخرى نقوش من آرثابان وساويروس وكسرى وفرناباز .

وكنت تعاقدت مع عميد هؤلاء التجار ، سليمان آرون وابن أخيه سعيد . كان سليمان من الفرس القديمة حيث تبدأ جريمة قتل يهودي بالبرونز ، فيما سعيد كان صهيونياً شجاعة ومفعولاً .

يوم رأس السنة ١٩٥٢ ، وصلتني منهما هدية ليرة أرز (٥٠٠ غرام) ، رمزاً ، قال ، يجلب السعد ، ووصلت جورج سال منهما صورة قماشة قديمة في بغداد ، وعرضا أن يشتريها متحف اللوفر بخمسمئة الف فرنك . حجم الصورة ، بقياس بطاقة المعايدة ، وحجم القماشة بقياس منشفة . وهي غير مذكورة النوع (حرير أو غيره) ، ومقصوصة بشكل شعار فراشة ، وبقعة سوداء غير جلية ، كرسوم فيكتور هوغو ، مع جناحي عصفور شبح ورأس مبهم يظهر منه ثقبان لعلهما عينان . وشعاريتها لا تأتي من الشكل بل من التناسق التام الا في قص الجناحين . فهل هذا ، نسر مقطع ، ام فراشة ذات لحية ! ؟ . .

توقفت عنه أي أسلوب تنتمي اليه هذه القماشة ؟ ان كانت سابقة للاسلام ، فلا يعود للنقش العربي فيها أي اثر . . والفن الساساني لا يعرف الفراشات . يبدو لي أن لهذا التناسق جذوراً عريقة في الشرق القديم ، ترقى الى غلغامش . لكن هذه القماشة تتفلت من أي أسلوب . وأصلها ، بغداد ، لا يوحي بشيء خاص ، لأن سوق البضائع الفنية كانت رائجة في بلاد ما بين النهرين . . من هنا ، قد يكون هذا الطير ، في القماش ، اصطلاحياً ، اذ لا مكان محدداً له في التاريخ ، وان كان التناسق

فيه ليس وليد صدفة او طبيعة عفوية .

فكرت بالفن البارثي (القرن الثالث قبل المسيح) وهو لا نعرف عنه شيئاً . وكنت رأيت في بغداد عشرة تماثيل غريبة الحجارة ، وجدها في قلعة قديمة علماء الآثار العراقيون ، ووضعوها في كهوف متحف الموصل ، وعرضوها في بغداد بضعة أيام تكريماً لزواج الملك ، مع لوحات سوريالية عراقية . وكانت تلك ، فخاراً من الصحراء لوجوه تدمرية وساسانية ، حولها حشرات صغيرة لعلها رموز الأبراج .

ولعل هذه الفراشة الزاحفة المجنحة ، اذ ليست من تلك الأشكال المعروفة ، تنتمي الى فن مقدس ، كما عقارب بابل .

جورج سال ، يومها ، حمل اليّ الصورة ، متسائلاً ، ومردداً بأن سليمان يعرف ان يجدد القماش القديم . دارت الصورة على دوائر اللوفر ، وعجز جميع الحافظين عن تحديدها ، وانما جميعهم أجمعوا على أصليتها . ولكن ، كيف يمكن عرض شرائها على المجلس وهي غير محددة الهوية (ومبلغ خمسمئة الف فرنك ، كثير على اعتمادات اللوفر) .

كان جورج سال (وهو ابن محام كبير) حافظ متحف غيميه ، ثم مديراً عاماً للمتاحف ، لذلك حافظ على علاقات كثيرة . وكان ذا قامة منتصبة ، مهذباً ، مرحاً ، أشيب على شعر كثيف يرميه خلف اذنيه ، كما في القرن الثامن عشر بزي جناحي الحمام . وكان الحافظون ، التابعون له ، ينادونه الكاهن لاما ، ملمحين في سخرية محببة الى وجهه البوربوني النحيل ، وحركاته المروسة ، وتعففه تماماً ككاهن بوذي .

سألني :

ـ هل تعرف السيدة خضري باشا ؟

ـ حفيدة السلطان عبد الحميد ؟

ـ أعتقد . . .

ـ التقيتها منذ نحو عشرين سنة . . .

ـ لعلها بين الساحرات العرافات ، أفضلهن . .

ـ اذا كان الوسيط السيء دجالاً ، فكيف الوسيط الخير ؟

ـ هو الذي أثبت جدواه . وتلك السيدة أفادتنا كثيراً . صحيح أنها متسلطة وخيالية ، لكنها ليست كاذبة . تعترف بأنها لا تمتلك مهمتها جيداً : « بحكم العادة ، أجيب أحياناً عن الاسئلة . وغالباً ما تكون هي هي » . « ورغم هذا الاعتراف ، تبقي لديها على بعض الغطرسة . وهي منفصلة ، أو ربما مطلقة من أحد أمراء النفط ، وتعيش من مدخول معايناتها . ترك لها أصدقاء اثرياء بعض الغرف الصغيرة ، فحولتها محترفاً في شكل مميز . نحن ، ستحاول معنا مستطاعها . ولا تنسى أن تنسى كونها تعرف العربية : فغطرستها لا تتناسب والعربية ، حتى اذا تكلمت على القاهرة سألتك اين تقع . . . . »

واسترسل جورج سال يحلم . . .

« لا اهمية لغطرستها ، فالحركات الخارجية لا تصنف الناس دائماً . بهرتني في الماضي ، انما اليوم ، عدلت في اضاءتها . حوالى ١٩٣٥ ، سمتها مجلة « الموضة » ، إحدى اجمل ثلاث

نساء في العالم . وفي ما بعد ، باتت لها مرآة متحركة تحت الاضواء على مدخل قصرها في هيليوبوليس ، تركت فيه ثوبها الانيق ، تعكسه لنا المرآة المنحنية صوبنا ، بحذائه المطرز بالزمرد . وكانت نيميه (وهذا هو اسمها) تنظر اليه باستمرار . ثم استقامت المرآة منتصبة ، فعكست وجه نيميه المجعد . وبادرتني : « اليوم تأتي لأجل هذا ؟ » ، وانفجرت باكية . . .

لم أنس هذا الجمال ، الذي يقال يهودياً فيما هو جركسي ، من الشرق ذي الاحلام ، من عند صديقتي ملكة سبأ . وعجبت كيف لم أجد هذا الجمال في أي من الوجوه العديدة التي تجعل باريس منها العالم . ولكي يقنعني ، يردف جورج سال : « موهبتها تخيف » ، لكنه لم يقنعني .

وبدأ الثلج يتساقط . فدلفنا الى مقصورة من طراز الفن التزييني . حملنا المصعد الى الطابق الثاني ، ثم ارتقينا طابقاً ثالثاً على الدرج الابيض . وزعق صوت فوقنا :

ـ تريدون تصويري ؟ تملكون هذه الشجاعة ؟

وفعلاً ، أحاط المصورون بمضيفتنا ، التي عرفتها فوراً : لم تعد سالومه ، صارت أتالي . انتهى المصورون وغادروا ، فادخلتنا الى محترف صغير . على البيانو ، صورة من الملك مع اهداء ، ولوحة لعبد الحميد ، في الزاوية اكواريوم ، وعلى الجدران لوحات سوريالية ساذجة بريشتها . على أحد المقاعد ، تكومت هرة سوداء . وكان ديوان نصف دائري يحيط بمدخنة جميلة .

جلست ، تفصلها عن المدخنة طاولة واطئة ، وتتوسطنا : أنا

وجورج سال الذي بات اليف المكان ، فقام وسكب لنا كأساً من الويسكي ، فعقبت :

ـ ويسكي فرنسا سخيف . في سكوتلندا ، هو دسم كما الشراب ، وقوي . دوقة أرجيل حملت لي منه على ذراعيها . . . يا سيدي ، يجب أن أوضح نقطتين او ثلاثاً ، يعرفها جورج لكنه لا يفهمها . موهبتي ساعدت مرة احد زملائكم ، وهو أحد اصدقاء الجنرال ديغول . قبل اتصال جورج هاتفياً بي ، عرفت انك آت اليوم . لا يهم من استقبل ، فلو كان عليّ ان استسلم كلما دخل جديدعليّ ، لكنت مت من زمان . فالنساء بحاجة للكلام على الرجال ، والرجال على النساء . أنا لا استمع ، وأخلص الى تجربة عرافة . هذه هي الحياة . أما موهبتي ، فلا اعرف عنها اكثر مما يعرف اصدقائي : انني أزار .

الى هنا ، لم تعد جاذبيتها جمالاً على ثروة ، بل صارت جاذبية مسرحية . قلت لها :

ـ سيدتي ، فيكتور هوغو لا يكتب رائعة كما « حزن أولمبيو » كل صباح ، وبيكاسو لا يرسم كل لوحة رائعة كما غيرنيكا . لكن الآخرين لا يرسمون مطلقاً .

ـ جان كوكتو يقول لي دائماً : أنت ، مثل الشعراء .

وفكرت : مثل الشعراء الذين لا يكتبون قصائدهم قط ولا ينشرونها ، أو كالرسامين الذين لا يرسمون مطلقاً . وراحت تكمل :

ـ ما أقوم به ، غالباً ما يخرج عبقرياً . صحيح ان الشاعر

والصياد وأنا ، ننطلق كل الى باحة ، لكن الصيد ليس دائمًا موفقاً ، وحتى حين يكونه ، يبقى محدوداً . عام ١٩٣٨ حدست بالوفيات التي كان لي احدس بها . ولم أحدس بالحرب . جاءني ساذج غبي يستشيرني بالرهان على ثروته في سباق الخيل ، وان لم يربح ، سينتحر . ولم أعرف يومها اسم الحصان الذي كان سيربح . المهم ، ما لنا وللماضي ، ماذا عندكما اليوم ؟

قدم اليها جورج سال ، بيدين ممدودتين ، الصورة الفوتوغرافية وقطعة القماش . وكان ، حين قبل يدها ، أمسكها بيديه كما ايام ١٨٢٠ . فهو يمسك كل شيء كما يمس أثراً نفيساً في متحف . فنظرت الى النار أمامها ، في لفتة ثاقبة ، ووضعت الصورة على الطاولة الواطئة ، ويديها على الصورة ، ثم راحت تمر عليها بأظافر يدها اليمنى ، وباليسرى تدلك القماش .

ـ هذا ليس من الحرير . انه سميك خشن . أحسه جيداً في يدي . الرسم ليس حياكة ، ليس علامة زخرفية . وليس ، حتى ، رسمًا . القماش مطوي طيتين . وما عليه ، ليس لوناً .

وتدخل جورج سال :

ـ مع ان البقعة الحقيقية ليست سوداء . تبدو هكذا ، في الصورة فقط .

ـ هذا ليس لوناً . هذا دم .

أمسكت بنسخة ثانية من الصورة . لم أكن فكرت ببقعة دم . كان جورج سال يدون أسئلته ، فسألها :

ـ وهل يمكنك الحصول على القماش الاصلي ؟

كلا ـ

ـ وهل سيكون لنا الحصول عليها لمتاحفنا الوطنية ؟

ـ لا ادري . قد لا تصل الى أوروبا . . . ثمة عربي ، بل شرقي ، سيقوم برحلة الى بلد في جوار بلده ، وستتغير حياته .

وتنبهنا : سعيد سيزور اسرائيل[1] . فبادرها جورج :

ـ عودي قليلاً الى الوراء . هل الذي تقصدينه ، هو الذي اعطانا الصورة ؟

حدقت في النار . ورغم حالتها الغيبوبية ، فهمت السؤال ، فسكتت بضع دقائق ، ثم أجابت :

ـ هذا بعيد . . . بعيد في المدى . . على الاقل في الشرق . وهذا زمان قديم .

ثم غاب صوتها السلطوي . . . وراحت تتمتم :

ـ ثمة هاجس إله . وكل ما عند الجمال مقرر . ثمة ساحة معركة في الليل . انكسرنا . ملك يفتش بين الموتى ، وراءه حاملو مشاعل . . . ثمة نهر كما النيل . . . وجسر مراكب . . . وملك آخر . . . ونساء يسكبن الخمر . . . وقطعان غنم . . . يهطل المطر من السماء السوداء ، كل يوم . . . ينقطع المطر . . . من الضفة الاخرى للنهر ، تشتعل النيران .

وهنا انفجرت حطبة في النار ، كما لو كنا نقصدها في حديثنا .

---

(١) فلسطين المحتلة (الناشر) .

وعادت لتكمل :

ـ في ما بعد . . . ثمة رجال بيض على أحصنة ، ورجال ملونون على . . . على ماذا ؟ على حيوانات غريبة لا اعرفها . . . متعددة الألوان . . . قد تكون اليوم انقرضت . . . لكن الرجال البيض ليسوا رجال كهوف ، بل كأنهم رومان .

هنا ، سألها جورج سال بلهفة :

ـ هل تَرَيْن ثيابهم ؟

ـ سيقانهم عارية ، وشيء من سراويل الزواويين (لباس الجنود الفرنسيين كما أهل الجزائر ومراكش) .

ـ والبلد . . . هل تعرفينه ؟

يشبه الصحارى الجبلية كما عندنا . . .

ـ وهل البحر قريب ؟

ـ كلا . . .

في قولها ، « كما عندنا » ، تقصد مصر . فكرنا ، أنا وجورج ، بزاما . ولكن ، هل الفرق القرطاجية التقت بالفرق الرومانية في مساحة صحراوية ؟

وأردفت :

ـ أرى رجلاً . . رئيس البيض . . .

فكرت : هل يكون سكيبيون الافريقي ؟

واكملت :

ـ بلا لحية . شعره يغطي جبينه . حده ثلاث نساء . حين

يترجل يمشي سريعاً . مهلاً . الحيوانات تتحرك . . أرى الآن بوضوح . . انها فيلة مدهونة . . بعضها مذهب . حد الرجل ايضاً ، انما اقل عدداً . . أمامهم جنود مدججون . . . يحملون مناجل كبيرة . . . يمر زمن . . .

وأشارت الى مرور الزمن بصمت عميق ، ثم اردفت :

ـ الرجل سيموت انما لاحقاً . . .

مـاءت الهـرة ، دارت دورة عـلى نفسهـا ، وقفـزت الى ركبتي . . . داعبتها . فقالت لي المرأة :

ـ لا تنـدهش . . دائـمًا هي تنفعـل هكـذا ، حـين أرى الموت . . .

ثم قالت للهرة :

ـ دعينا من قصصك . . .

وأكملت مداعبة الهرة ، فيما اكملت المرأة :

ـ الرجل صار مقابل رجل آخر يمتطي فيـلاً مدهـوناً . . . خلف هذا الآخر ، ثمة جنود يحملون اغصاناً ، وعلى الاغصان عصافير . . .

فكرت : هل يكون هنيبعل ؟ ثم اردفت المرأة :

ـ ثمة رائحة زهور سكرية . كما في تاهيتي . الرجل ذهب صوب الصحراء ، مع أنه هو الذي ربح المعركـة . هـا هـو الليل . . الفيلة تحرس النهر . . .

هـا بسطت كفها على الصورة . واكملت :

ثمة معارك كثيرة ضد مدن قوية ، على تلال أمام جبال . . . وفي البعيد ، جبال مستقيمة ، وسهول معشوشبة واشجار كأنها الحور . . الهواء آت من بعيد . . لا اعرف جبال اليونان . . كأنما ارى درع آشيل . . هل هذه طروادة ؟ ولكن . . اختفت النساء ، والجمال . . . الجمال . . . ماذا يجري ؟ حتى الرجل اختفى . . . آه . . ها أنا معه . . . يفكر بصديق قتله . . العشب اختفى . . . في البعيد ، صحراء وجبال زرقاء . . .

ـ هل تلاحظين نمو النبات ؟

ـ اختفى النبات . . ها هم من بعيد يحملون الخشب . . انهم . . يصنعون محرقة . . الجنود كثيرون . . ثمة احتفال . . انتهى . . . وانتصب نصب كبير . . . المحرقة تشتعل . . . الشمس قاربت أن تغيب . . على الرمل ، جمر . . فوق ، معلقة . . رؤوس حراب . . تنهار عظام . . . الجيش يطلق صرخات متقطعة . . على شبح الصحراء ، شبح حصان ، اسود يتمدد . . . لأن الشمس تغيب . رأس الحصان يسنده رأس حربة . . ها هو الظل يمتد حتى الجبل . . . ثمة قوافل تحمل خشباً بعد . . . جبال ، حمير ذات عقود زرقاء كبيرة . . أعرف هذه العقود . . . لعبت بها . . .

توقفت بسرعة وقالت لي بصوت آخر :

ـ سيدي هلا توقفت عن التفكير بهذا الصليب ؟ انه يزعجني . . .

وكنت ، بالفعل أفكر بصليب الأب فوكو ، المصنوع من غصنين صغيرين ، في دير هوغار الذي لا تنبت شجرة في محيطه

حتى ١٠٠ كيلومتر .

ثم عادت مضيفتنا الى صوتها الأول الغيبوبي . . .

ـ لم أعد افهم . . بعد المعارك ، ثمة صحراء كبيرة ، كما صحراؤ نا ذات الصخور السوداء في الفنتين . مع أن جميع القادة يحملون اوراقاً على خوذاتهم . وثمة عربات . . .

ـ مركبات ؟

ـ لا . عربات طويلة مغطاة بسجادات . . . داخلها رجال ، عشرة او خمسة عشر ، يعتمرون خوذات ذات اوراق ، يغنون ، يهرجون . . . ثمة حركات كبيرة فوق العجلات . . . انهم سكارى . . . وثمة الجيش دائمًا . . . ما به هذا ، يصرخ وهو يغني ؟ انه حزين . . . وعلى خوذته اوراق . . . وأزهار بيضاء ، وحدّه بعض النساء . . . و . . . لم أعد أرى . . .

وهنا ، انتصبت واقفة ، متأرجحة ، وذهبت تجلس أمام الأكواريوم ، حاملة معها الصورة . صارت السمكات الهلالية الشكل ، تنحرف في تحركها . اكملت المرأة . . .

ـ ها هو الآن ممدد على جسر سفينة . . . والجنود في . . . ربما في مراكب ، يمرون أمامه ، ويهتفون له . يرفع يده محيياً . . وثمة بعض التماسيح . . . والآن . . . هذه خيمة كبيرة جداً ، ذات غرف من نجود . . . و . . . مئات من النساء . . . بل اكثر . . . آه . . . انه عرس . . .

ـ هل تتميزين وجه الرجل ؟ (سأل جورج سال)

ـ الآن . . . نعم . . .

ـ كيف عيناه ؟

ـ انهما . . . واحدة زرقاء . . . والاخرى سوداء . .

انه الاسكندر المقدوني . . . والتفت إليّ جورج سال في صمت كبير . . .

ـ تعرفين متى سال الدم ؟

ـ دم القماش ؟ كلا . ثمة مدينة يملأها الجيش ، ومطابخها مكتظة ، وفيها شعل ورموز . . . وهذه مدينة اخرى بحدائق كبيرة . . . مرور زمن . . . وهذه مآدب . . . ومدعوون بالآلاف . . .

وبعد صمت كأنه صمت الدهور ، أردفت :

ـ هذه جمهرة تمر أمام سريره ، في قصر . . . حده هوة . . آه . . انه الموت . . الجنود في صف طويل . . . يحييهم برمشة جفنين . . .

وغاب اللامحسوس في هوة التاريخ ، لم تعد عينا الاسكندر تتطلع الى اشباح تتوالى ، بل الى ضباط مقدونيين . أمامنا ، الويسكي ، الدفء المريح . حولنا ، باريس . بعدئذ . لن يكون لها الا أن تزين حياة الاسكندر . فجأة قرع الباب . قامت المرأة تفتح مرندحة ، وهي تقول لنا : « أنتظر برقية خطيرة » . في الباب ، كان رجل ذو شاربين يعتمر قبعة . فصرخت وهي تهوي على عنقه :

ـ آه . . . هذه ليست البرقية . . .

فاندهش الرجل واجاب مذهولاً :

ـ سيدتي . أنا بائع الغاز .

اذن . . اتبعني من هنا .

وتبعها الى غرفة مجاورة ، عادت منها منشرحة . فبادرها جورج سال ببعض السخرية :

ـ الا تعرفين من يأتي اليك ؟

ـ أحياناً لا ، وأحياناً بلى . وابداً ، اذا كنت في جلسة عمل . لا يمكن التكهن مسبقاً . هل استطعت افادتكما ؟

ـ كثيراً .

لم تبد علّقت كبير اهمية على ما قالته لنا . وكنا على عجلة للرحيل . فاردفت :

ـ الاسبوع الماضي ، جاءتني دوقة لوين دون ان تسمي نفسها . كنت اعرف انها ستأتي ، وحددت لها شجرة عائلتها ، وهي شبيهة بعائلتي .

ابتسم جورج سال ، ببعض الصعوبة ، وتأملت انا هذه الساحرة المهتمة بشجر العائلات فيما هي تخرج من ظل الاسكندر المقدوني . على الديوان ، حدها ، كانت الصورة ، وقطعتا القماش . . انحدرنا الدرج سريعين ، كما لو كان ينتظرنا مفتاح الفوطبيعي . وتوجهنا عند جورج سال ، إلى اللوفر . وما ان اقلعت السيارة ، حتى سألني :

ـ تعرف الاسكندر جيداً ؟

ـ حين قدمت روايتي « الوضع البشري » ممسرحة مع تيير مونبي ، اكتشفت المسـرح ، وحلمت ان اكتب مسرحيـ « الاسكندر في الهند » . وأنت ؟

ـ أنا كذلك اعرفه من خلال التنقيبات . كان يمكن هذه المرأة ان تقول عدة امور غير صحيحة ، لكن اكثر الذي صورته لنا ، مطابق لمعلوماتنا .

ثم مد يده الى داخل معطفه الاسود ، وسحب تدويناته :

ـ ما دونته : النساء الثلاث ، العودة من آسيا مع أوراق الدوالي على الخوذات ، فيلة داريوس وتاكسيل ازاء فيلة قورش المدهونة ، الصديق كلوتوس المقتول ، سروال الزواويـين وهو الباس الفرسان الفرس ، الجنود المدججون المرافقـون ، السماء السوداء الموسمية ، المحرقة ، والعينان البقعاوان .

ـ والجمال ؟

ـ معـركة آربي بـدأت في غوغـامل (ومعنـاها : استراحة الجمال) . وفي هذه المدينة انتهت الامبـراطوريـة الفارسيـة ، التهنئة للسيدة خضري . خضري باشا . لا ننس : باشا .

ـ لو انها كانت قرأت يومها حياة الاسكندر ، لما استطاعت اعادة سردها بهذا الشكل . ولما كان لي ولك أن نفكر بالثنية الممحوة من القماش ، وهي تفسر تناسق البقعة ، ولا بالدم ولا بالاسكندر. هل يمكن مختبر اللوفر أن يحلل البقعة ؟

ـ اعتقد . ولكن ، هل يعقل ، ضميرياً ومهنياً ، ان نطلب من مجلس المتاحف مبلغ ٥٠٠ ألف فرنك ما سوى استناداً إلى

رواية عرافة ؟

بين اعضاء المجلس ، ممثل عن « كبار الواهبين »

ـ كرمهم لا يلغي حذرهم .

ـ في افتراض نقل الفكرة ، ما يمكن ان تكون وجدت ؟

ـ كل شيء تقريباً ، عدا الاساسي : الدم . اعتقد انك تفكر في نقل المعلومات الغاربة ـ اكرر : الغاربة . لكنني جمعت ، في اهتمام وعناية ، بعض الوثائق ، طوال اشهر . وهي بدأت حديثها بعبارة : « ثمة هاجس إله » . والعمل الذي كنت بدأته ، ينطلق من هذه النقطة بالذات . كنت أريد أدرس هذا الفوطبيعي المايزال يحيط بالاسكندر .

ـ وأي شعور بالحقيقة ، يفرض اقتحام التاريخ ـ صديقتك قالت انها « زيرة » ، إنما ممن ؟ من الماضي . وكل شيء تغير عندنا حين رأت عيني الاسكندر .

ـ وهكذا الكسندر دوما . يبدو متعثراً حين يروي مغامرات دارتانيان ، وثابتاً حين يواجه دارتانيان الخيالي بريشليو . عظيم هذا الـ دوما . اقدره . وكذلك السيدة خضري .

وأطلت علينا اللوفر بشبابيكه العالية . دخلنا الممر المعتم ، بين التماثيل واللوحات . دلفنا الى مكتب جورج سال ، من حيث يبدو السين جارياً . على الحائط ، ملصق من المعرض الإتروري ، ومحفورة من بيكاسو مع إهداء . مقابل الجدار ، لوحات وبعض التماثيل تنتظر الجلسة الآتية للمجلس . التفت جورج سال الى الحاجب ، وقال له : « اعطني الاسكندر »

فذهب الحاجب ثم عاد بملف وضعه على مكتب جورج سال ، الذي فتحه واسترسل :

ـ إذن ، فلنبحث عن علاقته مع الالوهة ، كل شيء يبدأ مع أولمبياس التي اخصبتها الصاعقة (وهو ما لا يصدق) ، ومع حياتها المدجنة . وحين ، في واحة الصحراء ، يسأل الكاهن الأكبر : « هل سيمنحني آمون امبراطورية العالم ؟ » ، يجيب الكاهن : « انا أيضاً كنت في ساموثراس » . ذلك ان أولمبياس ، قبل التقائها فيليب ، كانت العاهرة المقدسة في ساموثراس . من هنا ، ان الاسكندر عاش محاطاً بالتكهنات والتنبؤات . ومنذ ولادته ، كتب : « في تلك الليلة ، اشتعلت في الشرق شعلة ستعم العالم » . ذلك ان زوجة غورديوس ملك العقدة الغوردية (التي قطعها الاسكندر بسيفه) كانت نبية . وعراف آمون ، قال لهكطور (ابن بارمنيون) : سيكون النيل حدود ثروتك ، فظن هكطور انه سيصير ملك مصر ، وغرق في النيل . وكان ذلك لا الى غفران .

كنت عرفت هذه اللهجة الساخرة لدى عدد من مثقفي جيل سال . ثم اكمل بلهجة اخف :

ـ عند كسوف القمر ، وخلال نضاله ضد هلع الجيش ، قال : « لا تخافوا . القمر اختبأ ايضاً أيام سالامين » . وكان يتكلم مع الكاهن الصاعد الى المحرقة الكانت بلغتها النيران . وهذا الحوار يهزني اكثر من كلامه مع ديوجين . فقال الكاهن : العام المقبل ، في بابل . وفي بابل حيث كهنة بن مردوك ، أي كهنة آمون ، سيناشدونه عدم الدخول .

ـ لكنه لم يكن يطيع دائمًا كلام التنبؤات . . .

ـ صحيح . . . لكن القدر يفتح الاذهان او يغلقها أمام التنبؤات التي يرتئيها . . . وهاك اللافت في الموضوع . قبل أيام من وفاته ، تعرى الاسكندر ليستحم في النهر . ترك معطفه الارجواني وتاجه ، على العرش الكان يتبعه دائمًا . وكان لمس التاج خرقاً للقدسيات . ولدى عودة الاسكندر ، وجد في العرش رجلاً لابساً المعطف وعلى رأسه التاج . وكان مجنوناً ، يجيب عن أسئلة الاسكندر ، بجواب واحد : الآلهة ارسلتني . . ولم يتوقف الفوطبيعي عند موت الاسكندر . فالملك أومين ، ظل كل صباح ، يأتي لأخذ التعليمات من معطف الميت . . الذي كان لبسه المجنون . . .

ـ مهندس متحف طهران ، اخبرني انه حين حمل الى الشاه رضا بهلوي لوحات داريوس الذهبية ، وضع الشاه إحداها في غرفة محاذية لغرفته ، وكان يختلف اليها كل صباح يجثو امامها .

ـ فلنحدد ، الآن ، علاقة الاسكندر مع الناس . . .

وتناول جورج سال ، مجموعة اوراق اخرى من الملف :

ـ جراحه تتبلسم بسرعة . وهو اكثر من آشيل عصمة عن الجراح . . . ينجو من كل الاخطار حتى السخيفة ، هو الذي ينتظر من الهند والخليج الفارسي ، عمالقة أقوياء . . . وحين حمله الغضب الى قلعة الماليين ، كان يجب ان يقتل فيها ، لكنه نجا . كان حسه الألوهي يوجد له منفذاً . بقيت جثته سبعة أيام دون انحلال (وغالباً ما نلحظ الرقم ٧) ، مما هو موضع شك ، ازاء حر بابل . . . لا صورة واضحة عندي لتفكيره .

لكنني اشتم ناحية خرافية من معاركه التي فاقت تصور الواقع الحاصل . كان أرسطو يعجب من لامبالاته ازاء الماورائيات . هل تؤمن بالماورائيات ؟ هو ، كان يؤمن بقيمة السر . قال لأرسطو ، ان الفيلسوف يخطىء اذ يكتب . لذا كان يعجب كثيراً بهومير ، وبالكواكب . كما كان يرفض خوض المعارك في وجه الشمس : خطة عسكرية ، وعلاقة مع الآلة الشمس وليلة إيسوس ، انتظر طلوع القمر ، ليلم دروع الموتى .

ـ السيدة خضري قالت ، الآن ، الصورة نفسها تقريباً . . . وهي موجودة في الملحمة الهندية « باغافادغيتا » ، أو . . .

ـ ثمة نقطة اخرى تقلقني : حبه للتنكر . وهذا شائع بين اللواطنيين . وليكن . ما هم احياناً يتنكر بثياب هرقليس . واحياناً بثياب آرتيميس . نعم : آرتيميس .

ـ هرقل واونفال . . .

ـ اذن ، فحبه للأزياء الفارسية ليس سياسياً فقط . كان يتنكر بثياب ديونيسوس . . . ثم ، كيف نفسر : العربة التي يجرها الأسود والنمور ؟ ثمة شيء ثابت تاريخياً : العودة الى بابل ، الرقصة الفاسقة في الصحراء ـ هذا الاحتفال الذي وجدت فيه السيدة خضري عملية عربدة تقليدية ـ انه احد اعياد ديونيسوس . . . السكر واضح . . . وهذا مشهد اجمل من مشهد المجنون على العرش . هو ذا مبعوث بارمنيون يأتي لأخذ التعليمات للجيش قبل حرب الهند ـ وهي الأخيرة ، وها الاسكندر ، السكران الميت ، يومىء له بيده كما يطرد ذبابة .

لم يعد أمام جورج سال اوراق في الملف . . . فسألته

ـ لماذ كنت جمعت كل هذه الوثائق بالذات ! ؟ . .

ـ وهل يمكن التنقيب في بلاد فـارس ، دون الركـون الى الاسكندر كاملاً ! ؟ . لا نهاية لفضول البشر . . وعن سؤال : « كيف يمكن فهم رجل يجد نفسه متفوقاً » ؟ هممت ان أجيب : مسألة صعبة . . لذلك ، جمعت كل هـذه الوثـائق ولم اكتب حرفاً . هذا الملف يرهق القارىء فيه . . .

ثم اشار سال الى التماثيل واللوحات عند الحـائط ، وثمة بعض الدمى التي قد تكون لمتحف الفنون والتقاليد الشعبية . وكان الثلج ينهمر على السين بأيما لا مبالاة . واكمل سال :

ـ ليس من في وسعه الكتابة عن الاسكندر . راسين لن يجد ما يقوله . شكسبير اهمله . مع أنه كـان اهم من انطونيـة . فيكتور هوغو جعل منه بطلاً مهمًا في « اسطورة الاجيال » ، لكنه اختصر العصور القديمة .

ـ لم يكن هوغو يبحث في الاسكندر عن احدى شخصيات بوسان في لوحاته . هو اعاده الى عصره القديم ، كما كزيركسيس الذي جلد البحر بثلاثمئة جلدة ، فنظر نبتون ، وقال :

« ومن هذه الثلاثمئة جلدة ، خلق ثلاثمئة جندي .

حراس الجبال والغابات والمدن .

وجدهم كزيركسيس واقفين في مضيق ترموبيل » . . .

وكان يمكن اقامة حوار بينه وبين كواكب الستير (نصفه بشر ونصفه ماعز) التي تناسبه . لكن الاسكندر وجد فعلاً ، وهو مات منتصراً ، والا لكان وجد نبيه ، لا هوغو ، بل نيتشه . . .

هذا حلم . . . الاسكندر ضد ابولون ، بدل ديونيسوس . . .

كنت اتمنى العودة الى الملاحظات التي دونتها ، فيما هو يراجع ملفه .

ـ والآن . . . ما العمل ؟

ـ لا شيء للوفر . اعرف اعضاء المجلس منذ سنوات . جميعهم من عقلية القرن الماضي . .

ـ سيتهموننا بالتسرع ؟

ـ حتماً . صحيح انهم اكثر انفتاحاً عن ايام بوانكاريه او بارتو . . . لكن فاليري نفسه ، وهو الما كان يرفض قط ، يرفض . اسمع هذه القصة عن روجيه مارتان دوغار : ذات يوم ، عرضت علينا قطعة قماش ، كهذه ، مجهولة الهوية . قدمت الينا هدية . ولم يبد المحافظون رأيهم . اخذتها عند فريا ، فاكتشفت فيها بقع خمر . وحين نقلت ذلك الى دوغار ، ضحك . ارسلنا القطعة الى المختبر ، فاكد بقع الخمر . أخبرت ذلك الى دوغار ، فبادرني : « لا احب هذا ، يا صديقي . . . لو انك تعلم كم انني لا احب هذا » . . . وثمة عقبة اخرى ، الآن : فلنفرض ان التحليل المخبري اكد بقع الدم ، واكد الخبراء ارتقاء تاريخها الى زمن الاسكندر ، وان هذا الدم عليها هو دمه ، فهل نتجاسر ونطالب بخمسمئة الف فرنك ثمن بقعة دم من القرن الرابع ؟ سيبدي المراقب المالي تحفظاً وتشاؤماً ويمتنع عن دفع المبلغ . . . تبدو لي رؤية السيدة خضري ثابتة ، مع أنها تعترف بعدم صوابيتها أحياناً ، لتعطل موهبتها . افلا يخطىء الطبيب احياناً في تشخيصه ؟ احد زوارها (كما فريا

تسميهم زواراً لا زبائن) كان ينتظر وفاة زوجته المريضة ليتزوج عشيقته . اكدت له السيدة خضري وفاة امرأة مقربة اليه . وفي الموعد المضروب ، توفيت عشيقته . . .

ـ تعتقد ان الوسيط لا يفكر الا من منظار القدر ؟

ـ يقتضي التفكير بالفوطبيعي . وانما راجعت اولئك العرافات ، للمتاحف لا لي . . . ولكن حين نفقد ايماننا بكل شيء ، نلجأ الى الشعر ، والشعر الحي نادر . . .

أنت تعرف الشرائح التي ، من بلاد بين النهرين ، تحمل بصمات اصحابها . لكن اصابع كهنة نينوى غير أصابع العسكريين . هل اطلعت يوماً على العمل المضني الذي قام به رئيس قدامى الراصدين الفلكيين ؟ امضى سنوات يجمع تواريخ ولادة ، ليطرح سؤالاً مهمًا : هل الناس يولدون صدفة في تواريخ عشوائية ؟ ووجد ان على ١٢ الف رجل ولدوا في عام ، لم يولد ١٠٠٠ كل شهر . ذلك انهم ولدوا في تواريخ مقربة من تواريخ انسابهم المباشرة . ثلثاهم فقط ، يحكم بولادتهم مسبقاً الله مستريح . كما النساء لسن مخصبات الا في فترات معينة ، ولا يعدن مخصبات الا في هذه الفترات . هذا ليس علم فلك ، يا صديقي . هذا اكثر من مجرد صدفة . . . بالنسبة لمتاحفنا ، تعاملت مع الدكتور اوستي ايام مؤسسة العلوم النفسية . لم يكن ساذجاً مع ان ادارته ابعدت بعض السذج والالعبانيين . .

ـ أيكون هو الذي نشر التنبؤ البولوني لعام ١٩١٩ ؟ تلك التي حدست بمجيء الفرنسيين ، وبانتصار بولونيا فيما كان الجميع متوقعين اجتياح الروس لبولونيا ؟

- الأمر هنا أهم : انها احدى التنبؤات النادرة ، حول السائل الذي وجد داخل قارورة في احد نواويس لبنان . اخذت الصورة الى السيدة موريل ، احدى عرافات المؤسسة ، فقالت عنها أشياء هي أغرب ما سمعت في حياتي . . .

دخلت استكمل تدوين ملاحظاتي ، فيما استعاد جورج سال ملفه . كنت افكر بمسرحية ، واحلم بفيلم . في البدء ، ركزت صوراً . فالصور والملف على التقاء .

حصان الاسكندر ، بعد معركة شيبا ، يعبر فوق اكمات من الجثث . مدينة أوديب مهدمة كلياً إلا منزل بندار. العاصفة الثلجية تلف الاسكندر وهو يقطع العقدة الغوردية بسيفه . اكتشاف أول ريح موسمية : السماء السوداء فوق الجبال الصفر . المعطف مرمي على الرمل يرسم عليه تخطيط الاسكندرية ، والكهنة يذرعون الشوارع الرئيسية بالطحين ، يقودهم ، كما التقليد ينص ، عميان . خلال معركة اربيل ، داريوس مسمر بين تماثيل عربته . اسوار بابل ، وهيكل بل مهدم . الاسكندر يصافح التمثال . قلعة أوورنوس مغطاة بالعشب البري ، هي التي قاومت كريشنا . ملوك مشنوقون بين وزرائهم ، على الاشجار التي عند ضفتي نهر بطيء . جسر من المراكب ، عليها آلات حربية ، وفيها مومسات . تأسيس الاسكندرية الايطالية - معابد الآلهة الأثني عشر في الأولمب بين السهوب . جنازة حصان الاسكندر . رسالة بارمنيون : « حطمت الجيش المعادي ، واسرت ٨٧ ساقي خمر و ٤٦ ضافر شعر » . . . خط الجواهر المتروكة في الصحراء بعد عودة العسكر . قبر ايفاييتوس ، والأمر بقص اعراف جميع الأحصنة

حداداً . المجنون . واخيراً ، الرمس الحزين المخفوض امـام صف المقدونيين يتجمد ، والرمش يتسم مخفوضاً .

ظنتني لم ادون شيئاً . لكنني مخطئ . ودونت الكثير : الوجه الجميل ذو الجبين العريض لهذه التمثايل ، العيـون المتعددة الألوان ، ارسطو الذي يلقي دروسه ويلثغ بحرف السين ، خطوة نابوليون ورأسه المنحني قليلاً على كتفه ، القادة مجتمعون عند موت فيليبوس ، ورهبته ما تزال موجودة حتى في وفاته ، خطاب السفير السكيتي : « حين تتمكن من قمع الانسانية ، تفتح حرباً في الغابات » . . .

في قمة مجده ، قال الاسكندر ، « غزونا كل شيء ولا نملك شيئاً » . لم يكن يريد ان يملك ، بل أن يغزو . ما سياسته ، وهي احـدى اقـوى السيـاسـات في التـاريـخ ؟ إنها إلحـاق المنكسرين ، دون سحقهم ، ثم اخضاع العالم لحكم ملك إله . لذلك ، كان يكره المقدونيين لأنهم ، ناهضوا طموحه الإلهي . من هنا ، غير الفن العسكري ومفهوم القائد ، وجمع مراهقي الارستقراطيين ، فأدخلهم في صفوف المقـدونيين ، وفي قـطاع الفروسية . وهو ، في حلمه حكم العالم بمقدونيا وحدها ، كما يحلم تيتو بحكم الولايات المتحدة الاميركية .

بادرني جورج سال :

- مسرحيتك تتلاقى مع دراستي . أية قصة ادبية يمكن ان تكون قصة الاقـدار المتروكـة ! مع ان اعمـالنا تحققت ، يـا صديقي ، تحققت عملياً .

الشخصية الأولى في المسرحية ، قطب . والاسكنـدر قطب

مهم . فما ترى يكون الآخر المنافس ؟

هل كان سوفوكل يعي ان نيميزيس كانت في بابـل تنتظر مدمر ثيبا مدينة هرقليس وأوديب ؟ التهديد الوحيد الذي بلغ الاسكندر ، ليس تهديد ملوك الهندوس بآلاف الفيلة ، بل تهديد كاليستان واليونان ، « انت لست إلهاً » .

أراد نفسه فوبشرياً ، في زمن كان الفوبشري خلالـه صار عادياً ، وان لم يتفوق الملوك على هرقليس . كان عاجزاً امام ذاته (قتل كليتوس) ويريد نفسه قوياً أمام الكون . وها هو تلميذ ارسطو ، يرقص ، مع رفاقه ، عارياً حاملاً سهمًا ، حول قبر أشيل ، ويتأله بقفزات ، متبجحاً بانتصـاره على الهنـد ، كما ديونيسوس . ويحلم بالانتصار على العالم .

من كان يقول ان وهجه كملك شمس ، سيبهر المؤرخين القدامى ؟ نعود هنـا إلى مثلما بهر المسيـح كتاب الأنـاجيل . وقوته التي لا تقهر ، تحرره من الوضع البشري . ومن هنا أن عبقريته السياسية والعسكرية ، تبدو فطرية ، لذا يتابع الهيمنة على العالم بملك مقدس ، وولادته المشبوهة ، المحاطة بنبوءات ، تنفي النظام الكوني ، كما هو هرقل حارب الوحوش . وهو دخل بابل من الباب المؤذي . فاية شخصية اخرى منافسة ، يمكن ، في مسرحية ، خلقها أمام شخصية الاسكندر ، الاعلى من كل ملموس وكل منطقي ؟

تراه زار الأديار البوذية ؟ ليس الفكر البوذي يشدني الى هذه الأديار ، بل الاسطورة المنافسة : اسطورة الامير سيدارتا . هنا بيلا الجريئة ، واسرار ساموثراس والقلاع المثلثة الألوان ، والاله

زوس امون ، ودرع أشيل ، والارض المهزومة ، ورروكسان وستاتيرا . وهناك ، في المقابل ، ليل الهند ، والقصر الاحمر تحت النجوم ، والملكة التي أغفتها المداعبة فلن تستيقظ ، والمدينة التي يجتازها ، في صمت، الحصان الذي لفت قوائمه عناية الآلهة ، الأمير الذي بقي عند المتصوفين ، خطوة الحصان الراجع وحده في المدينة الغافية ليموت جوعاً ، وخطبة بيناريس ، حين الظباء تريح رأسها الطري على خد بوذا : « في أساس الألم الشامل ، العطش الى الوجود ، العطش الى المذات التي تجسدها الخمس الحواس الخارجية ، والحس الداخلي . . . وحتى العطش الى الحياة . . . »

خلف اشيل وهرقل ، لم يعرف البوذية ، بل عرف شيئا . فما تراه ظن ، حين على عقب المحرقة ، اعطاه الكاهن البراهمي (الذي لم يكن يرى فيه سوى اعصار خفيف) موعداً في بابل ؟ لكن حلمه كان اقوى من التصوف والمحرقة والمعرفة التنبؤية ، والتوحدن مع العدم الالهي . . . لم يعد يهمه التوحدن بالآلهة ، اذ هو يملأ احلام البشر . وفي اليوم الذي لن يعود يعيش الا بجفونه ، هل يظن بان اندحاره سيتوهج على موته ، كما المحرقة توهجت على موت هرقل ؟ هي يحدس بانه في دحره الامبراطورية الايرانية ، خلق جيشه ، المتعدد الانتصارات ، العالم الذي ستتفتح فيه المسيحية ؟ أي من القدس الى روما ، لا من القدس الى برسيبوليس ؟ والفراغ الذي يتركه ، لن تستكمله الا الامبراطورية العليا ، اذ ان روما ليست مغامرة عابرة ؟

على كل حال ، ما لن يخلفه ولكن سيحل مكانه ، ليست روما ولا المسيحية ، بل الاسلام . ذلك ان خشقند وسمرقند

وباكثر حملت جميعها آثار مساجد ، والاسلام حقق ما لم يتح الوقت للملك ان يحققه ، من لاهور الى عمودي هرقل .

هكذا ، محاور الاسكندر ، ليس الموت ، بل قدر العالم . . .

انه يعرف (أو يجهل) منافساً بالمعنى اليوناني ـ منافساً إلهياً ، اذ اعتبرنا الآلهة في الاضحيات ـ انه بديله . فحتى للالهة ، كانت اغريقيا اخترعت تحول الانسان . لكن الاسكندر اخترع ما يفر من كل نحت ونحات اللاعقلانية الغنائية للحلم والليل ، وهي تجسيد حي لليونان المذعورة . واسطورته تستجيب لنداء مضطرب من البطل ، في زخم شبيه بالذي كان لبالاس الاكروبول حين استجاب لنداء المدينة . فهذا الملك الذي بلا نساء تقريباً ، بدا محاطاً بالرقصات الداعرة ، وهو اكمل اليونان فيها انكرها . كان في العشرين ، حين بدأ يفكر بالفرار من الوضع البشري . وذلك ، ليس بحكمة معلميه اليونان ، ولا بالتحرير البوذي ، ولا بالتوحدن مع روح العالم . فهو لم يكن يملك اغلى مما يخبئه في صندوقه الذهبي : الالياذة . فالاحلام الكبيرة تدفع بالرجال الى الأعمال الخارقة والكذبات الملحمية ففي الاسكندر ، دون كيشوت يندفع الى مجاوزة رولان ، ويتوصل . وهكذا هو : مسكون بهومير كما نابوليون بروما . وغير مرة ظن نفسه ابن زوس ، كما نابوليون كان يظن نفسه ابن النبوءة ، حتى انه قال لكادودال : اتحد بمجدي . على أن جنون الاسكندر الوبائي ، اوسع واشمل من المجد . فليس من مثله يعرف قوة الخيال الذي لأبطال الالياذة وانصاف الآلهة وخاصة ديونيسوس : فخيال الشمس ، كخيال اشيل ، كان خيال الليل . وهو انشأ احد اكبر المصائر : المساواة مع الوثنية الكونية

في تجسيدها . فالبشر مسكونون بالاحلام ، والاعمال التي لها ألوان الاحلام قوية كما الآلهة . وكان يعرف ان كل عبقري ، عليه ان يغزو حصته من المجهول والظلمات . لذا نظم خيالته كما سينظم قيصر خيالته في ما بعد . لكن قيصر رجل دولة وعسكري ، لذا كان يجهل التماعات البحيرات ومحارق هرقل ، فيما الاسكندر ، بانتصاراته وانشائه الاسكندرات البعيدة ، كان ينظم خلوده . اعطى القدر كثيراً كي لا يعطيه القدر شيئاً . رمى بسلسلة ممالكه الى الآلهة النافدي الصبر ، والذين أخذ منهم ، على مر العصور ، اكبر امبراطورية غربية ، من هنا قول لورنس العرب : « انتبهوا من الحالمين اليقظين حين يمتلكون وسائل تحقيق احلامهم » . ومن هنا صرخة : « ايها الملك ، انتظرك في بابل » ، فمن ترى ينتظره ؟ ان الاسكندر بصوت الكاهن البراهمي ، يخاطب بديله ، للمرة الأولى ، وانما كذلك ، للمرة الأخيرة .

في الخارج ، الثلج ينهمر . . . كما كان ينهمر على الهيكل حين قطع الملك بسيفه العقدة الغوردية . . . كما كان ينهمر على مقدونيا .

بعد ايام ، جاء جورج سال يزورني في الوزارة . وهو زارها مراراً واستقبله اسلافي مراراً ، ويحب غرفتي كما أنا . حيى ، بيده ، وجلس ، آخذاً من ملفه اوراقاً :

ـ هوذا تقرير الدكتور أوستي الاختزالي ، انها عرافة لا تعرف الشرق القديم ، تمسك بيدها الفانوس السحري ، تتكلم ، والمختزل يدون :

« أرى خلل الضباب ، صورة مجمدة . . . شيئاً بلا حياة ، رأس ميت . . . أرى فجوة جرداء . . . هـذا الرجـل يوحـد العالم . . . كما لو انه فوق البشر . . . فجأة ، يولد شيء قوي ، يوقف كل هذا . . . الرجل يختنق ، ارى دماً . . . أرى ناساً كثيرين . . . جمعاً غفيراً . . . اسمع ضجة عظيمة . . . ضجة عسكرية . . . . أرى شيئاً عالياً . . . جنازة غير عادية . . . أرى كثيـراً من الثيـاب البيضـاء . . . والثيـاب العسكـريـة . . . والتصفيفات المبهرجة . . . كأنهم في منـزل تحت الارض . . . الرجل ممدد . . . وضع على شيء . . . ارى موتى آخرين . . .

علقت هنا :

ـ ما اقرب هذه اللهجة من لهجة (السيدة خضري) . . .

ـ جميعهن يتكلمن هكذا . . . ونادراً ما تقول : ارى . مع ان الاشياء حين تظهر ، تتوالى الصور . هكذا تمر الأمور في مخيلتنا وأحلامنا ، حيث نرى ريشة فنقولها بندقية . وأؤمن ان الوسيط يرى مشاهد حية . مع ان السيدة خضري تؤكد كونها أحياناً تعرف المشاهد دون أن تراها . وكلما سمعت عرافة تتكلم على اشياء معينة (وانا لا اقصدهن الا ومعي اشياء) يكـون للنمط المتلاحق ان يرافق الصور . . .

وعاد سال الى التقرير . . .

ـ « في قارورتي ، سائل كأنه دم . . . في تلك اللحظة الكان يمـوت فيها النـاس . وارى جبالاً وغـابـات . . . ارى احـداً ينـزف . . . كـأنمـا ضـرب . . . كـأنمـا تجمـع عليـه كثيـرون وضربوه . . . أرى جراحاً . . . رأس غريب لجسد ينزف . . .

أرى جبلاً . . . هذا الشخص يصعد . . . يحمل . . . ماذا ؟ شيئاً اسود ثقيلاً . . . حول رأسه دم . . . وحوله رجال يجمعون هذا الدم في قارورة . . . يخبئونها حد الرجل . . .

علمت في ما بعد ، ان هذا التقرير الذي وضعته مؤسسة موناكو ، نشره الدكتور اوستي لدى الناشر الكان/ باريس ، تحت عنوان : « المعرفة البعد الطبيعية » . . .

عدت الى السؤال :

ـ هل كانت القارورة تحوي دماً فعلاً ؟

ـ طلبوا اربعة آلاف ليرة ، ولم يكن الدكتور اوستي يحمل هذا المبلغ . . .

طوى سال التقرير ، وأردف :

ـ بت أؤمن بإمكان وجود ميدان للفوطبيعي ، كما كنت أؤمن ، قبل التحليل النفساني ، بامكان وجود ميدان للاوعي . والخيالات النزقة التي نراها ، تمر هنيهات ثم تختفي . . . بالامس كان الملائكة في أينما كان ، واليوم اختفوا . . من هنا ، أنني احبذ الاسرار ، لأنها تحمي الناس ضد اليأس . ولا يعود استحضار الارواح يزعجني ، ازاء ما اجد فيه متنفساً مريحاً للذين يلجأون اليه . . . هل كان لي اكون طبيباً ؟ لكن الاشياء الجميلة تستهويني . . .

ـ اليس في اعماقك ، ذاك التراجع امام مدخل الكهف ، وشعور روجيه مارتان دوغار ، حين قال : كل شيء يعاكسني ؟ هكذا أنا . . . وهو ما يحيرني . . . اخذت فترة بتأثير المخدرات

التي تلعب دوراً في الحضارات : الكحول ، الافيون ، الحشيش . . . وخاصة اخذت بتأثير الحالات الدينية . ولكي اذهب الى آسيا ، مررت سبع مرات في فلسطين دون ان أزور القدس . ومع انني انكر قدرة العقل على المعرفة ، أظن ان علينا عبور طريق الآلام في الحج . من هنا ذهابي الى بوذغايا وبيناريس .

ـ لكن بوذا لم يصلب .

وإن يكن . . . صادفت الفوطبيعي ، ولي ميل قوي الى ابعاده ، وهو يميل قوياً الى الرجوع . في نهاية الحرب ، استنجدت بي روائية تدعى شامبيني كانت مشهورة ، في الوسط الادبي ، برؤيتها . كانت معزولة في قرية من كوريز ، وكان على بيار جوبيه الاختلاف الى كاهور لاجتماع ديغولي . اعطيته صباحاً عنوان شامبيني وطلبت منه المرور بها ، وهي في الدرجة الاخيرة من التسمم الناجم عن المورفين الكانت تتناوله لتهدئة اعصابها . وصل القرية مساء ، فدق بجرس على بوابة حديقة مهملة . لم يجب احد ، فدخل الحديقة ليجد باب البيت موصداً . فتح احد مصراعيه ، فقفز كلب الى الخارج . دخل جوبيه فوجد شامبيني (وهي حتماً حاولت القيام لفتح الباب) مغمياً عليها ، وجبينها ينزف دماً . حملها الى سريرها ، وساعدها على الانتعاش ، فراحت تدلك له يده وتقول : « انت بيار جوبيه ، اتيتني ، فما تستطيعه من اجلي ؟ » . لم تكن تعرف ، قبلاً ، اسمه ، ولا مجيئه الذي لم يكن مقرراً ولا عشية مغادرته باريس . وعرفته ، مع انني كنت رأيتها قبل أيام من وقوعي اسيراً في أيدي الالمان ، ولم تقل لي شيئاً .

ـ كثيرون من الوسطاء لا يستطيعون معرفة تواريخ الاحداث .

والانبياء كذلك ، حسب التوراة .

ما لم اقله لجورج سال ، انني صادفت الفوطبيعي في شكل صارخ .

كان ذلك في الالزاس ، شتاء ١٩٤٤ ، اذ كان على بعض ضباط الفيلق الأول، وأنا منهم ـ تناول الغداء مع تشرشل الكان يتفقد الجبهة . في الواحدة صباحاً ، ايقظني الحارس ليسلمني تعليمات تتعلق باللقاء ، فقطع عليّ حلماً ما أزال اذكر تفاصيله : كانت قال ، امرأة سمراء ترمقني في سحر جذاب ، حانية رأسها . كانت اخت زوجتي ، قال ، مع انها لا تشبهها ، وذات تصفيفة شعر لم ارها يوماً بها . وكلمتني بصوت جهوري ، ساخر ، ليس صوت حلم طبيعي ولا صوت دفء انثوي ، قالت : « والآن ، هي ذي زوجتك الثالثة » .

في السابعة صباحاً ، ايقظني الحارس من جديد ، ليسلمني برقية اخرى : « حالة جوزيت خطرة جداً . حضورك ضروري جداً » . وكنت اعرف ان برقية كهذه ، لا ترسل الى ضابط على الجبهة ، الا في حالة الاحتضار او الموت ، مما يقتضي اذناً سريعاً .

كان الثلج على كل فرنسا . وصلت في منتصف الليل الى جادة الالزاس لورين في تول . وجدت زوجتي ميتة ، بعدما قطعتها عجلات القطار اربتين . . . وكانت قالت : « جملوني جيداً ، أريده يصل ويجدني كما بالامس » .

في أيـار ، تبلغت وفاة شقيقي مقتـولاً في المنفى ، وفي ما بعد ، تزوجت شقيقة زوجتي . . .

كنت اعرف ان صدمة قوية تثير ذكريات سيئـة . . . ومع هذا ، قلت لجورج سال :

ـ دراسـة هذا القـطاع علمياً ، أمـر طفـولي ، من هنـا ، محاولات ادخال انماط من علم التحليل النفساني اليه .

ـ بدا لي ملائماً ، التقريب الذي اردته مع الفن ، حين قلت ان فيكتور هوغو لا يكتب اولمبيو كل يوم . لكنني اخشى الا تكون الأفكار مقربة من السيدة خضري . معك حق ان هذه الظواهر تدعي كونها علميـة . فالـذين يهتمون بهـا ، يجدونها مناقضة للعلم الروحانيون يدعون العلمية ، بمفهوم القرن التاسع عشر ، بعد رحيل العلم ، ومعك حق ، ان الفن ينتصب بين قواعد الفيزياء وبراعة الدجل . فدراسة ظاهرة السيدة خضري ، على ضوء التفكير بفيكتور هوغو ، اعمق من دراستها على ضوء التفكير بنيوتن . ليس الانبياء ، اكيداً ، اسياد الماضي .

ـ اعتقد ان حضارات قديمة ، كما حضارة الهنـد اليوم ، كانت لها علاقة مع الفوطبيعي غير علاقتنا نحن به . صحيح ان بعض المعارف تفتح في التواتر ، كما معارفنا ، لكنني اجدني في ضلال كثير ، ولا رغبـة لي في تكريس حيـاتي لاكشف هـذا الضلال .

ـ فكر بما يمكن ان يكون للصور الاولى من قوة ، وكذلك بحقد الاسلام وربما بخوفه من أولى الرسوم . . . لو كنا عرفنا الخرافة منـذ البدء ، الا تعتقـد ان هذه الأمـور كانت اكـثر

ترويضاً ، لو كان دارسوها يتكلمون على ما بعد الطبيعي كما نحن نتكلم على الموسيقى ؟ ثمة في اتصال الوسيط بالفوطبيعي شيء ما غير اكيد ، يجعلني افكر بالفن . لكن الفن ليس سوى وسيلة لطرح المسألة هرباً من الحكم المسبق العدواني . جان بولان ، وهو تابع ، عن قرب ، اعمال المؤسسة ، يثق باوستي ، لكنه يقول ان الخلط بين ما بعد الطبيعي والغش والخطأ ، هو غلط تاعس .

ـ مع ان حدساً مراقباً ، كما نبوءة فرصوفيا ، اهم من عشرة اخطاء . . .

ـ ربما الفكر البشري سينصرف الى الصدفوي . . . نعود الى الفن : حاول الفكر البشري ، طوال ثلاثة قرون على الاقل ، البحث عن جمالية ، وما زال يبحث ، باسم تاريخ العلم او الفلسفة ، عن قواعد ، يتآلف معها الفن في راحة . من هنا ، احس حضارتنا تتحسس ميداناً جديداً . فثمة علميون يرون هذه الاشياء من منظارهم ، كانوا يقولون لي ان تطوز الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا متناغم ومتناسق ، وان العلم كان على شفير المجهول كما حين اكتشف الكهرباء . هل في ذلك مجرد تورية ؟ انا لا اميز وحدة الميدان ما بعد الطبيعي ، لأنه يجمع كل السذاجات وكل الهواجس . أعتقد ان المجلس سيعتبرنا هاذيين .

بعد اشهر ، عرفت ان جورج سال اقنع احد الانصار بشراء قطعة القماش لحسابه الخاص . كنت قلقاً لاعرف نتيجة التحليل (كان يريد ارسال القطعة الى المختبر) ، فكتبت معه الى سليمان . وثبت ان قطعة القماش ساسانية ، وهي بيعت

لشخص يسمى موريس .

وإذا كنت لاحقت الاسكندر ، لاجعل منه بطلاً لمسرحية ، فهو الذي اليوم يلاحقني . حتى لو لم اعد ارى تلك القماشة ، وحتى لو كانت السيدة خضري عرافة . فثمة في أناجيل الحبشة القديمة ، الحمار والثور وكلب صغير ليسوع كنت افتكرته في داكار ، وكذلك صعود الاسكندر الى الفردوس . وهذا النص يلي « حكمة سيبيل ابنة هرقل » ومزايا باخوس ونيتشه وديونيسوس والاسكندر . فالغازي يتيه في مخيلة العالم كما المسيح غارق في قلب اوروبا . ذلك ان برادتنا ترسم تموجاتنا الكبرى حول هؤلاء الموتى الفوطبيعيين .

وربما لا برادتنا فقط .

جاء صديقي رجا راو يزورني . وهو استاذ في جامعة اوستن ، لكنه يعود الى الهند بضعة اشهر . قال لي في حزن ان شيخه الروحي مات ، وابتسم ابتسامة عميقة دينية . تحدثنا عن الكتاب الذي ينوي تخصيصه للغانج ، وعن كتاباتي . فقال :

ـ أنا مثلك فوجئت الا اجد اثراً للبوذية لدى مؤرخي الاسكندر القدماء ، مع ان الملوك اليونان في آسيا الوسطى اهتموا كثيراً لذلك . هل تعرف ان ثمة نسخة مسيحية لاسطورة بوذا ؟

ـ كلا .

ـ اعتقدها وضعت في محيط مار يوحنا الدمشقي . الملك سيذارتا يسمى فيها يوشافاط . كشف له شيخه الروحي المسيحي بؤساً

كثيراً ، رغم اوامر الملك . نظم الخروجات سراً ، ولقاءات المتسول والمريض والميت مطابقة تماماً لكلام المسيح . والملك يعيش في الوحدة ، ويصير قديساً كبيراً بالتأمل والتقشف ، وحدثت معجزات على قبره .

ـ كيف وصف الرحيل ؟

ـ الملك هرب . . . ولا تفاصيل اكثر . .

فكرت : الى أي حد اسطورة بوذا ، عندي ، هندية ؟ هي في بالي ، قصور تيبيتية على قنن الجبال العالية ، وفوقها جبال الثلج . في السهول ، المدن الحمراء . وفي بالي كذلك ، السهام المزهرة للشيطان ، والملك الذي يكشف عن رأسه ليحمل الظل الى المتصوف ، والعبقري الذي يفتح باب المدينة ، الاشجار الصديقات ، العصافير النبوية ، والعبارات الما زلت احفظها : « حين يهل الفجر ، ويقرع الطبل ، ازرعوا الشوارع بالقناديل الملونة ، وضعوا جرار المياه الصافية على المفارق » . وكذلك قول الممرضين حاملي النقالة : « يا حضرة الامير ، هذا ما يقال له ميت » . . .

ـ هل عندكم اطار خاص لنبوءة المسيح ؟

ـ قليلاً . نخيل ، وشرق ابرهيم : صحراء ، هيكل ، كهنة ، فتيات على حفافي الآبار . لكن ظاهرة الآلام لا اطار لها .

ـ ليس من ظاهرة للآلام مع بوذا . . .

تحدثنا عن الاسكندر . ولا يعرف عنه رجا الا بقدر ما انا

اعرف . وددت قراءة النص القبطي حوله : الملك يشرب من اربعة ينابيع الفردوس . وكذلك النص الحبشي الذي فيه يكشف الروح القدس عن الثالوث الأقدس . . رُحت ذاكراً ، حتى النص الوسيطي الذي لنا . . .

بحثت عنه . كانت الروح خرجت منه ، كما في حكاية الملك يوشافاط . مع اني فكرت بمدونة جورج سال ، وانا ادون هذه :

عن بعض الرواة ، ان الاسكندر ابن عراف مناجي ارواح . وهذا حظك . وكان شعره الاشقر ، قال ، لماعاً ، على خصل . احدى عينيه سوداء كما عين تنين . احد المعلمين لقنه مشية التجوم ، وهو فن يحمي التجارة . وحين هم بوسيفال بالانقضاض عليه زجره الاسكندر بعينين غاضبتين ، فخر الحصان عندها ، منحه الرومان اكليلاً من الذهب اعجبه كثيراً . واقسم داريوس على شنق الاسكندر وجعل جسده طعاماً للعصافير . . .

وفي هذه الرواية القوطية ، شعر لعب القمار ، والدوق غراكتو ، والدوق بردري ، وجميع اقراب الاسكندر المولودين معه في اليوم نفسه ، وحرس من ٥٠٠ شجاع انضم اليهم ١٠٠٠ من كالابر ، حتى القيصرية الكبرى التي يحكمها الدوقيون . على أن النص يتوقف عند تعداد قوى داريوس . وثمة ، ايضاً ، حملة صور ، وحروب اخرى ذات غزوات ضخمة ، وجاء في النص : « ضرب الفارس خصمه الفارسي من اعلى الى اسفل ، فشطره قسمين متساويين . وكذلك ضرب الاسكندر بسيفه الكونت بنكون ، فتدحرج الرأس على قدمي الملك . وثمة في

النص مغامرات مثيرة . كما احببت غضب الشاعر امام عرس فيليب وكليوباترا ، الذي يستنتج منه ابعاد اولمبياس ؟ وتفرقت رؤوس وايد وارجل ، ولم يعرف احد ما صار مصير العروس » .
واحببت كذلك الهدايا الوقحة التي ارسلها داريوس الى الاسكندر : « طابة للاطفال وخيط وبعض الذهب » فاعادها الاسكندر مع القول : « علمتني الطابة ان كل ما تحت اسيا هو لي » .

فاية علاقة بين الرجل ، والاسطورة التي تجسده ؟

تلقى جورج سال رسالة من السيد موريس الذي اقنعه سليمان بأهمية قطعة القماش . وكان السيد موريس ، حللها ، وتأكد من ان البقعة هي دم . قال سال :

ـ لا تتكلمن على متاحفنا . قضي الامر . لكنني شرحت تفصيلاً للسيد موريس ، ان ربما ، في ما بعد ، يكتشف بان ثياب الاسكندر كانت من قماش خاص .

وسحب سال من جيبه ورقة ، راح يقرأها . . .

ـ عرافتنا عرفت نوع القماش ، والثنية ، والدم ، والجمال والنهر وسروايل الفرسان الفرس ، ومشية الاسكندر ورأسه المنحني ، والفيلة ، والسلاح والمدن على القمم ، وموت كليتوس ، والعودة الى الصحراء والعرس والموت ، واخيراً العينين . وهذا كثير . لكن للمتاحف مواقف تتخطى دهشة الاكتشاف . . .

الثلج لا يزال ينهمر ، ويتكوم في الخارج . في هذا القصر

حيث انـا ، دوسي ترجم هملت . وهـو قصر صغـير يعـرف بالفانوس ، مضاء باضواء صغبرة عن جانبيه . حديقته تصل ، في باب رومنطيقي الى باب فرسـاي . أحياناً ، في المسـاءات الربيعية ، اصادف القنفذ . وهذا البيت ، جزء من ممتلكـات دوقة بورغوني ، وهندسته تشبه جنونها . فوق بابه تمثالا غزالين ، تقفز عليهما قططي . وفي البساتـين المجاورة ، حيث العمـال يصنعون مثابات الآبار بدواليب سيـارات ، منتظرين المسـاء ، يحـدس الرائي بـاثار حـوض الفيلة تحت النباتـات والخـطمى البرية .

خـلال الثورة ، حيـوانات هـذا القصر وقصـر السيـدة دو بومبادور « كسـرت اطواقهـا » في الوقت نفسـه مع الشعب . وتفرقت في الحديقة : الفيلة والجمال والنعامات والفراشات . لم تمت كلها . وبعد سقوط نابوليون ، سكن في القصر عدد من المهجرين الفقراء راحوا يتنزهون في حديقتـه ، بعدمـا صارت فارغة .

وبادارة احد اسلافي في هذا القصـر ، وكان مـديراً لأحـد المتاحف ، راح العمال يصلون من جديد ، شباك الفراشات ، فيما راحت غابات القصب تعلو على ضفتي القناة .

هذا المساء ، يزورني صحافيان يسألانني رأيي في نص شهير لـدى البلدان الانكلوساكسـونية ، عن انكليـزيتين صـادفتا في حديقة تريانون ، وطوال ساعات ، اشخاصاً موتى من القرن الثامن عشر . . .



III

زمن اليَمْبُس

الاثنين ٦ أيار ١٩٦٨

أنا في الوزارة ، أنتظر ماكس توريس ، صديقي منذ حرب أسبانيا . وهو وزير دولة في كاتالونيـا ، محبذ للشيـوعية لكن الحـزب لم ينصفه ، وكـان سابقـاً يمارس التحليـل النفساني . تعَرفت إليه في بونتيي ، بعدما هاجر منذ ١٩٣٨ ، ودرّس في جامعة مكسيكو ثم في بركلاي حيث ما زال يدير مؤتمر كيمياء الدماغ منذ ١٩٥٨ . على أنني لم أره منذ ثلاثين سنة .

وما هي حتى دخل علـيَّ عجوز بلباس صوفي خشن (تويد) ، يده ممدودة ، كأنه فولتير انما أشيب . لم يكن وجهه غريباً ، لكن السن جعلته ذا تجعدات واضحة . لكن هدوءاً حل مكان حركته الأمس ، التي ذكرتنيها حيوية اللقاء عند الباب . وكان يحمل معه ، في تؤدة ، قفّة وضعها على مكتبي ، وتعانقنا عناقاً اسبانياً مع غصة ما فرقت بيننا السنوات . ولكي يخفي هذه الغصة ، سحب مقعداً أدناه من مكتبي ، وجلس قبـالتي ، قفته عـلى ركبتيه ، ورأسه الى أعلى يديه المستندتي الذراعين الى المكتب . عن يمينه ، كان يطل القصر الملكي بشبابيكه العالية التي تودّع النهار الراحل :

ـ عجباً . كنت أحادث نفسي وأنا أرتقي إليك هذا الدرج

الذي من القرن الثامن عشر ، كيف يمكن لصديقين افترقا قبل الثورة الفرنسية ، أن يعودا فيلتقيا بعد موت نابوليون .

انها أوروبا أخرى . كنا كصديقتي مدرسة التقتا بعدما صارتا والدتي صبايا . قليلة هي هذه اللقاءات . عدت التقيت من أصدقائي الاسبان : خوسيه برجامان وماكس أوب ولم يكونـا تغيرا كثيراً . إلاّ اهزسبورغ ، السمين الذي فعلت به روسيا العجب فنحل بعد خمسة وعشرين عاماً . . .

راح ماكس يجيل نظره في مكتبي الذي صرت أراه من خلال عينيه : نتوءات لويس السادس عشر على الملصقات البيض ، الستـائر المصفّـرة العاليـة ، المقاعـد ذات السجاجيـد الممتلئـة بالشعائر . وهذا الأثاث ، بالنظر الى ندّه في بركلاي ، يكتسب أهميـة تاريخيـة فكرت بسـان فرنسيسكـو وبابهـا الذهبي عـام ١٩٣٨ ، حين ذهبت الى بركلاي اتكلم على اسبانيا ، قبل ان يكون فيها ماكس . . . ثم تنحنح وقال :

ـ العودة الى باريس بعد ثلاثين عاماً . . . كم تشبه هـذه الأنصاب برشلونه . . . كانت باريس مدينة حزينـة ، خاصـة صيفاً ، فصارت زهوى .

ـ كانت القذارة جعلتها حزينة . هندسة قصورها التي من القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر ليست حزينـة كان السواد يحجب الظلال ومن هنا يحجب روعة المنظر . . .

بعد كلام عادي ، عاد الى القول :

ـ افكر في أوروبا مات فيها هتلر . وأفكر في الاتحاد السوفياتي

الهائل ، وفي الامبراطورية البريطانية المندثرة وفي الجزائر المستقلة . ولا اذكر مونبارناس ومرسيليا وبرلين وفيينا وموسكو وكل ما رأيت في الأخبار . . . أتذكر نفسي في بولفار سان ميشال ، والفارق بينه وبين أخلافه ، تماماً كما الفرق بين برلين وآثارها . لكنني ، أنا ، لم أمس خلفاً . . . انني ، في بساطة ، هرمت . . .

وذلك أنه كان أنهى دروسه في فرنسا . وأتذكر رسمًا لفولتير شاباً ، كان متحف فرساي أودعه قصر الفانوس . وكان ماكس يشبهه ، اذ كان يهودياً براق العينين ، لكنه اليوم فقد الكثير من ذاك البريق فصار تماماً كما تمثال فولتير الذي لم ينجزه رودان . زمّت شفتاه رغم وضعه طاقم أسنان ، وشفتاه تتدليان حين يتكلم ، فترسمان بسمة مصطنعة شرهة ، إلا من حين الى آخر حين تعود بسمته الهازئة .

وفجأة ، دفع بصرته ، ونهض وراح يتمشى في الغرفة من أقصاها الى أقصاها ، ملتفتاً الى الليل في الخارج :

ـ حين كنا في السوربون ، كنا ، طبعاً نهتم باللاوعي ، انما للسيطرة عليه . وها هو اليوم يسيطر علينا . ابتدأنا بالكشف ، وانتهينا بالماريجوانا .

ـ كثيرون من زملائك يتعاطون المخدرات ؟

ـ . . . بشكل عام . . . كلا . . . الطلاب ، نعم . منذ سنوات ، وفرويد عندنا أقلّ أهمية من يونغ ، مع أن ليس ما حلّ مكان التصاق الجنس باللاوعي . واننا نبحث في كل ما يحرر الانسان ، وفي الحلة النفسية ، وخاصة السكر . ثم ان الجنس

يبعد الاحساس ، كما الخمر . فالخمر والآلة من مفعول واحد . هذا موضوع ، عن الشباب ، اتكلم فيه طويلاً . لكن المسألة في جوهرها تتخطاهم . من هنا ، عدم قناعتي بهذا العصر ، وأملي بالعصر المقبل. صحيح انني لا أؤمن بما يؤمن به الغير لكن العكس صحيح ايضاً . في عالم الفكر ليس لمس سخافة اليسار سبباً في الاستنتاج أن اليمين ذكي .

وأردف بعد صمت :

ـ لم استطع يوماً احتمال الكذبة والسخافة معاً .

ـ لكن ما ناضلت من أجله ، ليس مجانياً ، طالما ترفض العودة في ظلّ نظام فرانكو .

ـ الاخلاص للرفاق الذين قضوا ، أمر آخر . إفهمني . على هامش كيمياء الدماغ ، درست الفكر القديم وهو نادر الرواج عندنا . اعتقد الناس ذات فترة ، بالامن المقدس ، بالعيد ، بالأساطير ، بالديانات ، ثم بالتاريخ ، فبالعلم فبالتطور ، وأخيراً بالثورة ، بالبروليتاريا ، باللاوعي ، الخ . . .

ـ أنا نفسي مررت بهذا الشعور من المسافة بيني وبين حضارتنا والعالم المحيط بنا . مثلاً ، حين نجوت من الموت . فماذا الذي عندك ، لعب دور الموت ؟ هل هو المنفى ؟

هذه الخاطرة ـ وهي تقزز الوجوه ـ مسحت وجهه بارتياح ، فانفجر ضاحكاً :

ـ ستتعجب : الكاريكاتور . فكر طلابي يقلقني ، لكنه نقل كاريكاتوري الفكري ، او لبعضه ليس ما يخرق في الصميم مثل الكاريكاتور .

عاد الى الجلوس ، وتناول صرته من جديد ، قائلاً :

ـ تجربتي سلبية اكثر من تجربتك . .

وأغمض عينيه . . .

ـ انما يبدو لي انني أستطيع شرح ما يجري معي لك داخل سفارة أسبانيا في واشنطن ، عضّ كلب ردف وزير أميركي زائر ، وهرب . فهرع سفير فرانكو معتذراً : « أرجوك ، معالي الوزير ، بقبول اعتذاري ، وأؤكد لك أن هذا الكلب ليس من السفارة ، بل هو كلب عابر » .

وراح محدثي يقلد لهجة السفير ، مكملاً في احتقار :

ـ « نعم . . . عابر . . . » . . . تتصور ذلك ؟؟؟ وكل ذلك لغريب جمهوري . . . مع أن البشرية عانت الكثير من الزوّار الأغراب العابرين ، ولم يعضّوها ، بل سكنوها . عودتي الى أوروبا تفهمني أن حياتي كانت تحمل أغراب عابرين . . . هذا كل شيء . . . انما ، بعمري ، في السبعين (كنت أعرف أنه اكبر من ذلك) هذا كثير . . . أنت ربما عشت الحياة التي ولدت لها . بروست عاشها ، في نهاية حياته . . . أما ماركس ، فلا ولا فرويد ، ولا أنا . اكره كل ما هو غريب . إلا باريس . حتى هنا ، أود رؤية مشاهد من طفولتي ، ومنها المقابر ، مع اني أعيش في بركلاي ، كما أود استعادة ما رأيناه في السوربون من عمل سياسي فرنسي . لا أبالغ لكن الطلاب يجهلون ذلك .

يقولون : « لا نعرفها » . كما الطلاب الألمان (ولا اصدقهم كثيراً) يقولون :« هتلر ، لا نعرفه » . . . آه من هذا الهتلر . . .

توقف ثم أكمل بشكل أسرع ، ومتدافع :

ـ بسببه ، عليّ التفكير بأنني يهودي . مع أن هذا لا يهمني كثيراً . هنا ، استاذي ليفي برول كان يهودياً . واورشليم كانت بيتاً من الشعر عند راسين ربما تمت صرت تقريباً كما رينان ، وكان يدير الكوليج ده فرانس ، انما يؤمن بالعلم ، واكتسب ما اكتسب . . . أما أنا ، فماذا اكتسبت ؟ الكيمياء ، شيء آخر تماماً .

دخل هنا ، حاجب حاملاً اليّ برقية من وزارة الداخلية . وكانت تلك ، أخباراً تتلاحق منذ وقت الغداء . . .

« ألف وخمسمائة طالب يمنعون الشرطة من العمل . جماعات مكثفة تتوجه صوب دانفير روشرو » .

قبل أربعة أيام ، كان اتحاد الطلاب دعا الطلاب والأساتذة والعمال الى التجمع في السادسة والنصف من مساء اليوم في ساحة دانفير روشرو . مُنع التجمع ، واقفلت جامعة نانتير . سجلت التقارير سقوط ٨٣ جريحاً . البوليس احتلّ السوربون . وكان على دانيال كوهن بنديت ورفاقه ـ قادة حركة ٢٢ آذار في نانتير ـ أن يمثلوا هذا الصباح أمام المجلس التأديبي في الجامعة . حوالى التاسعة صباحاً ، جدّد اتحاد الطلاب نداءه ضدّ منع التجمع . في التاسعة والنصف ، أعلن المجلس التأديبي أنه سيصدر حكمه غداً على كوهن بنديت ورفاقه . في الواحدة ، انطلق أربعة آلاف طالب متظاهر من كلية العلوم باتجاه ساحة النصر ثم الى الحي اللاتيني . في الثالثة ، اصطدموا بالبوليس في بولفار سان جرمان ، حيث تواجدت قوى أمن من الضواحي .

وهذا الصباح ، عشرون استاذاً (بينهم كاستلر ، حامل جائزة نوبل) اخذوا موقفاً موالياً لنقابة المعلمين العليا وأطلقوا نداء الى زملائهم . في الرابعة ، دعت النقابة أعضاءها « للنزول الى الشارع مع الطلاب » . وكان هذا النزول مقلقاً اكثر من نزول الطلاب . وأعلن عميد كلية العلوم (البروفسور زامانسكي) أنه يجد « في هذه التظاهرات ترسبات تعود الى خمسة عشر عاماً » . وهذا المساء ، سيظهر وزير التربية الوطنية ألان بيرفيت[1] على شاشة التلفزيون ويوجّه نداء يذاع كذلك من الإذاعة .

التعليمات الى الشرطة : عزل المتظاهرين وتوقيفهم أو تجميدهم ، دون عمليات . بعد ساعتين من هذه الخطة ، وفي المانيا الاتحادية ، وقف جميع الطلاب من جانب المتظاهرين . . .

برقية جديدة : « ألف أستاذ غادروا كلية العلوم والتحقوا بالمتظاهرين » .

هذه هي المعلومات الوزارية لأيام الأزمة : حواجز الجزائر ، ومحاولة الانقلاب العسكري . اثناء الحواجز ، فكرت بالمسافرين الكانوا متجمعين حول جهاز التلكس في سفينتي عام ١٩٢٥ : « اعلان الإضراب العام في كانتون » . وكان أول برقية قرأتها : حول مباراة كاربانتييه / دمبسي .

أما ليلة انقلاب الجنرالات ، فكنت في وزارة الداخلية مع روجيه فراي الكان سمي وزيراً في العشية . بعد جلسة مجلس

---

(١) راجع ، بالعربية ، لدى منشورات عويدات ، كتابه الرائع « يوم تنهض الصين . . . يهتز العالم » من ترجمة هنري زغيب . (الناشر) .

الوزراء ، كان الجنرال ديغول أعلن : « افعلوا ما تريدون . أنا ذاهب أنام » . وكان حوالى الخامسة ، حين أعلنتُ له ان العلاقة سيئة بين وزارتي الداخلية والدفاع ، أجاب : « عالجوا الموضوع . لا أهمية للأمر . لن يفعلوا شيئاً . إنهم عسكريون » . وكان ميشال دوبريه يهيء خطابه للتلفزيون : « التقوا جميعكم على طريق المطار » ليجد المظليون أمامهم شعب باريس .

كانوا ينتظرون ، حدّ الطائرات ، على مدرج الجزائر ، كما أعلمنا جهاز خاص حوالى الخامسة مساء . والطيران سيتم حكمًا في حقل رادارات ساردينيا ، ولم تعد لنا سوى ساعات معدودة . في خلال الجلسة ، كان أمين عام الداخلية أكد أن « الشرطة وفرق باريس لن تصطدم مع أشخاص يلبسون البزة الفرنسية » . اتفقنا أن نقوم نحن بذلك . خلف القصر الكبير ، كانت تنتظر قافلة دبابات ، ويمكن تجنيد المتطوعين المتوافدين الى الوزارة . سألنا على أيّ مدرج قد تحطّ القوى الانقلابية ، فقيل لنا إنها حطّت في أحد حقول منطقة باريس . أعطيت الأوامر بمراقبة التحركات . كم كنا استفدنا لو تنبّهن الى اطلاق صفارات الإنذار . كنا نراقب كل انذار من عند العمدة . أطلقت ثلاثة إنذارات كاذبة . كانت منطقة باريس كلها تصغي ، واشغلت أزرار الهاتف الموصولة بجميع المخافر ، فيما زادار سردينيا قابع في عمق القمة . كنا نعرف أن الانقلابيين لن يحطوا بعد الفجر . في الخامسة صباحاً ، عاد المتطوعون مدنيين ، فأويت الى بيتي في صباح أسباني كما جميع الصباحات الباردة التي تشهد الرجوع من المهمات .

لم نكن في حالة استعداد للقتال . وستشهد هذه الليلة تمرينا نهائياً للمعارك بين دانفير روشرو والحي اللاتيني اعطيت البرقيتين الى ماكس ، فرمقهما سريعاً ، ونهض واقفاً ثم راح يذرع الغرفة متكلمًا كما مجيباً عنهما في استرساله :

ـ مراهقتي ، هنا ، مطبوعة ببرغسون . لم يعد له اليوم أي دور ، حتى لي ، بعد رواج فردانية موريس باريس وخاصة جيد ، والماركسية الفرويدية التي مدفنها تحت قوس النصر . أنا لست ضدّ فرويد : كنت عالماً نفسانياً . ولا ضد ماركس : ناضلت في الحركة الشيوعية ولست نادماً . وفي الحالتين لا يهمني الموضوع . لكنني لا أطيق الغباوات التي عند الناس ويتباهون بها .

ـ أي ناس ؟

كان المصباح الكبير يضيء عليه في مشيته ، ثم يعود فيضيع في العتمة التي تلتقي بعتمة القصر الملكي ، فلا يعود بادياً منه سوى بصيص على شعره الاشيب وإصبعه الملوحة في الهواء .

ـ أي ناس ؟ معاونيّ والطلاب والزملاء والصحافة والمثقفون . . . وجميع الذين أصادفهم يراهنون على المستقبل لأنه في العلم والفنون خلال القرن التاسع عشر ، كان هو الرابح دوماً . لن اكون ساذجاً أمامهم لكنني على يقين من أن المستقبل سيكون غريباً عليهم اكثر مما كانه عليّ المستقبل ، أو بودلير أو ماركس ، لا يمكن التكهن بشيء ولا بأحد . واذا كنت أتحدث عن طلابي ، فلأنني ذو نشأة صالحة . يمكنني التحدث عن طلابك أيضاً . الأمر يتكرر . بالأمس عندنا ، اليوم عندكم ،

غداً في اليابان . الشباب ، ظاهرة لا تنتهي . انما لا يهمني هذا الموضوع .

ـ اما أنا فيهمني . من أين غضبك ضد الماركسية الفرويدية ؟

ـ من الواقع الذي نعيشه . . . والذي لن يعرفه أحد ، ولو بعد مئة عام . سيدور القول عن فرويد الحقيقي وماركس الحقيقي . لو أنك تدرك أن المتظاهرين اليوم ليسوا ماركسيين فرويديين ، كنت تغير من رأيك وموقفك أعود الى فكرتي : ماذا علمونا حين كنا في سوربونكم ؟ ثمة قيمة القيم : الحقيقة . والحقيقة هي ما يمكن التحقق منه . فرويد وماركس ، يرضيان بالعبارة ، حتماً . لكنني لا اطيق مطلقاً عبارة ماركس المتداولة : «لا يكفي فهم العالم : ينبغي تغييره » . وماذا إذن ، لو توقفنا قليلاً عن تغيير العالم ، محاولين فهمه ؟

بدا لي ممثلاً يجيد دوره ، حركياً عصبياً ، وهو يشبه ، على كل حال ، شكل الممثلين . بادرته :

ـ هل عرفت الآن ؟

ـ كلا . لكنني عرفت بعض تلاميذه .

ـ سيمون ويل ؟

كلا .

ـ كان علّمك أن هدف الفلسفة : المعرفة ، انما الحكمة كذلك . لا العقل : الحكمة الموقّرة ، وهي التي ذات حقبة ، ظنت نفسها تحلّ مكان الدين .

ـ أتذكر كيف قرأت مؤلفات أناطول فرانس الكاملة . . المهم . . . كانت تلك أوروبا . . . حضرت جنازة أناطول فرانس الوطنية ، وأنا أفكر بجنازة وطنية لبول فرلين المولود في السنة نفسها والمدفون بشكل رهيب فيها صديقته تصرخ فوق الحفرة : « بول ، قم ، جميع الأصدقاء هنا » .

ـ الحكمة . . . الحكمة . . لا يمكنني التكلم على هذه الأشياء . . طلابي لا يقتنعون بها . عندهم ، أنّ غوته سخيف . . . لا يمكنك الكلام ، أمام جماعة ، على كل شيء . طلابي يحبونني كما يحبون الفن الزنجي . التحليل النفساني يتوافق مع الماركسية . أحسهم حين يهتمون لموضوع . اهتموا فترة ، للوجودية ، واليوم للاهوت السلبي . تعرف أن مأساة موت الله لا تخص سوى المسيحي ، اذ الله يموت في تجسده بالتاريخ . . .

ـ لا دور لهذا في فرنسا ، بل في البلدان البروتستانتية . أنا أفضل المتطرفين ، كما دوستويفسكي . . .

واكتشفت فجأة ما كنت أبحث عنه : من يشبه محدثي ، فإذا هو يشبه العالِم التقليدي العجوز محاطاً بقططه . دخل في دائرة الضوء تتقدمه بسمته :

ـ ثمة ايام افكر فيها ان ربما لم اعد افهم . وهذا عامل السن . . . لكنني وقد تستغرب ـ لم أعرف الشيخوخة بعد . . .

وبلغ في قوله هذا حدّ الصراخ ، ثم ضحك فانفرجت تجاعيده بما يشطب منها صورة الموت . وفجأة ، تجمّد وجهه : دخل الى ذاته . كان في الماضي يحب أن يحدثني عن أسراره ، وانا اهتم بحميميات الآخرين اكثر من حميمياتي ، حتى أن جيد

قال لي ذات يوم : « ولكن ، الا تجد نفسك فرداً مرة ! لا يهمني ذلك . يهمني أمر امرأة ، أو رجل صيني . أما الفرد في المطلق ، فلا . لم يكن عندي يوماً حسن الحكم على أحد . . . هذا غريب ، فعلاً ، انما ، ما الغرابة ، في النهاية ؟ » . وكان يعبر بـ« غريب »ليقصد« طريف » . . . ولشدة انتباهه الى الآخرين ، قال لي مرة : الأهم ، في سني ، تذوق الغرابة ولم افهم قصده حتى اليوم .

رغم السنوات ، أجد مع ماكس توريس حميمية من جهة واحدة . . . عاد الى الظل : ـ كنت في الماضي اظنني ، في هذه السن سأفكر بي كثيراً . . . انما لم اعد افكر حتى بخبرتي ليس للحياة علاقة بما كنا نفكر ثمة دائماً متغيرات : حكايات الشباب ، وطلابك المتظاهرون اليوم ، وطلابي والجيل الجديد . . . آه . . . الجديد . . . . نتحدث عنهم كأنهم يثورون ضدنا . . . وهم يسخرون منا . . . ولا يبالون بنا ، وقد يكرهوننا . . . لا وقت لديهم . . . هم في حالة تغير دائم . . . لا أذكر اي نص جاء فيه أننا كما لو كنا مركب ، ويلزمنا لتبين الحقيقة ، ان نكون ابتعدنا كلياً عن الشط . . عمقياً ، لا كلام متبادلاً لنا مع الشباب كلّ منا على حق . . نحن ابتعدنا عن الشط ، وهم بعدنا سيبتعدون . واخترعنا طبقات السن ، وألوان البشرة . . . ألم تتمنّ يوماً تغيير لون بشرتك ؟ كل ما يجري لا يهم . . توالي الأجيال الشابة ، الغيوم التي تعبر ، الحقد الذي يعود ، البرقيات تصلك على التوالي ، التفسيرات السياسية لما يجري في بركلاي ، وفي طوكيو . . . الناس يتحلقون مع بعضهم البعض كي لا يشعروا بالوحدة . . . الناحية

السياسية لا تثيرني . لكن ما يزهني ، الحيوان الذي اسمه الإنسان . إنس كل ما قلت . . . ليس أروع من رؤية الواحد منا طلابه مصابين بمرضه نفسه : بالتفاصيل الاسطورية نفسها : المترو مغادرة المكان دون الاشارة الى العنوان الجديد انهم الوهم الكبير . . . حين جرحت في الحرب الاهلية ، جررت نفسي الى حافة نهر ، ليسهل ايجادي بعدما رحل الفاشيون واقترب شبابنا . ففي الصيف ، جميع الأنهار تشبه السواقي التي يصطاد فيها الأولاد السمك ، بأعشابها وجريانها . كان الهواء يحرك الاعشاب كما لو انها تسبح . . . رحت أحلم . . . لم يتغير ذاك النهر منذ الحرب مع العرب . واليوم لن يتغير : بلون الصيف وشمس المياه . . . .

فجأة ، نهرني كمن التقط ذبابة تطير في الغرفة :

ـ هل تصلي أنت ؟

ـ والى من تريدني أن أصلي ؟

ـ ما همّ أنا اليوم أصلي . لا اعرف الى من انما يقيناً ، لا الى إله اسرائيل . بتنا نخلط كل شيء الله هو ما نصلّيه .

وأطلق ضحكة خاطفة ، انهاها بلمحة سخرية . . .

تطلعت اليه وفكرت ، أو بالحري شيء ما فكر فيّ : ما الذي صار بوجهه ؟ هو في بالي ، يمثله دور شبابه . وإلا لم يحدّثني عما جرى له منذ سنوات . ليس للأحداث اثر على تغيير الوجه . لا تفسّر شيئاً ، لأن العمر ليس وحده المسبب . لكن الشيخوخة مؤثر الحياة الدامع . ماكس مجبول بالشيخوخة كما

التمثال بالخشب . وأنا ؟

قاطع ماكس تفكيري وأكمل :

ـ لا يهمني التحليل النفساني . . . كما لا يهمني النهر . دخل العلم حياتي مع كيمياء الدماغ . حوالى ١٩٥٧ . كانت لي حياة قبلئذ ، فتغيّرت . ولكن ليس من يعرف لماذا الدماغ ينصاع للمخدرات التي نلقمه إياها . مكتشفاتنا تجريبية ، كما الكثير مما نصادف في الحياة . كالبنسلين مثلاً . انتبه : بدأت بالافتراض وانتهيت بالتجريب انما لن أقع في الأدوية المغلوطة .

وفجأة سكت ، وسألني وهو يحدق في المدخنة :

ـ ما هذا ؟

ـ قطة من خشب حملها إليّ بالتوس من اليابان . انها حاملة سعد . ترفع يدها اليسرى .

وعاد يكمل مشيته وكلامه . .

ـ ذات فترة ، حاولوا الانفيتامينات المنبهة ، علاجاً ضد السرطان . ولا أتصور أن عدد القاضين بالسرطان ضؤل لكنهم قضوا هانئين . وثمة محللون نفسانيون أذكياء أهملوا السرطان ، واستعملوا الانفيتامينات ضدّ الانهيارات العصبية . فالانهيار العصبي اقوى من السرطان ، كما قال أحد الخبراء الفرنسيين . ومن هنا ، بدأت كيمياء الدماغ .

كنت اعرف انه لا يبالغ . ثم اكمل بلهجة اقرب الى الحلم منها الى التأكيد :

ـ مع أن العلماء ، في سعيهم إلى تطبيب البشرية ، ينسون أنها مجنونة كثيرون من طلابي ، أطباء ، وأنا لا املك هذه الشهادة انما الآن ، فات الأوان . .

ـ فرنسا تفرض على المحللين النفسيين أن يكونوا أطباء .

ـ مع أن المحللين النفسيين في أوروبا الوسطى ، درسوا الطب على كلٍ ، هذا لا يهمني . هل لك أولاد ؟

ـ عندي بعد ، ابنة .

ـ في الجامعة ؟

ـ بل اكبر من سن الجامعة . وهي زوجة ألان رينيه .

ـ افترض انها في نانتير.

ـ اعرف طلاباً من نانتير . وأساتذة كذلك . بينهم أستاذة ديغولية .

ـ إذن جريئة . انما افترض ان ابنتك في العشرين ، وانها ماركسية فرويدية . أما كنت ستعتبر ذلك جرثومة ؟ أو عودة الى النسطورية أو الى أية ديانة بائدة ؟ مع طلابي وتلاميذي ، العدوى أكيدة ، كما تماوج العشب مع المياه الجارية . هذه ليست موضة . هذه عدوى .

هنا دخلت سكرتيرة . مدير عام الوزارة تلقّى بالهاتف عدداً من المعلومات ، ويرسل إليّ ما حفظه منها :

« فافان ـ الساعة السادسة والدقيقة الأربعون . عشرة آلاف متظاهر ، على رأسهم أساتذة . . سيارتان للاطفاء تعملان

المقاومة قوية . حواجز سيارات وحجارة . اشتباكات في شارع سان جرمان » .

حوّلت البرقية الى ماكس وكان جلس . فانتفض :

ـ كما عندنا ، تماماً . أنا مثلهم ضائع . واتهم المنفى . الشباب لا يفكرون بشيء آخر عني . يفكرون بشكل مغاير . لا يستهويهم إلا فكر توتاليتاري كما كان الايمان قبلاً . . وكلامي عما بين الفرويدية والماركسية من نقاط مشتركة . الباقي لا يهمهم يجب إبعاد كل فكرة غريبة عنهم ، إزاء ما يعتنقونه من عالم مقدس لهم . فرويد في الاتحاد السوفياتي لا يهمّ أحداً . ولكنني لا أفهمك جوهر الفكرة . أنا مضطرب . مضطرب . . .

وبدا فعلاً كأنه أمام امتحان البكالوريا . فاكمل في هدوء .

ـ ذات يوم قرأت كتباً فرنسياً بعنوان : الرومنطيقية والتقاليد . وهو عمل مضن جمع رسائل مجهولة ومذكرات حميمة وعندها فهمت ماذا يصير مسرح موسيه حين يكتب الكاهن الى الكاهنة ، أو حين يظن مغفل أنه يعيش حالة لامارتين في « البحيرة » . . . والوثائق ليست ساخرة ، بل ثمة فيها رسائل انتحار . جميع هذه العواطف المخلصة تبدو مجنونة . لكن الجنون نفسه يبدو رحل مع المنتحرين . الناس التقطوا ، في الماضي ، الرومنطيقية ، هكذا كما التقطوا ، اليوم ، هكذا ، الماركسية الفرويدية .

وانفجر ضاحكاً في سخرية . ثم ضرب مكتبي بكفه كما ليوقف ضحكته :

ـ هل تلاحظ ذلك ؟ أريد أعرف ان كنت تلاحظ . وما كنت

فعلته لو ، في العشرين ، جاءتك قارئة الكف تقول لـك : ستشهد نهاية الشخصانية ؟ لكن اللافت أننا لا نبدو متنبهين لذلك . اكرر : هل تلاحظ كل ذلك ؟

ـ فلنفرض أن الناس التقطوا الشخصانية كما التقطوا الرومنطيقية . ولكن النفوس الحساسة تساوي النفوس الرومنطيقية ، والقصائد الرعوية ادت الى المقصلة . . هل تعرف من أدى بمدام دو باري الى الموت ؟ انه خادمها القديم زامور العبد .

ـ لا علاقة لهذا . ولا تهمني القصائد الرعوية . الملك عارٍ ، وحده . قلت لك انك لا تلاحظ انه . . .

وتوقف فجأة ، مسمراً :

ـ أرى كل شيء ينزلق . . . وأحسني وحدي . .

وضاعت منه السخرية ، إلا أقلّها :

ـ حين نصير في سنّ نشهد معها سقوط رفاقنا ، وصورهم في الصحف . . .

توقف برهة كما ليلاحق فكرته ، ثم اكمل كما لو انه وجدها :

ـ ماركس ، وخاصة فرويد ، اخترقا جامعات المحيط الهادىء كمبشرين مع انهما قيل فيهما ما يقال بحجم مفكرين . لا كما اخترق كانط أوروبا . فالأفكار النبوية جدلية بطبيعتها ، ولو اضيفت على البرنامج في الأصل . . . قلت لك انني مبهور ومندهش . . .

وانتبه الى انه يراقب نفسه ، فأكمل :

ـ لم لا اكون مندهشاً ـ مبهوراً ؟ جميعنا مندهشون . لكنت انـزل درجاً عـادياً فـأصل الى القمـر . لكن بـاريس تضخم الأمور . جئت مرة الى القصر الملكي أبتاع طوابع وكتباً داعـرة. كانت غاليري أورليان ممتلئة . وفي شارع فالوا ، تغـديت في مـطعم كان وطئه بونـابارت (آمـل أن تضـع فيـه لـوحتـين تذكاريتين . اكرّر : لوحتين اثنتين) . لكن المقصود تماماً ، ليس الماضي . فإنني أتذكّر غاليري أورليان أوضح من ذاك الماضي . كانت ممتلئة بصور فوتوغرافية كبرى تمثـل المستعمـرات . تصـور: المستعمرات . وتفكيري يبدو غريباً كهذه الصـور . . غريبـاً . . وقحاً . . .

ـ قلت لك : عرفت أموراً كهذه . العودة الى الأرض ، بعيد النجاة من خطر كبير ، وحطّ طائرة عسكرية بعد تحقيق المهمة . وما يفاجىء : المكانس ، المرشات ، الحيوانات . . . لا الناس .

فكرت بغراما بعد تنفيذ الحكم . لكن ذكريات المقاومة ، التي لم يعرفها ، هي دخيلة ، فيما ذكريات اسبانيا تبتعد . متى ، واقعاً ، بدأت أعاني هيولى العالم ؟ خلال آخر شتاء من الحرب ، منـذ الابحـار حتى مـوت هتلر ؟ هـل عنـد وصـول الفــرق الأميركية ، واضطراب الفاشية ، وجحافل الجرافات السوفياتية ، والسنين الأخيرة من الامبراطوريات ، وقنبلة هيروشيما ! أجبته :

ـ الانتماء الى حضارة بين حضارات ، أو اقتبال حضارة ، اذا شئت ، أمر أعرفه . لكن الأهم ، « بين حضارات » لا عصر

كما هذا ، سيعرف كم هو مؤقت ، وكم هو يعلن نهاية العالم . انه بالنسبة لنا ، دخول صباحي يومي لآلاريك الى روما . الأمور بدأت بعد رجوعي الأول الى آسيا بعد الحرب ، وبعد تبدد الشعور بالابتعاد في الزمن مع الابتعاد في المدى . . . الى الشرق أو إلى الهند . وبطيئاً ، تتشابه الأيام والأيام في المركب ، كما تتشابه الأيام والأيام في كتابات بيار لوتي . أتذكّر قوافل بلاد فارس ، وبيوت الضيوف في الهند الصينية ، وأبي بقبعته مصغياً الى الاذاعة : « هنا بودابست » كما استمع الى : « هنا تيودورا ، امبراطورية بيزنطية » . وكان التلفزيون يعرض بودابست واسطمبول ، كما سيعرض لنا ، يوماً ، مناظر من القمر . الحضارة الجديدة تشبه الشقق الفارغة ، بانتظار المستأجرين الجدد .

وسعت بسمة ماكس ، وأجاب :

ـ أنت تفكّر بمشاهد وأصوات من نوع : « هنا بودابست » . . . صحيح . وأنا منذ حرب اسبانيا ما عدت تعاطيت شراب الأبسنت المسكر . أنا ، حين أفكّر بالأشياء المتوارية ، أفكّر بالأفكار بالزوار العابرين . بالأساطير ، أو ما كنا نسميها الأساطير حين لم نكن نعرف ما اسمها . أفكّر باللاوعي ، بالتقدّم ، بالثورة . . .

ـ كنا نسميها أساطير نسبة الى كلمة الميتولوجيا . كما نسمي الشبق نسبة إلى الشهوانية النسائية .

ـ والتاريخ نسبة الى الله . . .

ـ كلاّ حاولت البحث عن النقاط المشتركة بين التاريخ ،

واللاوعي ، والتقدم ، والأمة ، والحزب ، وكل هذا الأولمب جميعها ، بدءاً من المنطق العقلاني وصولاً إلى الاحزاب التوتاليتارية ، عناصر قاتلة للآلهة ، وورثتها . انما على تجرداتنا أن تجد روحاً نابضة لها .

ـ وما الذي يعطيها هذه الروح ؟

ـ ايجاد الأعداء فحتى للاعقلاني تستعمل حضارتنا تعابير عقلانية . لكننا نعيش في طبقات الهيولى الخارجية . القدماء كان يجسدون قوى معينة ، ويؤلهونها . نحن ، نجسد معانينا المجردة . وزوارك العابرون : اللاوعي ، التقدم ، الثورة ، البروليتاريا ، جميعها طبقات هيولى خارجية . فبعد ألف عام ، سيصار الى فهم ما كان الاله اللاوعي أو الإلهة الثورة . أما نحن ، فداخل هذه الطبقات .

ـ حتى اللاوعي . انت تبالغ . أقر معك بأن فرويد سلطعون قديم ، لكن علم التحليل النفساني ، يبقى على أي حال ، . .

وتذكرت . . . علم التحليل النفساني . . . عام ١٩٢٠ . . . كنت اتناول فنجان قهوة في « لاكوبول » مع رسام سويدي يدعى خاريس ، كان يقول : « النمساويون اكتشفوا طريقة لاكتشاف ما في اللاوعي ، يسمونها : تحليل النفس » .

التفتّ الى ماكس مجيباً :

ـ اللاوعي ، في ذاته ، معنى مجرد . وجميع المؤمنين به يتحدثون عنه على أنه تجربة . من هنا ، لا جدوى من اثارته جانبياً . وليس مثقلاً بالمستقبل ، كما الأساطير السياسية التي هي في طبيعتها أساطير تقدم هو ليس مثلها ، قدراً . لكنه الميدان

الـذي تتفتح فيـه جميـع الأقـدار . إنـه معنى مجـرد ، ممتـلىء أحاسيس . هو كما الخطيئة الأصلية ، لا كما الجاذبية . وانت تعرف المحللين النفسانيين زملاءك ، كيف انهم . . .

ـ زملائي سابقاً . . .

ـ كيف أنهم مناضلون . وما يفرق الميدان العقلي الجديد عن سابقه ، ان طلابك يجدون فيه ، فقط ، الأفكـار التي تغذي المناضلين . أفلاطون لم تكن له هذه الأفكار .

لكن لسقراط مستمعين . . .

ـ ولمونتاني كتب . الفكر النضالي يستدعي وسطاً ، بيئـة ، عملاً ، تحركاً ، لا وحدة وتأملاً . يمكن تفضيله عن سواه انما لا يجوز خلطه مع سواه .

دخل الحاجب حاملاً لي جريدة « الموند » . لم تحتل مظاهرات الـطلاب ، وحدهـا ، اعمدة الصفحـة الأولى . كـانت فيهـا مانشيتات أخرى : « المباحثات بين الأميركيين وفيتنام الشمالية قد تتم في باريس . مجيء الوزير التشيكوسلوفاكي دوبتشيك الى موسكو ، لم يثمر اية نتيجة » .

مع أنه ، في مكان آخر ، برز الاهتمام بأن « انفجار غضب الطلاب فاجأ جميع المراقبين . . . وحركة الاضرابات والتظاهرات والتي لم يحدد حجمها بعد ـ تسعر اضطرابات نانتير . . . جماعات الطلاب ينتقلون من الاعتراض الى العنف . . . اتحاد الطلاب تتداخل فيه عناصر يسارية متطرفة . . . » .

قرأت هذه المقاطع بصوت عالٍ . وبدأ ماركس يجيبني كما

مكملاً فكرته :

ـ للحقيقـة أصحـاب . في أسبـانيـا عـرفتهم في طبقـة المنجمـين . . . أجد أن تسلّمـك الـوزارة ، لم يفقـدك من تبصّـرك . . . ويسرني هـذا . . . أعتـذر . . . انما أحيـانـاً ، نتساءل . . .

ـ كان فاليري يطلق على حرف الفن والفكر عبارة « مهن هاذيه » .

ـ أعجبني ادخال الجريدة إليك على طبق . . .

ـ المرة الأولى ، ادخلوا إلـيّ « الكانار آنشينيه » . . .

ـ طريفة . هذه . . .

ثم عاد الى حديثه الأول . . .

الحتميـة الدينيـة كانت لهـا منبسطات : العنـايـة الإلهيـة ، التوبة . . . كان الله يغفر . بعدها ، جاءت علموية متفائلة . قلت لك : كنت أفضل أن أكون رينان . كان يفضي بفردوسه إلى علم العصر المقبل ، وهو عصرنا نحن . .

ـ بينه وبيننا ، معسكرات الإبادة ، والقنبلة الذرية . . .

ـ بينـه وبيننا لا شيء . . . انتبـه ، التفـاؤ ل يخسـر . . . فالهلاميات البحرية ، على الرمل ، ما زالت تتساءل عما تفعله عليه . وانحسار الفردوس يجعلها وجهاً لوجه أمام الحتميـات العلميـة . في البدايـة ، أعلنت الأنـوار أنّ الـظلاميـة كـانت الاستعباد ، فرضته الكنيسة وعقيدة الخطيئة . وكان ذلك انتصاراً لميدان الفكر ، فيما كان القلق ، في ذاك العصر ، سبباً في حمل

الغبطة الى عصرنا نحن ، الى إنسانيتنا .

وعاد صديقي الى الوقوف والمشي في مكتبي ، وهو يردف :

ـ قوّتنا مرتبطة بانفتاحنا على الآلهة وانما بانصياعنا كذلك انصياعنا الى ماذا ؟ لا يهم تماماً كما في علم التحليل النفساني . فباسم شفاء الناس ، ونادراً ما يشفون تماماً ، يصار إلى التلذذ بالاحتيال مع الشيطان المتغلغل في الانسانية .

ورفع سبابته مكملاً :

ـ ولا أرى في ذلك أي عائق . وقد تأتي هذه العدوى الى فرنسا .

ـ وقد تتعداها الى أينما كان . . هي الآن في هولندا . ويسارية المثقفين ، مرحلية ، وهنا خطورة وصولها الى فرنسا .

ـ لا تغال . . .

ـ بلى . . . ستكون خطيرة ، اذا الانفجار الجامعي التقى مع الثورة .

ـ لكن الحزب الشيوعي ليس مستعداً لذلك .

ـ لا يستطيع إلا ما يستطيعه . . .

أكمل مشيته ، هازاً برأسه موافقاً ، وشعره الأشيب يتطاير . . .

دخل الحاجب من جديد ، حاملاً برقيتين :

« الساعة السادسة . مئة جريح . التظاهرات تتضامن بين

روان وغرونوبل . مظاهرة ضخمة في تولوز » .

والأخرى :

« استعدادات لتظاهرات عمالية دفاعاً عن التوظيف في تسعة قطاعات . مظاهرات تضامن طالبية في ستراسبور وكاين ونانت . مظاهرة باريس ضخمة جداً لم يسبق لها مثيل الساعة السابعة : ٣٠٠ جريح » .

وعلق ماكس ببرودة :

ـ عندنا كان الأمر كذلك . لا تهتم . . .

ـ ربما ثمة نوعان من المفكرين . في برنستون ، كان آينشتاين يبحث عن معنى العالم ، مؤكداً لي أن ليس سوى معنى واحد . لكن أنبياء طلابك لا يبحثون عن معنى العالم ، بل عن سره .

ـ صحيح ، عن القسم المغمور من الجليد . ماركس يريد الكشف عن سر الرأسمالية . مع أن الأفضل : بقاء السرّ مغموراً ماركس وفرويد معاً ، وحتى نيتشة ، غاصوا في ذلك . لماذا الهيبيون ، وهم يحبون النقاوة يتنكرون بثياب متسولين والوجوديون ؟ الطلاب ، على الأقل ، أوجدوا زيّاً . . .

ـ ليس زيّ المعارضة هو الذي يتغير ، بل المعارضة نفسها .

ثمة شيء مازوشي في هذا العصر اللعين . معك حق ، هنا ، بأن ماركس حدث عارض . وفرويدية الطلاب ، هي لذة الغوص في المواضيع الجنسية ، واحترام الأحاسيس على أنها قوى رئيسية يخضع لها . جميعهم معجبون بسارر . لكنه ليس شهوانياً ولا مدمن مخدرات ، بل سجين . جميعهم أسرى ولا ينادون إلاّ

بما يحبسهم . انهم متمردون ، معارضون ، لكنهم لا يتكلمون إلا على ما منه يعانون . لا يهتمون بالفرد إلاّ اذا تمكنوا من النظر عليه كما فلينة على وجه مياه وسخة افكارهم دائمًا مغلفة بأمور أخرى ، كما الايمان غلّف افكار الطلاب في القرن الثالث عشر . لم تبدأ استقالة الفرد إلا بعد الحرب العالمية الأولى . . . استقالة الانسان . . . كان يصنع التاريخ ، ويخضع للعقدة الجنسية . من هنا ، عند الفرويديين ، كما عند الماركسيين ، الحرية ملكة الفكر . وهذه نقطة لا الى جدال . ومن يومها ، صار الانسان عبداً لهذه الفكرة .

وراح يمر مراراً تحت دائرة الضوء ، بخطى صغيرة ، فبدا كما هندي يجول في ساحة معركة :

ـ مغفلون . . . بلهاء . . . لم يتنبهوا الى ان تصرفهم سخيف . . . الواضح أن أهم ما بين الرجل والمرأة الحنان ، ثم . . .

ـ فاليري أيضاً كان يقول هذا . . .

ـ صحيح ؟ وكتبه ؟

ـ كلا . . .

ـ كنت استغربت . . . فما من أحد يتكلم على هذا . الكل يعتبره مهيناً ، ويرى أن أهمّ ما بين الجنسين هو الرابط الجنسي بعد مئة عام ، يكتشف طلابنا والأساتذة انهم كانوا على خطأ ، وأنهم كانوا مبتوري الأحاسيس . وحدهم ، يصدقون ، ذوو العمل الجماعي ، جنسياً وثورياً وماركسياً فرويدياً . يزهقني دائمًا

الكلام على الإحاسيس . كأننا نعيش في أحد الكتب السرية من القرن الثامن عشر ، والتي تباع تحت القناطر في الخفاء .

ـ كانت تباع تغير مكانها .

ـ تصور ورثتنا ، يقولون غداً : « يبدو أن أجدادنا ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، كانوا يهتمون بالخارج دون الداخل » . تعرف أن هذا العصر المجنون ، رغم ناطحات سحابه ، ستكون له صفة الصحراء كم اتمنى أن أعيش لأرى ذلك .

ـ لكنك تحدس به جيداً .

ـ عند الشباب ، لم يعد للثورة هدف الغزو ، بل مزيج من ١٤ تموز وأعياد زُحل . طبعاً لا اعتراض لي على أعياد زُحل .

ـ ولا على ١٤ تموز ، أظن .

ـ ولا على ١٤ تموز ، طبعاً . مع أن الماركسية الفرويدية قد تتعارض مع أي نزاع طارىء .فعلى الفنان هدم كل فن ، كما على الثوري هدم كل حالة قائمة ، وذلك خدمة للثورة المستمرة الأسطورية ، التي تشبه العيد البري .

ـ صحيح . انما الأهمية تبقى اذا بقيت الثورة مرتبطة باليأس .

ـ الانسانية عرفت عدوى انتحارات . والمازوشية درست متأخرة . لن ندخل هنا في الظاهرة الجماعية لنتكلم على مازوشية حضارة كاملة ، مع أن لحضارتنا شيئاً من المازوشية .. تصور الثوار بلا ثورة . . . ايديولوجيا طلابي الهيبيين ،

والـوجوديـين ، لم تكن تفرض عليهم هيمنتهـا فلم تعد تميـز تظاهرة ، لديهم ، عن أخرى .

وتطلع ماكس ، في عناية ، الى صرته .

ـ سحر الثفالة . . .

دخل السكرتير ، حاملاً لي ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة . قرأتها ، واتصلت هاتفياً بـالمديـر العام ، أستـوضحه تعليمـاته الأخيرة :

« اكثر من ١٢ ألف طالب . حـواجز كثيـرة : سيارات ، حجارة ، اسلاك . حاجز حاسم في سان جرمان دي بري . الجمهرة تسيطر على ساحة موبير وتنشر الرعب الشرطة مسلحة بالدروع والقنابل المسيلة للدموع . اعتداء على سيارة اسعاف تابعة للشرطة . اعتداء على سيارة اطفاء. انما بعد السيطرة على الحريق . المتظاهرون يعتدون على محطات المترو . لافتات تضامن مع الطلاب التشيكيين والبولـونيين . لافتـات أخرى منـاهضة للشيوعية . مدير البوليس توجه الى المكان » .

نـاولت الورقـة الى ماكس ، فلم يـأخذهـا وأكمل حـديثه السابق :

ـ يمكننا تفسير الجماعة في شكل آخر . تقول ان العالم عاش آلاف السنوات على أحاسيس عميقة ثم أوروبا ظنت أنها عاشت على أفكار هزتها ثم عاد العالم الى العيش على أحاسيس ومفاهيم مثقلة بالمستقبل بالبولشفية والنازية والماويـة والتقدم والعلم ، وهذه كانت الهزة الثانية . أما العلم ، فشيء آخر . . .

- انه ، كذلك ، شيء آخر .

- على أننا تعلمنا عن كيمياء الدماغ ، منذ عشر سنوات ، اكثر مما منذ خمسة آلاف سنة . فماذا لو العدوى الحالية لم تكن سوى هذيان ؟ وقد يكون له تابع مستمر .

استغربت من هذا التفاؤل لدى ماكس ، الذي قال عنه جوليان بندا خلال مؤتمر مدريد انه « يسقط أفكاراً كما تسقط الجوزات عن شجرة الجوز » . لكنه ابتسم خفيفاً ، وتطلع بالورب كما لو كان يخشى تنبيه أحد ، ثم أخفض صوته وراح يتأمل المصباح على مكتبي ، وعليه حرف نون . سألني عن الحرف ، ثم أكمل ملاحقاً فكرته :

- مصباح من نابوليون ، تركه الملك جيروم هنا .

- انت محاط بالتراث .

- تفكيري بأسلافي يريحني . لكنّ أحد أسلافي صار ديكتاتوراً في مالي .

- أين مالي ؟ في افريقيا ؟

لم يسمع جوابي . وضع صرته على المكتب ، أزاح نزقه بحركة ، لكنه أزاح فكرته أيضاً لأنه التفت الى اليسار فرأى ، صوب الحديقة ، جميع النوافذ تضاء فسأل :

- ما هذا ؟

- مسرح الكوميدي فرانسيز كان المسرح المرهف ، والمسرح البلوتاركي ، والمسرح المسيحي، وهو مسرح التخيل . . .

الانسانية مفتونة بمسرحها الخاص . لكن شراب الحب الذي جعلها تمثل « النفوس المرهفة » ، جعلها تمثل أيضاً « جنود العام ۲ » . إن سرّ الانسان أعمق من مسرحه ومع هذا ، لا تنوي العودة الى أسبانيا .

لا يزال حسّاساً تجاه المديح ، كما كان . (خاصة في موضوع أسبانيا اذ لا ادعاء له فيه) ، لذلك ابتسم في سذاجة . وخارج الثعلبة الفولتيرية ، أجاب :

- ومسرح الكوميدي فرنسيز ما زال قائماً ؟ الله كم باريس خيالية . لم يتغير إطار رواياتكم منذ راسينياك حتى فانتوماس . هذا الأمر غير وارد في اميركا . حتى ولا في السينما .

- بلزاك أيضاً حاضر فينا . مع أن هوسمان خرّب إطاره . فإنما في غاليري أورليان يدور إطار روايته « الأوهام الضائعة » .

اتذكر موسكو عام ١٩٣٤ . غداء في الفندق الوطني مع أوليشا وباسترناك . راحت أوليشا تتناول الأواني الصغيرة ، وتضعها على طاولتنا قائلة : « أزهار من الحقول ... كم أحب هذا ... » وجلست معنا وهي تحلم : « هل ستأخذنا الى باريس ، أنا وبوريس ؟ باريس خيالية جداً . سأرى محلات الأزياء وقبعات النساء . وسنذهب الى ساحة البيكال ونجلس على مقعد في الشارع » . وهنا أضاف باسترناك : « ستتطلع بين أرجلنا » وأكمل بصوت عميق : « ونقول : هذا وحل موباسان » .

وراح ماكس يردد : الكوميدي فرانسيز . النفوس المرهفة ... الماركسية الفرويدية ... آلهة وشياطين دائماً

الأقوى . أفروديت والمعارضة الدائمة ، فينوس والهيكليات . . . جميعها صارت قبعات قديمة .

كما لو أن تواتراً عجيباً نقل إليه عبارة أولبشا عن محلات الازياء ثم أكمل :

ـ ولكن . . . ما الحيلة ونحن لا يمكننا العيش في الفراغ ؟ الابدية ؟ أفكر بها . سخافة . . . قد أكون أنا من النفوس المرهفة . في جميع العصور نفوس مرهفة . لكنها جميعها مسممة . لو قيل لي انني سأنهي حياتي دون أن اعرف اي دور ألعب . كان يجب أن تكون لنا حياتان . الأولى للاكتشاف والأخرى للاستفادة من الاكتشاف . الاكتشاف قد يبدأ في العشرين لكنت اذن رجل عصري تماماً

ـ لكن للاستفادة والاكتساب ثمناً . لماذا أوقفت كتابة مذكراتك ، وكنت بدأتها ؟ هز كتفيه واكمل :

ـ اكتشاف الناس للتأثير عليهم ، كما يقول ستندال . والتأثير هو الدعاية . . . عجيبون هؤلاء الفرنسيون . معرفة اكتشاف الناس من خلال قراءة « الأحمر والأسود » هل نحن نعرف المجانين من قراءتنا « دون كيشوت » ؟ يدخل السكرتير من جديد :

« تكذيب خبر الاعتداء على محطات المترو . انه غاز القنابل المسيلة للدموع ، مع رجال الشرطة ، تطاير في الهواء » .

هذه المرة ، لم يمد ماكس يده ليتناول البرقية . واكمل :

ـ يحكى عن الخبرة التي تأتي مع السن . ولكن لا يحكى قط

عن اللامبالاة . لا فكرة للشباب عنها . مع أنها عميقة جداً . وهادئة أنا درستها : في قاموسنا نحن المحللين النفسانيين ، عبارة « وما النفع » ، هي مرضية قاتلة . . .

ذكرني ميري ، في سنغافورة ، أن لورنس العرب كان أوعز بكتابة عبارة « وما همّ » على مدخل بيته الريفي . كانما من صوت واحد . . . تلك الصداقات القديمة . لم أعد أراه في باريس ولا في الهند الصينية . لو كنت التقيت ماكس في سنغافورة ، لكانت علاقتنا اختلفت . لكن ميري كان حدثني طويلاً عن هوشي منه قبل ان يحدثني عن نفسه . فآسيا الأول وأميركا ماكس ، تتناغمان مع برودة الأول وحركية الآخر لكلاهما حاجة التفكير والسؤال آخذاً من الحاضر حذراً اكثر مني : الحرب الأهلية جعلت منها مهاجرين من الماضي . كان ميري ينظر الى حياته في مرآة إلهية محببة كما الحوض الصغير الكان الممر ينعكس فيه أمامنا . ولا اظن أن الالهي موجود لدى هذا الفولتير الآلي أمامي ، رغم صلواته . فهو تأقلم مع أستذته ، وإن على مضض ، هو المحارب القديم . لم يكن ميري يتكلم وحده أمامي ، بل أمام الموت . وسأل ماكس :

ـ متى توقفت عن التفكير بأمور ستفعلها في ما بعد ، أو ستحدث في ما بعد ؟

ـ لا شعورياً . . . كما كل الناس . . .

المستقبل البعيد يتلاشى . . . ما هذه الحياة ! على فكرة : قلت لك انني لا اعرف الشيخوخة ، لكنني اعرف الخوف من التفكير بالمستقبل . . .

ـ هذا المكان هنا يرغم على التفكير بالمستقبل . وبطريقة غير شخصية ، وإدارية . وهذا ما يلغي اطاره فوراً . . .

ـ صدر الحكم عليّ بالإعدام قبل يومين من إطلاق سراحي . لم أنس ذلك لما كان جميلاً نسيت إحساسي . حين أتكلم عليه ، اخترعه . . . في النهاية ، لا يهمني الأمر . . .

يدخل الحاجب :

« الاضـرابـات تتنـظم من لجـان المعـاهـد في ميشليـة وكـونـدورسيـة . نـانتـير هـادئـة . الطلاب الشيـوعيـون لا ينصاعون . النقابات المسيحية أعلنت التحرك الجامعي المفكك . الساعة السابعة : ثلاثمئة جريح » .

عجباً .. ثلاثمائة جريح نانتير هادئة مع هذا النوع من الهدوء ، قد نصل إلى ثلاثة آلاف فكرت بما قاله ماكس قبل لحظات . . . هل أنا حقاً غير مبالٍ ، مثله ، إزاء تلك اللحظات من ماضي ؟ أتذكر غراما . . . الصياد الإيطالي الذي صوّب على برج طيارتي ، والذي ، لثوانٍ تردّدت في التصويب عليه لأنني كنت اتبين لحيته تحت القناع . . . وأتذكر مدريد ، نحو الثالثة صباحاً ، شارع الغران فيا حيث لم يبق سوى لاعبي الناي العميـان يعزفـون النشيد الأممي . لم هـذه الصـور تعـود إلى ذاكرتي ؟ هل لأن ماكس اسباني ؟ لا رغبة عندي في التفكير بمداخل الموت : ما همّ . . . لا نتكلم قط في ما هو جوهري . قلت لماكس :

ـ تماثيل « المسيح المهان » في روسيا ، تمثله جالساً ، ساندا رأسه الى يده . كانت الحكومة أمرت بإرسال تماثيل الكنائس الى

المتحف في موسكو . وفي قاعة الانتظار من إحدى المحطات الصغيرة ، قرب نوفغورود ، رأيت التماثيل مصفوفة على المقاعد مثل المسافرين . كانت تنتظر وأفكر فيها كما تفكر أنت بأعشاب النهر . . .

ـ عبث العالم . . . تكلمنا فيه منذ نحو ثلاثين عاماً في مدريد . لم أتقدّم كثيراً ، إلاّ في نقطة واحدة : يقيني بأنّ عدد العبثية الأول هو الرجاء . هكذا تصير النقطة المحورية في علمنا (التحليل النفساني) هي : « مستوى المزاج » ، كما لو مئة تصير تعادل الغبطة ، والصفر يصير يعادل الانتحار . وهذا المستوى لا يهبط إلاّ فيما هو صوب الموت . وتشير الابحاث الى أنه يتطابق تدريجياً مع مستوى الأمل .

ـ لكن الأمر يستاهل . . .

ـ غالباً . . . مؤخراً توصلنا الى اكتشاف مهم : « الكميات الوسطى » من الأدوية مقبولة في اينما كان ، منذ خمسين سنة ، فيما فعاليتها تتراوح بين ١ و ٦ . في كيمياء الدماغ ، الأمر بديهي . لكن المسألة تطرح في الطب العام . وكثيرون من الناس ، وأنا منهم ، لا يمكنهم العيش على ما يعرفون ، بل يريدون العيش على ما به يؤمنون . . . البحث العلمي لم يحل يوماً شيئاً في حياة أحد . وإلاّ لكانت غيّرت كل شيء . انه صيد اللؤلؤ . . . فالشباب ألا يستطيعون الإفادة من النعمة . ألا يشكلون هنا ، جزءاً من أسانيدك ؟

فكرت أن الرسالة التي حددت تاريخ وصوله ، لا تسأل شيئاً مع هذا ، يطلب مني مساعدة ، أو جواباً عن سؤال لا يجرؤ

على طرحه . أجبته :

ـ كلا والحكومة لا تستطيع شيئاً لهم . قد يكون مهمًا ما يحدث الآن في الحي اللاتيني ، انما . . .

ـ تعتقد ذلك ؟ لماذا هو اهم مما في بركلاي او في اليابان أو في سواهما ؟

ـ لأن الهلع الطالبي هنا ، نابع من حركة نقابية والشيوعيون لن يشتركوا في ثورة مع الطلاب الذين يعتبرونهم سلبيين ، وغير مسؤولين . . .

ـ لكنهم لم يشتركوا معهم ولا في مكان . . .

ـ لأن الطلاب لم يكتشفوا ، ولا في مكان ، حزباً شيوعياً قوياً . . .

ـ ولا ديغولاً آخر . . .

ـ يرى الحزب الشيوعي انه « مع الطلاب ، الذين لا يجب الخلط بينهم وبين الخلايا الثورية » .

ـ هذا صحيح ، هنا ، كما عندنا . . .

ـ لن يقوم أحد بمغامرة يسارية لكن الحركة الجماعية لها تحركها الخاص . . .

ـ الناس دائمًا مع الطلاب . لكن هؤلاء لا يحلمون بالثورة بل بالعاميات . كما في أسبانيا ، وكاليفورنيا وهولندا . . . المزيج من العدمية والاحتفال . . . في مكسيكو ، هجم الطلاب على الجامعة وراحوا يطلقون النار صوبها من كل الجهات . . .

طلابك الفرنسيون بورجوازيون . . .

ـ حتى الآن ، ولا قتيل . . . وهذا غريب ، حتى لو اعتبرنا نوايا الطلاب وتعليمات رجال الشرطة .

ـ اتذكر حادثة صارت لكنها لن تعاد . . . ذهبت الى نانتير . . . وكأن الصخب كما دائمًا . . . وكانت هتافات . . . « تحيا فيتنام . . . الجامعة تنصب طلاب البورجوازية ، ونحن نعارض الجامعة والمجتمع . . نحن دائمًا مع البروليتاريا لا دائمًا مع ماركس . . . السياسيون أذلاء ، ماديين كانوا ام لا . . . لكل حقه في الكلام . . . ليحي ماركوز ، ليحي الرايخ . . . اننا نناضل ضد الاستلاب الجنسي لدى العمال . . . لتحي المعارضة المستمرة النابعة من التحريض او الشتيمة » . . . وهكذا الى نهاية المعزوفة . . . لينين لم يكن ليحب هذا . . . وعندكم كذلك كوهن بنديت الذي يزعق اقوى من الميكروفونات . . . مع ان المأساة الاجتماعية عندكم تصبح ذات عدوى ، وتؤثر على الجماهير ، فيما سان فرنسيسكو كانت تهزأ من ضجيج بركلاي .

دخل الحاجب من جديد :

« ٤٥٠ جريحاً » .

عاد ماكس الى السؤال :

ـ الماركسية الفرويدية ، عندكم هل بدأت طبعاً ، بمناهضة الكبت الجنسي ، او بحادثة في غرفة نوم ؟

ـ ما هنا المهم . جميع الحكومات تترجم العدمية في تعابير

سياسية لأنها تعابير عقلانية .

ـ ظننتك ستقولهم اغبياء . . .

ـ سياسياً ، هذه العاب نارية لا نتيجة عملية لها ،
يقال في الحزب الشيوعي ، إلا مسانـدة ميتران ورفـاقه ض
الجنرال ديغول ، او ـ في حال فشلهم ـ نقل الناخبين الى ديغول
اقصى اليمـين . وهذه معاناة جديرة ، فيها الكثير من الغنائية
انما الكثير من الهذيان كذلك .

ـ حادثة الحي اللاتيني هزتني . . .

هز برأسه ، فتطاير شعره . ومنذ عاد فجلس ، صرته ع
ركبتيه ، بدأت غيمة من الحزن تغمره وتحل مكان عصبيته
ثوان ، وقال :

ـ انصحك بالغوص في ميدان كيمياء الدماغ . على فكرة
يجب ان اعطيك وثائق المؤتمر الاول . فعلاً ، الانسان حيوا
رهيب . . . ما تقول ؟ تنفعك هذه الوثائق ؟

جعل الصرة على مكتبي ، وعمل فيها يده ليسحب م
اوراقاً ، ورافعة نهدين نسائية .

وتمتم :

ـ آه . . . النساء . . .

ثم وجد ملفاً عليه : « المؤتمر » ، اعطانيه ، ثم عاد فاقف
الصرة واعادها الى ركبتيه . في الحرب ، كان قال لي : « حين
ابلغ الخمسين ، واصير في سن العجز . . . » وكان ذلك اما
عبثاً بلا شك . . .

ـ في مدريد ، كان املنا اكبر . كان يشبه هلعنا اليوم . . .
في رأيك ، ما دوافع تحركات الطلاب اليوم ؟ حين نجد وطناً ، يجب ان نرافقه بتعابير جديدة : دافع ، بنية ، استلاب . . . وماذا بعد ؟

ـ سقوط الهالات ، الكبت ، التقدمية ، المجتمع الاستهلاكي . . .

ـ حتى الأتون من الماضي والافكار الكبيرة ، يقعون في لغوغائية . كنت اسألك عن . . . آ . . . عن الدوافع . . .

ـ كثيرة ومتعددة . . . اهمها ، كما عند سوانا ، تعديل تنظيم الدروس . معهم حق . يجب ان يصار الى اقلمتها مع ظروفهم : الطلاب اليوم اكثر عدداً مما قبل الحرب . وثمة موضوع الجنس ، إذ احياناً تتدخل الكلية لتحمي حرية الفتاة . وثمة ، كذلك ، الاهداف المباشرة : اجتياح الشرطة للسوربون ، التضامن مع الطلاب المحكومين . وهذا امر مهم . . . اضافة الى هذا : اعلان الاضراب ، عملية اثبات وجود . في الحالات العادية ، ليس من يشعر بوجود الطلاب . جميعها عوامل متراكمة : الوجود ، الاستقلالية ، الحرية ، عناصر متداخلة لكنها قابلة للانفجار . . . واخيراً ، ثمة العدمية الصحيحة . لذا حدثتك عن اللاعقلانية . هنا ، الاهداف اقنعة ، الا البسيط منها ، كما إطلاق الطلاب الاسرى . . . السوربون الشعبية ليست هدفاً ثورياً بل فيلم من آيزنشتاين . كل عدمية تستدعي حالات نفسية . جو العصيان يهمّ اكثر من موضوع الجنس . يقول الطلاب : نقوم بالثورة ، كما يقول المتغندرون : نقوم بالعرس . لست في حاجة إليّ لتعلم أن

نابوليون ، لولا روما ، ما كان صار قنصلاً ولا امبراطوراً . لكن هؤلاء الناس يخطئون في تصورهم للجمهورية . . .

ـ وهل تظن بأن ديغول سينتصر هذه المرة ؟ ثم ، وما يهم ؟ الاهم : الموسيقى . في أسبانيا ، او . . . هذه حجة . . . في بركلاي احياناً استمع الى البرامج المكسيكية . . . غالباً ما تبث الفلامنكو . . . فأقول في نفسي : ما اغرب أن اكون ولدت ، لأندم على ما لم اعرفه في حياتي .

وتردد برهة ثم اضاف :

ـ كنت تتكلم على الحالات النفسيه . هل ما زالت تهمك ؟

وبقي فمه مفتوحاً في انتظار الجواب . . . وكنت حتئذ لم افهم قصد زيارته لي . فأكمل :

ـ أحد زملائي توصل الى . . . ماذا اسميه دون أن أخالف رغبته !؟ الى مهلّس . . . وهو مخدر اقوى من كل ما اكتشف . . . والذين تعاطوه يتحدثون عن الحالة الأولى بقوة ، بالنظر الى ما نسميه نحن الحالة الثانية . . .

ـ الاولى من حيث الزخم ؟

ـ ليس بالضروري . . . أو بالحري كلا . . . يتحدثون عن « لذة مجهولة » . . . وهم ليسوا ادباء . . . شعارهم يصير : « هذه هي الحالة الوحيدة التي فيها ـ كما في الموت ـ تتحد التجربة مع الوعي . مع أنهم كانوا درسوا المخدّرات الرئيسة » .

ـ ولماذا : « كانوا درسوا » ؟

ـ على أن زميلي توقف عن ذلك . . . لا خوفاً من الشرطة ، انما لمجرد الخوف . مع أن اكتشافه هو المخدر الوحيد الذي لا يسبب الانهيار ولا الإدمان . . .

ـ ولماذا خاف ؟

ـ خاف . . .

ـ وتأثيره يدوم ساعات ؟

ـ اثنتي عشرة . . :

تأثير طويل . . .

ـ صحيح . . . ولا ما يجمعه مع الحشيشة او المسكالين او أي افيون آخر . . .

ـ ومع القلوانيات ؟

ـ الهيروين ؟ ابداً . . .

ـ ١٢ ساعة . . بما فيها من تطورات . . . أنت تعرف ان الحشيشة مضاعفة . . . من هنا تأثيرها الديني على بعض المذاهب . . .

ـ ديني ؟ سألت احد طلابي ، وهو ملحد ، عن تأثير هذا المخدر . . . فقال لي . . .

وخفت صوت ماكس :

ـ فقال لي : إنه الفردوس . . .

واكتشفت ان ماكس لم يختبر المخدر بنفسه . واكمل :

ـ لم يحتفظ زميلي سوى بجرعتين . وحين عرف أنني آتٍ الى هنا ، حملني جرعة لك . إن كنت لا تريدها ، اعيدها اليه . . .

وهل تراه جاء إليّ لهذه الغاية ؟ ألأجل هذا ، قام بهذه الرحلة إليّ ؟ حتى لدى العلميين ، احياناً تكمن المفاجأة في حقول كهذه . . .

ـ ما كانت ردة فعل دائرة مراقبة المخدرات ؟

ـ لم يحتكم زميلي اليها . يعرف ما فيها من حسد ، وخاصة من خوف . . .

ـ الخوف من السعادة ؟

ـ طبعاً . . .

منذ بدأنا الخوض في هذا الموضوع ، لم يعد ماكس ينظر إليّ . لكنه ، هنا ، عاد ، وبابتسامة متلعثمة . لم أكن اعتقد ان حركيته قد تتلعثم . وخلقت كلمة « فردوس » دوائر صمت في مكتبي . ثم قال :

ـ اذا راج هذا المخدر ، هنا ، يلغي كل المخدّرات التي بين أيدي المعارضين في الجامعة . وربما يمحو مأساتهم . . . ما هذه الرواية . . . لم تطبق كلمة سعادة الا في أوقات . . .

بعدما كان صوته واثقاً قبل هنيهات ليقنعني بهذره ، عاد صوته الآن الى حالته الأولى . كأنما لم يعد يتجاسر على الاستمرار أمامي بهذا الهذر ، بعدما انفتح موضوع زيارته . ولم تعد مشابهتي له بفولتير ، تصح بين هذا العجوز الذي أمامي ، وبين صديقي الذي كانه من زمان . وعدت أتبين جحوظ عينيه

بـالامس . . . صـار فمـه شبـه مفتـوح عـلى بسمــة ضيعت سخريتها ، وصار هو كتمثال منحن ، منفرج اليدين ، متحفز كما هر خائف لا يعرف مم ، لكنه صار عاجزاً عن الوثب . سألته :

ـ وماذا يريد زميلك ؟ يريد كاتباً يكتب عن اكتشافه ، ما كتبـه هوكسـلي وميشو عن اكتشـاف المسكالـين ؟ لا . . . لن اكتب .

ـ تكتب إن كنت تشاء . . . ليس هذا هو الموضوع . . . أو على الأقل ، استغرب ان يكون هذا هو الموضوع .

ـ التهرب من المسؤولية ـ وهو لا يبدو يتحملها كاملة ـ دون ان يحرق معادلته ؟

ابتسم ماكس ، الابتسامة المتلعثمة نفسها التي لا تفهم إن كانت سخرية ام ثعلبة .

ـ ربما . . . انما أنا لا اعرف بالتمام . طلب مني أن اقول لك ما قلته ، فقط . . .

ـ اعطني الجرعة .

ورن التلفون الوزاري الداخلي ، كما ليضع حداً لهذا اللقاء .

وتمتم ماكس فيما حمل صرته وصار على الباب .

ـ مع هذا ، أنا انسان ، من هذا الزمن الرديء . . .

بلى . . .

إنه زمن اليَمْبُس . . .



ماريان

النص كاملاً

IV

أنا وديغول
أو
السنديانات التي يقطعون

كولومبيه : الخميس ١١ كانون الأول ١٩٦٩

امحّى تعب حكم الأيام الأخيرة . استدار الجنرال ديغول ، بحركة ، على احد المقاعد الجلدية . وهيمنت قامته الطويلة ، وهي تقوست قليلاً ، على كل هذه الغرفة الصغيرة حيث تتقد قطعة من حطب . جلس بعكس الضوء ، اتقاء لعينيه وراء طاولة للعب الورق ، ذات بساط اخضر . ولم اكن ، في الايام المتألقة ، حضرت مأدبة عشاء في الإليزيه ، وسط صالون الشرف الزائد التذهيب كما قصور القرن الماضي ، الا ووجدت تلك المأدبة إلى هباء بجميع مدعويها المائتين والخمسين ، وجميع موسيقييها تحت الجدرانية الحاملة رسم « اليودور » عن لوحة رافاييل ، وكل موسيقى موزار ، وموكبها عن آخر أيام آل هابسبورغ . . . خروتشيف ونهرو وكينيدي في صالة المرايا / فرساي ، وقصر تريانون المرمّم ، المسكون بهاجس الرحيل .

فيما اشد يده محيياً ، اكتشفت كم يدا هذا الرجل العظيم صغيرتان وناعمتان . وكذلك يدا ماوتسي تونغ الحارتان ، بدتا لي يدي رجل آخر .

بعد عبارات الترحيب ، انتقلنا الى مكتب عمله . وتساءلت : هل نبل هذه الغرفة ناجم عن تلازم نِسَبها ونِسَب

المكتب ، ام عن الثلاثة الشبابيك وراءه توحي بالفسحة التي تحتلها الكتب في الحائط ـ المؤلفات الكاملة لبرغسون ، صديق عائلته ، ومؤلفاته هو ، اومأ لي اليها ـ أم عن منظر الجنرال نفسه أمام منظر كبير ، بالابيض والاسود ، للثلج على كل فرنسا ، ومقعد واحد امامه ؟

قال لي ذات يوم ، ونحن نجتاز الحديقة : « انظر . كل هذه المساحة هناك ، بقيت مسكونة حتى القرن الخامس . واليوم ، لا ضيعة فيها ، حتى امتداد الافق » .

انها حجرة القديس برنار ، المفتوحة على ثلج العصور والوحدة .

أن يتساءل أصدقاؤه وخصومه عن السبب الحقيقي لرحيله ، فأمر يدركه هو وكان أعلنه ، ولم يعد يهتم له . ففي البلاد ، تفاوت واضح بين الاستفتاء والمناطق ومجلس الشيوخ (كل جهاز المعاينة الأخيرة) ، وبين رحيل الجنرال ديغول بعد انتخابات ديغولية متطرفة . ولم يكن الجنرال مستعداً ان يجابه الا احداثاً تاريخية : اما الموت ، او السر . وكان رحيله الأول مشوشاً ، رغم ادراك الجميع انه لن يعود . لكن ما يسمى بالسياسة الفرنسية ، مكملة طريقها ، على مرأى منه ، وهو الصامت المراقب .

ـ هذه المرة ، قد تكون الأخيرة .

وتعود بي الذكرى الى الصالون الصغير في فندق لابيروز ، عام ١٩٥٨ ، خلال الفوضى العامة :

ـ يجب ان نعرف ان كان الفرنسيون يريدون اعادة فرنسا ، أم يفضلون النوم . وحدي ، بدونهم ، لن استعيدها . لكننا يجب ان نعيد المؤسسات ، ونجمع حولنا ما سمي بالامبراطورية ، فنستعيد الى فرنسا نبلها ومكانتها .

يومها ، كان يتكلم بزخم منيع ، فيما اليوم يتكلم باللهجة التي بها تحدث عن ايطاليا عام ١٩٤١ : « ألن يبقى فيها ، الا ، كما قال بايرون ، الأم الحزينة لامبراطورية مندثرة ؟ »

وحدق بي في تثاقل :

ـ حين رحلت ، ربما كان للسن دورها . انما ، افهم ان كان لي معاهدة مع فرنسا . كانت الامور ستسير في اتجاه سيء او جيد ، انما فرنسا كانت معي ، مثلما ايام المقاومة . وكان هذا واضحاً يوم دخولي باريس ، مدعوماً بموجة عارمة كانت تحمل مركبي . في لندن ، كنت رأيت توافد السياسيين والعسكريين ، ثم الفقراء بحارة جزيرة سين : فرنسا . ما اعظم الفرنسيين حين يؤمنون بفرنسا . وحين يتوقف ايمانهم بها ، تعرف ، حتماً ، عبارة البابا الشهيرة : « الفرنسيون لا يحبون فرنسا » .

المهم . .

انكسرت المعاهدة . فلا داع لأي شيء بعد اليوم . كانت المعاهدة اساسية لأنها كانت بدون شكل ، ولم يكن لها شكل يوماً . فانما دون حق وراثي ولا استفتاء ولا شيء آخر ، كان لي أن اتولى الدفاع عن فرنسا وعن قدرها . واطعت نداءها الصارم الصامت . وذلك ما ، مراراً ، قلته ، وكتبته ، واعلنته . واليوم ، ماذا اليوم ؟ » .

ها هو صار وحده ، منحنياً فوق المساحة المغطاة بالثلج . قال : « كان لي معاهدة مع فرنسا » . فلماذا قال « مع فرنسا » ولم يقل « مع الفرنسيين » ؟ مع هذا ، اكمل :

ـ لم يعد للفرنسيين طموح وطني ، ولا استعداد لديهم ، بعد ، ليفعلوا اي شيء لفرنسا . « سليتهم بالاعلام والبيارق ، وعلمتهم على الصبر بانتظار ماذا غير فرنسا ؟ »

عام ١٩١٤ ، كان له ٢٤ عاماً ، وكثيراً ما تساءلت ان لم يكن ما يسميه طموحاً وطنياً ، ليس يمتزج مع ارادة الانتقام من صباه . لكنه اضاف :

ـ حتى الانكليز ، لم يعد لهم طموح وطني .

حاول الكثيرون تحليل شخصيته سيكولوجياً . امر اجده عبثاً . فهو ثاقب الذهن ، واحياناً طيع : « ذات يوم ، سيتعلق الناس بدفوفنا لينقذوا الوطن » . لكن ذكاءه يبقى على مستوى افكاره (ما كان شاتوبريان يسميه ذكاء النفس الكبيرة) اكثر مما على مستوى الاختراق ، مع ان الاختراق ما كان يعوزه . وثمة ايضاً ، تمسك عنده بأفكاره . من هنا اعتقادي ان كبار مسيحيي القرون الوسطى ، كما القديس برنار مثلاً ، كان لهم ذكاء ذو رسالة . ومن هنا ، أنه مسكون بفرنسا ، كما كان لينين بالبروليتاريا ، وكما ماو بالصين ، ونهرو بالهند . فاول عبارة من كتابه « مذكرات الحرب » مخصصة لها ، واظن فرنسا كانت ابسط في قلبه من اميرة الاسطورة التي يتكلم عليها . وهي التي تزوجها قبل ايفون فاندرو . ومهما كانت مأساته عميقة ، تبقى قريبة من مأساة القادة الشيوعيين الذين انفصلوا عن الحزب .

والجنرال ديغول بعيد جداً عن التفكير بأن فرنسا خانته خدمة لخلفائه . لذا ، قلت له :

ـ ولكن ، في الاشياء الرئيسية التي نفذتها ، كنت دائمًا ذا اقلية . . .

وهو ، هكذا ، كان ، في ١٨ حزيران ، ومراراً مع تشرشل ، واكيداً مع فرق ايزنهاور ، وبين مظلبي ١٩٥٨ ومتظاهري الباستيل . وكان يقبل بكل هذا ، في مرح . وبالمقابل ، ما كان يفي الاستفتاء حول المناطق ومجلس الشيوخ ؟ ربما كان الفرنسيون اغبياء يومها ، ولكن ، هو ، ما فعل طوال حياته غير ارغامهم للوصول الى التعرف على فرنسا ؟

أجابني :

ـ كنت على اقلية . صحيح . وكنت اعرف ان سيجيء يوم لا اعود فيه كذلك .

تساءلت ، طويلاً ، ما يعني له الفرنسيون . ربما امراً متغيراً ، كما كل شيء عميق . وربما لهذا ، « الطيبون ابناء جزيرة سين » ، كانوا ، في نظره ، مندوبي فرنسا (وكانوا يأتون الى لندن مع الكاناك) . وكذا نظرته الى النساء القررن وضع اجهزة ارسالنا في غرف الخياطة او الدكتيلو ، رغم الخطر عليهن من رافنسبروك ، ونظرته الى حشود الضياع بعد تفريغ المراكب ، وحشود بايو ، والشانزيليزيه ، والحشود التي لاقته خلال جولاته الرئاسية ، وعلاقته ، من خلال الحشود ، مع الأجيال . . . كان يسمي فرنسيين ، جميع الذين يريدون لفرنسا الا تموت .

ومرت في بالي ذكريات خادمات بوليو الكن يستمعن من

الاذاعة الى اعلان الحرب ، ورفاقي في كتيبة الدبابات (بونو المدافع ذي الجرح ، وبراديه ذي الولد ، وليونار ذي الاطفاء ، نجم النجمات) ، ورفاقي في المقاومة السرية ، والنساء ذوات الشال الاسود ، كل واحدة أمام قبر فقيدها ، يوم كنا ندفن موتانا في كوريز . واتذكر ، كذلك ، مديرة الفندق في غراما ، ورئيسة دير فيلفرانش ، وسجين سان ميشال في تولوز الكان يشوش بلهجة منفوقية : « نحن هنا سياح » ، ورجل الغستابو الكان يدخل علينا في السجن صارخاً : « بل انتم هنا ارهابيون » . كما اتذكر اطفال رامونشان وداثماري حين اتوا ليلاً وراء معلمتهم يزرعون بيارقهم الصغيرة على تراب موتانا الأول او على موتانا المتروكين بلا قبور .

ـ هل تعتبر المعاهدةانكسرتفي ايار ، ام قبله : حين اعاده انتخابك ؟

ـ قبله . وعندها استقدمت بومبيدو .

متى ، اذن ، يقصد ؟ عند الازمة البرلمانية ؟ لدى عودته من افغانستان ؟ (عندها ، كان يجب ان يقول لي : احتفظت ببومبيدو) . لكنه لم يلمح الى زمان استقدامه بومبيدو ، لأنه غير محدد . واكمل :

ـ في ايار ، كان كل شيء يفلت مني ، حتى حكومتي . طبعاً ، تغير كل شيء حين اعلنت للبلاد انني سأحل المجلس النيابي . لكن التغير لم يدم طويلاً . كنت اجد في المشاركة وسيلة ايقاظ البلاد ، ووعيها ووجودها ، ثم هزها . لكنها كانت

اختارت . ولا قيمة للحركة إلا بنسبة الاحتمالات التي لا تجتمع قط .

ـ لم أؤمن يوماً بائتلاف رأس المال والعمل ، اي بمشاركة . . .

ـ لكنكم دافعتم عن هذا الائتلاف . . .

ـ حين تدخل في صدام مع الرأسمالية ، تكون نتائج هذا الصدام صارت غير متوقعة . تماماً كما نداء ١٨ حزيران ، او نظام الوحدات . أما الماركسية ، فامضيت وقتي طويلاً اقول لاصدقائي ديغوليي اليسار : تأكدوا ان كلمة « تجمع » ، هي ، لدى الجنرال ، رمز امله .

وكم سر ، يوم اجبت بعض السخفاء الكانوا يصيحون اننا رأسماليون ، بقولي : « ذهبتم الى الرياضات الشتوية ؟ هذا ليس من الرأسمالية ، بل المترو ». وهو طبعاً ليس مدافعاً عن الرأسمالية ، ولكنه ليس مدافعاً عن البيروليتاريا . وهو لم يقبل مشروع التأميم ارضاء للشيوعيين ، بل لأن المشروع ، في رأيه ، وسيلة لاحياء فرنسا . ومن هنا ، يتعاطف مع الماركسية حول الملكية الجماعية (وهو يقولها قومية) لوسائل الانتاج ، ولا يتعاطف معها حول تمجيد صراع الطبقات .

ـ هذا صحيح .

ـ المشكلة الاجتماعية ، حتمًا ، لم تكن زالت ، لكنها اتبعت لسواها . وهكذا الأمر ، في العالم كله .

ـ إن العدالة الاجتماعية تبنى على الأمل ، على الاندفاع

للوطن ، لا على الأحذية . الاشتراك ، والمساهمة ، والمشاركة ، رموز . ومستوى المعيشة صار علبة الأحزان في جميع البلدان ويوجه نصف السياسة العالمية ، مع انه ليس الأساس . فمجتمعنا الزراعي القديم ، حوله مجيء الفلاحين الى الملكية . وبهذا ، سيتحول كذلك مجتمعنا الصناعي . المشاركة ، كانت تلمس الطريق نحو التغيير . وانت تعلم ان فرنسا ، في تصويتها ضدي ، لم تبعد الوحدات ونظام للمجلس النيابي ، بل ابعدت خطابه في جيش الجزائر : « أما انتم ، فاسمعوني جيداً : انتم المشاركة . قلت كلمتي ، لكنها جاءت متأخرة . على انني ، سابقاً ، كنت سمعت خطابه في جيش الجزائر : « أما انتم ، فاسمعوني جيداً : انتم لستم جيشاً لمجرد الجيش . انتم جيش فرنسا » .

كما كنت سمعت خطابه حول هدم ما سمي بالامبراطورية ، وخطابه ، في ستراسبور ، وسط عاصفة مثلجة ، امام عدد من الضباط العدائيين : « اذا لا تتبعوني ، تصيرون جنوداً تائهين » . وقبلها بأيام ، كان قال لي : « يجب التخلي عن فكرة ان يهيننا او يتخلى عنا الأقربون . يعتقد الناس انني لا افقه معنى فقدان الاخوة . فهل يعتقدون انني لم اعرف ، كفاية ، طعم سم الكره ؟ سيتعلمون كثيراً بعد . انما علينا القبول لفقدان كل شيء احياناً . والا ، فالضياع يداهمنا . لأن المخاطرة ، كذلك ، لا تتجزأ » . وها هو اليوم ، يتكلم بالحزم نفسه ، لكنه واضع نفسه خارج اللعبة . أحاوره :

- لماذا ، سيدي الجنرال ، ركزت على موضوع ثانوي كما قضية المناطق والوحدات ؟ هل لعبثية المواقف ؟

ـ نعم ، لعبثية المواقف .

وعجبت من مدى كونه ماضي فرنسا ، هذا الوجه البدون عمر تماماً ، كما ، خلفه ، هذه الغابة المغمـورة بالثلج ، التي باتت رفيقة عزلته .

ليس من شارل بلا « مذكرات » ، انما لن يستفيض تماماً ، في حديث معه . كان يعبر عن قدر ، وما يزال ، حتى حين يعلن طلاقه مع القدر . فاللحظات الحميمة ، معه ، ليست في كلامه على ذاته ، مما يكره كثيراً ، انما في الكلام على فرنسا (في شكل ما) او عن الموت .

وعاد الى مخاطبتي .

ـ أحسنت بعدم الاستقالة غداة مغـادرتي الايليزيـه . كان الجميع يعرفون انك ستترك الوزارة .

ـ التشريع ينص على أن خلفك ليس حكمًا رئيس المجلس النيابي بل مجلس الوزراء . مجلسك انت . وكان يمكن ، قبل الانتخابات ، حصول امور مفاجئة عديدة . ولم يكن واقعياً ، على أي حال ، أن . . .

على أن ما لم يكن واقعياً ، بدأ قبل ذلك . واتذكر آخر مجلس وزراء في رئاسة الجنرال : مشاريع مراسيم غير مهمة ، قبول احـد المدراء محـالاً على التقـاعد ، واتصـالات . وكان وزيـر الخارجية سكت طوال قبل الظهر .

انتصب الجنرال واقفاً :

ـ وهكذا ، يا سادة ، نكون انتهينا . فالى الاربعاء المقبل ،

الا اذا . . . وفي هذه الحالة ، تكون انطوت نهائياً ، صفحة من تاريخ فرنسا .

وانها ، فعلاً ، انطوت .

واستعدت الكلام معه :

ـ في اول جلسة للمجلس النيابي بعد رحيلك ، وجدت نفسي وحيداً في مقاعد الوزراء ، مع كوف ده مورفيل ، في رئاسة شابان دلماس ، ذلك اليوم الشاحب المشهور : لم يتجاسر نائب على الدخول اول .

وهنا ، ايضاً ، كان النور غير واقعي ، بسبب انعكاسه على الثلج . وانني اعرف جيداً هذا النور الابيض ، لأنه يغير الوان اللوحات . انما لا لوحات هنا . وعلى المكتب ، اصطفت اوراق مخطوطة ، هي « مذكراته » حتماً ، في خطه المائل صعداً .

ـ تكتب تتمة مذكراتك ، وكتاباً إيديولوجياً ؟

ـ اكتب مذكراتي من ١٩٥٨ الى ١٩٦٢ . ويلي ذلك جزآن آخران .

ـ ولا عبور في الصحراء ؟ ـ لا سمعتم عن ايديولوجيا ، لأنني لا اكتب نصاً ذا تسلسل تاريخي . تماماً ، كما في « مذكرات الحرب » : اقول ما فعلت ، وكيف ولماذا .

ولمعت في بالي ذكرى اوتيل لابيروز عام ١٩٥٨ . أما هو ، فأردف :

ـ ما أغرب التصارع الى هذا الحد ، كي تنتشل منا ، ما نود

كتابته ، فيها الأمر سهل جداً اذ نتكلم . كانت كوليت تقول : « اللغة الفرنسية صعبة ، خاصة من حيث النعوت والصفات » . لكنها مخطئة ، رغم موهبتها : عبقرية اللغة الفرنسية ، في الافعال . ولكن التحرر من هوس الكتابة ، امر . . .

وهو في هذا يلمح الى التركيب الثلاثي الكان يسكنه ويزعجه . ولم يكن تخلص منه بعد . قلت له :

ـ قيل لي انك تنوي نشر كل ما القيته منذ ١٨ حزيران من خطابات ومؤتمرات صحافية .

ـ جميعها ، عدا ما كنت اقوله لعمدة المدن في الطرقات . ومن الجيد اعطاء الاشياء تواريخها .

ـ قد يكون التأثير الجامع ، فردياً ، لأن اقوالك في لندن ليست خطابات بل مسارات موجهة الى جموع غير منظورة . فيوم اذاعت لنا الاذاعة كمية « الرسائل الشخصية » التي اعلنت حتمية الارساء ، رحت افتكر الخطاب الليلي الذي القاه رودريغ في « حذاء الشيطان » : « ايها الضباط ، ورفاق السلاح ، والرجال المتجمعون هنا ، . . . »

لم أكمل له الباقي ، لكنني استعدته في ذاكرتي : « . . . ايها الرجال المتجمعون هنا ، الذين تتنفسون حولي في غموض ، وسط العتمة ، وجميعكم سمعتم بالرسالة الى رودريغ ، وبتلك الرغبة الطويلة بين تلك المرأة وبيني ، وهي راحت مثلاً يضرب ، منذ عشر سنوات ، بين العالمين ، انظروا اليها ، كما اولئك الذين باعينهم ، المغمضة اليوم ، نظروا الى كليوباتره او هيلين ، أو ديدون ، او ماري ملكة اسكتلندا . . . » .

عملياً ، لن يكون لنا ان نرى اي شيء من الاستعداد المداهم في ذاك الفجر الكنا على موعد معه . منذ زمن ، والكان ، لنا جميعاً ، سيشبه القدر .

وفيما ابيات رودريغ تذوب في ذاكرتي ، قلت للجنرال :

ـ ما يميز اقوالك الملقاة ، هو بعدها عن الخطابات . (حتى المؤتمرات الصحافية كانت وسيلة مجددة للتعبير) . فالكاتب نفسه ، لا يعرف جيداً قراءه . بل إنه مثلك ، يثيرهم لكن كل كاتب كبير مرتبط نوعاً بسابقه ، فيما كلماتك الملقاة لم يكن لها سابق . عدا واحد فقط : هل تتذكر فيزلاي ، وكيف الفرسان ، تحت ، كانوا ينصتون الى القديس برنار الكان ، حتماً ، يخاطبهم دون مكبر صوت ؟ وبعدها ، فوراً ، انطلقوا الى الحملة الصليبية . ومع هذا ، ثمة ، عندك ، دائماً مفاجآت . فانا لا اذكر مصادفتي ، في « مذكرات الحرب » ، عبارة تقول : « طبيعي ، ومبرر ، ان يقتل الفرنسيون الألمان في فرنسا . وما على هؤلاء الا البقاء في بلادهم » .

ـ صحيح . وحين انتهى من الكلام على المؤسسات ، سيكون لي اقول كلاماً آخر . واذا كنت اكتب ، فلأن من ينتظر ليعرف بم افكر وماذا فعلت . وسأقول كل شيء . حتى الذي حدث من قبل .

انني اعتقد ان الرجال يصنعون المؤسسات اكثر مما اعتقد العكس . لكنني اعرف ان هذا الكتاب ، وريث « مذكرات الحرب » ، سيكون اختصاراً رومانياً للاحداث ، مبسطاً ، (ذاك التبسيط الذي ، به ، في الأدب كما في الهندسة المعمارية ،

فرضت روما ، وفي قوة ، نظامها) ونسياناً لكونه فرض بالقوة ، ما كان يريده . واذ هو لاتيني ، لا روماني ، يعني أن النتيجة عكسية تماماً . وأجابني :

ـ أحب رواية « الفرسان الثلاثة » ، كما ، كذلك ، روايتك المحببة « الهر المحتذي » . لكن نجاحهم ، في كون الحرب مع انكلترا لا تدين بشيء لسياسة ريشليو ، بل لاطراف الشريط في حذاء آن ملكة النمسا ، والذي عقده لها دارتانيان . هكذا الناس : يريدون ان يشبههم التاريخ ، واقله ان يشبه احلامهم . ومن جيد الامور ، ان لهم احلاماً كبيرة .

ـ ثمة قطاع ، في الادب ، لم يعزله النقد ، لأنه يمزجه مع ادب المذكرات ، هو قطاع الكتب التي تروي ما فعل كتابها ، لا ما أحسوا . فالمذكرات ، غالباً ، استعادة للعواطف والاحاسيس . بينما سرد تنفيذ مصير عظيم ، يفترض هموماً اخرى . ولو كتاب « حرب المغول » لم يكن من وضع القيصر ، لما كان الكتاب افضل او أسوأ . لكنه ، ما كان ليكون من المناخ نفسه . ولو « كتاب المذكرات » كان فقط ذكريات ، دون ان يكون فيه كلام لنابوليون ، لكان كتاباً آخر . كثيرون هاجموك وكثيرون احبوك وقدروك . ولا اجد سوء تفاهم في الموضوع . فـ« مذكرات الحرب » لا علاقة لها مع « مذكرات ما وراء القبر » ، وكذلك بي ما انت تكتبه اليوم . فالوسائل ليست موجهة دائماً من غاية واحدة .

في رأيي ، « مذكراته » ـ سواء نصها في صمود فرنسا خلال محنة ١٩٤٠ ، او في امل ١٩٥٨ ـ هي تراجيديا ذات بطلين :

هـو والفرنسيـون . في الحرب وفي السلم ، تبقى فـرنسا هي الرهان . ومراراً ، قومها ، ضد اكثرية الفرنسيين ، وهو يحس تجاهها ، بفخار داخلي عظيم . فهل كان يأمل ان يفهم التاريخ موقفه في ما بعد ، واليوم تخطى هذا التفكير وسواه ؟ انني احلم باوديب جديد يخبرنا عنه سـوفوكـل كيف اقام شيبـا ، ورغم الثيبيين . في كرونشتات ، لاقى لينين وتروتسكي المأساة نفسها ، لكنهما حلاها : أقاما البروليتاريين ضد البروليتاريا . صحيح ان ديغول ذو حزم نادر ، انما ، هو انسان نابض ، وليس شخصية مسرحية .

قال لي ذات مساء : « ان لم يكن الأمر غير التصفية ، فاية حاجة كانت لهم مني ؟ لاغلاق كتاب كبير في التاريخ ، كانت تكفي الجمهورية الرابعة . وهو ، في مذكرات الحرب » ، يفصله خجل صامت ، عن الجوهر الاسـاس ، الذي لا يخـطىء به قط . من هنا قوله لي ، خلال احداث الجزائر ، بعد عودته بايام : « تعرف الكولونيل لاشْرْوَا . انا لا اعرفه ارسله إلـيّ . وكان ذاك الكولونيل ، يومها ، احد الرؤساء الرئيسيين في قسم السيكولوجيا ، ونوعاً من وزيز الاعلام المحلي ، وذا مؤتمرات صحافية لافتة . وما هي حتى كان في ماتينيون . وها الجنرال يصغي اليه ، ثم ينهي لقاءه معه بجملة يتيمة :

- عظيم . انما ، من الآن ، يا لاشْرْوَا ، افهم جيـداً ان فرنسا لا يدافع عنها ضد ديغول » .

وباشارة من هذا الأخير ، كان الكولونيل خارج الغرفـة ، فالتفت الـيّ الجنرال :

ـ حين تكلمت في الجزائر ، فهم كل واحد ان فرنسا هذه المرة ، هي التي تتكلم . وبعد صمت وجيز اردف :

ـ ما أردناه ـ ولماذا ، بيني وبينك ، وحدنا ، لا نسميه باسمه الحقيقي : العظمة ـ لكنه انتهى . آه فرنسا ! لها بعد أن تدهش العالم ، إنما لاحقاً . وستحول في كل شيء . وستفاوض الجميع : الاميركان والروس ، والالمان والشيوعيين . ولعلها بدأت ، ويمكنها الاستمرار ، الا اذا طرأ حدث مفاجىء ، لا تنتظره فرنسا ولا يتوقعه الآخرون . فهل يستمر ذلك ؟ لا أتوقع . وسترون . قد يشل البرلمانيون كل تحرك ، لكنهم لا يجدون التحرك . كانت فرنسا نهضت ضد البرلمانية ، وستنقض عليها وتصارعها ، كما ، تماماً ، حين حاولت الحصول على قبول بصفقة المصفحات .

ـ لكن هتلر مات .

ـ البلاد اختارت السرطان . ما استطيع ، بعد ، لها ؟

لم يرض يوماً بالخلط بين البلاد والسياسيين . لكنه ، هنا ، قال : البلاد ، ولم يقل : السياسيين .

العظمة انتهت ؟ ها هو عمر فرنسا على أساس الايمان . وليس للايمان غير معنى ديني . وإلا فكيف استطاع القديس مارتان المنغاري ان يؤنجل مقاطعاتنا اللوارية ؟ وكيف استطاع الانجيليون الايرلنديون ان يؤنجلوا المانيا ؟ لم يكن يكفيه إيمانه بفرنسا ، ليكون الجنرال ديغول ، ولكنه ، ما كان بدونها ، ليكون غير منتصر دخيل بين الحقيقيين ، أو منكسر على بعض بطولة . صحيح ان نابوليون ، مهزوماً ، انهار تحت انتصاراته

السابقة ، لكنه مسكون بذاته ، لا بفرنسا . من هنا ، ايجادي في الجنرال ما سميته برئيس رهبانية . فإذا تخلت عنه فرنسا راح يجوب وحدته الميروفنجية فوق كليرفو ، دون ان يمر ببال الانحياز نحو خدمة الامير التركي . فعلاقته مع فرنسا ، لم تكر علاقة بسيطة . ها هو ، بالأمس ، يقول للصحافيين : « ان كنت فرنسا » . وكان يحكي عن الماضي . وها هو يقول لتشرشل : « لو لم اكن فرنسا ، ما دوري هنا ، في مكتبك » ؟

بعد ندائه الشهير ، لم يكن احد مؤمناً بأنه كان ، حقاً ، فرنسا ، حتى هو نفسه . لكنه قرر ان يكونه . وحين قال للفرنسيين المسحوقين ، وللعالم المدهوش : « فرنسا موجودة » ، من الآه كان يتجاسر على هذا القول ؟ سياسيو الجمهورية الثالثة ، لم يكونوا يؤمنون به . والمارشال بيتان كان حامي للاطلال ، لكن حمايته ما كانت لتغني ان فرنسا وجدت بقدر ما ان فرنسا لم تعد موجودة . من هنا ، شعور الجنرال بأن احتضار فرنسا لم ينشأ من ضعف مبررات الايمان بها : الهزيمة ، الديموغرافيا ، الصناعة ، . . . بل من عقم الايمان بأي شيء كان . وذات يوم ، قال لي : « حتى لو كانت أكاذيب ، جميع المبررات التي تصوغها الشيوعية للروس كي يؤمنوا بروسيا ، فالشيوعية ضرورية لروسيا لأنها تصوغ مبررات » .

في الاطار نفسه ، سألني نهرو : « اليس من الضروري ، في آن معاً ، ان تكون أرجلنا على الأرض ، والا تبقى رؤوسنا على مستوى الارض ؟ » ان كلمة « عظمة » ، التي استعملها الجنرال غير مرة ، والتي استعادها آخرون بعده ، معه او ضده ، انتهت الى معنى الأبهة ، وتحولت تعبيراً مسرحياً من التاريخ . ولكن

مجلس الوزراء هذا ، ليس في فرساي ، وفكرة العظمة عند الجنرال ، غير منفصلة عن الزهد ، كما لاحظ زوار الايليزيه .

ذات يوم ، همس لي الشاه : حين التقيت الجنرال ، مرت اولى ، في طهران ، كنت يافعاً . سألته نصيحة ، فأجابني : « ستعرض عليك حذاقات كثيرة . ارفضها جميعها . وخذ مني عرضاً واحداً تعمل به : « ضع كل طاقتك لتبقى حراً » . وغالباً ما ردد عنه قوله : « ان تكون كبيراً ، يعني ان تحتمل صراعات كثيرة » . وكان يردد لي : العظمة طريق نحو هدف لا نعرفه سلفاً » .

وكم مرة كرر قوله : « حين تدلهم الأمور وتتعقد ، وتريدون اخذ القرار ، انظروا الى القمم ، انها بدون تعقيد » . وعلى عكس ما يظن اصدقاؤه وخاصة خصومه ، ليست العظمة ميداناً يظن نفسه امتلكه ، بل ميدان يخدمه لكي يعيد له ذلك الميدان الخدمة نفسها . هكذا ، كان القديس برنار في خدمة المسيح ، وكان ينتظره كثيراً . العظمة عند الجنرال ، كان وحده ، انما لم يكن فيها وحيداً .

سألني :

ـ وماذا سأفعل في ذهابي الى جادة بروتوري ؟ ربما لي رابط مع الشقاء ، لا مع هذا العالم الجميل .

ـ بل مع التحرير ، ومع عشر سنوات من قيامة فرنسا .

ـ ان ما يجري ليس الشقاء . ولن يمكنني ، للمرة الثالثة ، الامساك بفرنسا من شعرها في اللحظات الأخيرة .

ـ الا تظن انك ، في انعزالك الى كولومبي ، ستصبح دون حزم مباشر ؟

ـ يعني . . . لن اخرج عن صمتي الا حين يصير الوطن مهدداً فعلاً . يجب ان يعلم الجميع ـ وهنا اتكل في ذلك عليك ـ انني غريب وبعيد عما يجري ، بل هو لا يعنيني في شيء . ليس هذا ما أردته ، بل شيء آخر . لا مأخذ لي على احد . المأخذ ضعف . لكن الصفحة طويت . ومرة اخرى ، سيصار الى متابعة مراحل الآخرين على الخارطة .

أحسست ان غياب قدر كبيرة ، تهمة لا يوجهها الى اخلافه ، بل الى العالم اجمع . ثم عاد الى الشرح :

ـ الرئيس نيكسون قطف تصفيقاً كثيراً ، لأن آسيا ما زالت تؤمن بالسلم الممكن . لكنها لم تنته بعد من الأحزان . فالهدف الكبير نفسه طويل . من هنا ، لا اعتقد ان للولايات المتحدة ـ رغم قوتها ـ سياسة طويلة المدى . رغبتها ، وقد تصلها ، ان تنفصل عن اوروبا . وسترى . بينها روسيا ، تريد كسب الوقت . على أن فرنسا ، لم تعد ذات اهداف . وأنا لا اكتب لمن سيقرأونني . ما زال الوقت باكراً عليهم . غداً بعد موتي ، ستشهدون عودة الاحزاب ونظامها البائس ، لكنها في النهاية ، سيعانق بعضها بعضاً .

ـ قلت لي يوم جاء فوستر دولس : « لن يكون ثمة غرب » . ليس ضرورياً ان تكون اوروبا هي الغرب ، ولكن فلتحاول ان تكون هي ضد الغرب .

ـ ومتى الفرنسيون فهموا فوستر دولس ؟ كانوا معي

وأشاحوا . ليسوا مطلقاً مع الآخرين . . .

الآخرون . . . حين كان تروتسكي يذكر ستالين ، يسميه « الآخر » . ذات يوم ، كنا نتحدث وحدنا ، أنا وتروتسكي ، في رويان ، داخل بيته الكان يعج بالمناصرين ، وعلى بيته كدسات الصحف . انما هنا ، لا تأتي الوحدة من كوننا وحدنا . لذا ، اظنني فهمت تعب الجنرال الممزوج بهدوئه المشع . لكنني لم اتوصل بعد الى معرفة مصدر هذا التعب . اتذكر جلسات مجلس الوزراء التي عقبت اتفاقات ايفيان ، وكان المفاوضون ختموا تقاريرهم . كان من عادة الجنرال أن يبدأ بإعطاء الكلام الى اصغر الوزراء سناً . لكنه عبر من اليمين الى اليسار ، داعياً إياي الى الكلام ، ولم تكن تلك صدفة ، فقلت ان التعويض على فرنسيي الجزائر يكلف اقل من حرب طويلة ، انما المطلوب ، قبلئذ ، معرفة ما اذا كان حضور فرنسا في العالم ، مؤاتياً لهذه الحرب .

دافع ميشال دوبريه في حماس ، عن وجهة نظره ، فيما جاك سوستيل دافع بمرارة . فهذه المرة ، ليس الموضوع عبور الشانزيليزيه ، بل لعبة رئيسية تمر تحت طاولة اللاعبين . تكلمنا ، في حضور الجنرال الصامت ، منفصلين ، حتى اذا انتهينا ، بعد بحث ساعتين ، قال الجنرال :

ـ ان مصير فرنسا لا يتوافق حتماً مع مصالح فرنسيي الجزائر .

اذن ، كانت انتهت حرب الجزائر ، لتبدأ هجومات المنظمة الجزائرية .

ذات يوم ، اكد لي لويس مارتان شوفييه ان الجنرال قال له عام ١٩٥٨ : « سنترك الجزائر » . أما لي ، فقال : « ستبقى الجزائر فرنسية ، كما فرنسا بقيت رومانية . انما كونوا حذرين » . كان يريد ، بأي ثمن ، الوفاق ، وكان متأكداً من الحصول عليه . هل اخطأ ؟ كنت اعرف انه من الحديد الحامي على النار ، سيضرب حديد فرنسا ، فيعطيها الشكل الذي يريده لها . وكنت ، خلال مفاوضات ميلون ، سمعته يقول : « هذا لا يعجب ميشال دوبريه ؟ وهل تظنون أنه يعجبني انا » ؟

اذا كان الأمر كذلك ، لماذا اختار ان يحول الاستفتاء المرحلي الى خلاف نهائي ؟ جاءت العقبات المعيقة مشاريعه تحدد له حدود سلطته ازاء سلطة البلديات ، لكنه كان مهيأً لمعركة اخرى اضافية .

وكما لو ان أفكارنا الصامتة كانت تتحاكى ، سألني :

- هل تعلم بأن جراذين الأسواق ، ارتحلت الى رونجيس ؟

فوجئت بهذه الجراذين تهاجر الى رونجيس كما لو ان عبقرية الفئران علمتها هجرة الاسواق . هل هذا الرحيل ذكرني آخر احتفال للحكومة الانتقالية ، عند قوس النصر ؟ يومها ، راحت الطبول تقرع المارسيلياز ، وفر في الجو سرب حمام تفرق في الهواء . . .

- هل تقرأ الصحف ، سيدي الجنرال ؟

- أوه . . . العناوين الكبرى . . . قلت لك . . . لم تعد لي علاقة مع المتغيرات . . .

ـ حتى تلك التي تجري في العالم؟ بالامس ، كنت احاول فهم الحماس المحيط بك في البعيد . في كندا ، في رومانيا ، في أميركا اللاتينية . . . وفي شيراز ، لم يكونوا يحددون فرنسا على الخارطة . لم تجد بهم اية دعاية ، ولا حتى التي اشتعلت مع رحلة خروتشيف . اود ان اعرف ماذا عنيت لهم . كان بعضهم يهتف بحياة الشاه ، والبعض الآخر بحياة روبستيم (شخصية فارسية قديمة) . اذن كنت تجسيداً لأحد ابطالهم القدامى . فماذا كان يعني الجنرال ديغول لناس يهتفون له ؟

ـ وهذا ما حصل في اندونيسيا اما في اميركا اللاتينية فالأمر مختلف . ولماذا لا يحبني الاسبانيون ؟ انهم يحبون دون كيشوت . لكن العالم تغير . وحتى في فرنسا ، ايام العز ، لم تكن تستطيع قطف الحب العام من الناس .

ـ سلفك ، في فرنسا كما في ايران ، ليس رجل سياسة . حتى ولا كليمانصو . ربما فيكتور هوغو . . .

ـ تعرف ؟ خصمي العالمي الوحيد : تان تان . نحن الصغار الذين يفرون من مكائد الكبار . تساعدني قامتي على الا يروني .

وارتاحت ضحكته الخفيفة على كتفيه . ذات يوم ، قال لي آينشتين حول غاندي : « إن مثال حياة متفوقة معنوياً ، مثال لا يقهر » .

في هذا المعنى ، حياة الجنرال ديغول ، الرفيعة ، ليست متفوقة معنوياً . فما الذي يجعل منه شخصية اسطورية ؟ ليس ضابطاً كبيراً ، ولا قديساً . وليس بطل حرب كما كان كليمنصو . سياسي كبير؟ ولكن ريشليو وبسمارك ليسا

اسطوريين ، وكبار السياسيين ليسوا اسطوريين . قلت له ان فرنسا ليست عقلانية ، ولا هو عقلاني . طبعاً ، ثمة في مجده غير عنصر عقلاني : فهو قائد التحرير ، والمنتصر المنفرد ، والمتمرد ، وصاحب قيامة الطاقة الوطنية ومن ثم قيامة الأمل ، حتى عام ١٩٥٨ . وهو الوحيد الكان جديراً بمواجهة الكارثة ، لا لأنه قادر على تحقيق « الوحدة الوطنية » على طريقة بوانكاريه او دوميرغ ، لكن لأنه كان يحمل فرنسا فيه . إنه نوعاً ، كما النبي ، طبعاً ، ثمة موهبته : فحين يخطب في الجمعيات الوطنية لبريطانيا العظمى او الولايات المتحدة ، يخطب كما فرنسا ، رؤساء الجمهورية الرابعة ربما ما كانوا خطبوا اسوأ ، انما ما كان الانصات اليهم احد .

حواره مع السياسيين كان دائمًا حوار طرشان . والملكيون الكانوا يتصدون ، في كتاباتهم ، لدانتون ، ثم لسان جوست ، لم يكونوا جميعهم اغبياء ، وايديولوجياً اكثرهم كانت اقل ضبابية من ايديولوجيا سان جوست . لكنه ، هو ، لم يكن يتحدد بايديولوجياً ، بل بمقصلة ستراسبور وبفلوروس . وحين كان سياسي يصرح بـ « ما كان على الجنرال ان يفعل » ، لم يكن دائمًا مخطئاً ، انما لم يكن رأيه مهمًا ، تماماً كما الايديولوجيا الديغولية . وما كنا غالباً سمعناه عما يسمى غير مشروط (لأن الانصياع لستالين ومحاكمه كان مشروطاً ، هو هو غير العقلاني . ثمة اناقة الأعمال وهي غير أناقة الاقوال . منها نداؤه في ١٨ حزيران . ومنها تأثيره السحري في العالم ، تأثيراً غير سياسي . فمن يعرف اسماء خصوم الجنرال في المكسيك او شيراز ؟ وما تأثيرهم هناك طالما انهم هناك ، لا يعنون شيئاً ؟

هل واضح ما كان يعنيه الجنرال ديغول للفرنسيين اتباعه ؟ وان يكن . انه واحد ممن لولاهم لكانت فرنسا غير ما هي . ولكن بالنسبة للآخرين ؟ انه ، بالنسبة للعالم الثالث جسد الاستقلال في المطلق ، لا استقلال فرنسا وحدها . نظم فرنسا الامجاد الكان يحبها الكثير من الأمم . وهو كان المدافع عن افريقيا ، وعن فيتنام . اعاد لفرنسا قوة مرتبطة به ، وخاصة بضعفنا . استمعنا اليه ازاء الجبابرة ، لأنه لم يكن يهدد احداً . انم لا شيء من هذا ، ولا كل هذا ، يفسر حماس ايران ، وتقدير ماو ، ولا حتى ذاك المعلم المكسيكي الذي قال لجوكس الآتي يزور متحفه الصغير : « الوداع ، يا خادم البطل » ، وطبعاً ، لم يكن ذاك المعلم المكسيكي يدعو ديغول هكذا ، لايمانه بسياسته ، بل لأن الشخصية التي يصفها بالبطل ، تنتمي الى الميدان الاسطوري . من هنا ، ان فعله لا يتأتى من النتائج التي يبلغها ، بل من الأحلام التي يجسدها . فبطل التاريخ ، اخو بطل الرواية . والفارس البطل ليس فارساً المانياً مرتزقاً في خدمة فرنسا . مثلما الصلب يمثل رفعة التضحية . طبعاً ، بطل التاريخ لا يفعل بهذا الوضوح ، ومجده يقوم على العواطف التي يثيرها . من هنا ، مجد الاسكندر بديهي (وهو اكبر غاز للعالم الغربي) لا مجد القيصر . لكن مقتل القيصر يجعله بطلاً . واذا انكسار نابوليون لا يلغي اسطوريته ، فلان جزيرة سانت هيلين جعلت منه رفيق بروميتيه . وهو صار نابوليون حين لم يعد بونابارت ، كما ميكالانج صار ميكالانج حين لم يعد السيد بووناروتي . والجنرال ديغول يصير الجنرال ديغول حين لا يعود شارل . فالشخصية ليست فرداً .

فيكتور هوغو ليس فكتور مجمّلاً . ربما الجنرال ، لهذا ، حين كان يذكر التاريخ ، يذكر نفسه بـ « ديغول » . وفي شيراز كما في المكسيك ، الجنرال شخصية اسطورية كما احدى شخصيات الكابيلاسيستينا في الفاتيكان . . . مراراً حدثني عنه ماو ، اكثر مما حدثني عن فرنسا . ذلك ان الجنرال لا يفصل عن القوى التي تبدو حوله كما حول قدر . اصدقاؤه وخصومه معاً ، يجدون فيه ساحراً ، كما جاندارك في محكمة روان .

اتذكر ، مرة اخرى ، آينشتاين اذ قال لي والكمان على كتفه : « لن يكون لكلمة تقدم اي معنى ، طالما ثمة بعد اطفال بؤساء » . وهذا ما وصفه دوستويفسكي بمأساوية اكثر : « اذا تغاضى العالم عن تعذيب طفل بريء ، استقيل من العالم » . وذات يوم كتبت ان اقل عمل بطولة ليس ذا غرابة ، أمام تعذيب طفل بريء . واعود بالذكرى الى وجه برنانوس حين قلت له عن معسكرات الإبادة : « ان الشيطان عاد الى العالم » . ومقاومتنا جابهت هذه المعسكرات . لكننا نحن الفرنسيين ، نجد ان الجيش الفرنسي حتى حين اندحر ، كان اقوى جيش في العالم منذ ١٩١٨ . فهل كانت القيامة على مستوى الكارثة ؟ لا تعابير عسكرية تترجم ذلك . انه نموذج انساني لا اسم له ، لكنه قد يلعب في التاريخ دوراً فردياً كما بطل او قديس . انه الرجل الذي يفر من القدر . وربما هذا هو تحديد الرجل الاسطوري .

وضع يده على الصفحة التي بلغها في كتابة مذكراته ، والتفت اليّ :

قل لي ، مالرو ، هل فائدة من كل هذا ؟

اصدقاؤه جميعهم كانوا توفّوا ، واكثر اصدقائي ، ثم اكمل :

ـ ولم الكتابة ؟

ـ ولم الحياة ؟ تعرف قول الباغافاد غيتا : « وما فائدة الحكم ، وما فائدة الفرح ، وما فائدة الحياة » ؟ . . .

تأملت لوحة الثلج أمامي ، وأردفت :

ـ سيدي الجنرال ، ولِمَ يجب ان تعني الحياة شيئاً ؟ في سنغافورة ، صادفت أحد اصدقائي القدامى . كان أدار التعليم في الهند الصينية ، وراح يجمع الفراشات منذ عرف انه سيموت كان يقول لي : « أحياناً ، أضع نفسي من وجهة نظر الفراشات » . لها ٢٦٠ مليون سنة ، ومعدّل حياة الفراشة شهران . تعرف مناطقها في ماليزيا ، وجزرها . إنها حتماً تتبادل في ما بينها أحاديث الفراشات : الزهرات غادرت الأشجار لتقدّم قرابين أو لتزيّن شعر الصبايا . البشر توافدوا واقتتلوا . تأكد ان الفراشات لا تؤمن من البشر إلا بالنساء لأنهن لا يقتتلن . وهي تقول في ما بينها انها هي هي فراشات منذ آلاف السنين ، بينما البشر ، قصصهم . . .

ـ وتاريخ البشر ؟

ـ قصصهم تبدو هذيانية وغير منطقية . إذا لم نع الكون مرتبطاً بالانسان ، تصير البشرية مغامرة بين مغامرات . يومها ذكرت لصديقي نصاً هندياً مقدساً ، فيه ، بعد المعركة ، « تأتي

الفراشات فتحطّ على المحاربين القتلى وعلى المنتصرين النائمين » .

ـ جميلة هذه . . . وأجد ان الفراشات يمكنها ترك في الحياة البشرية انقلابات . . لكنها لا تجيب عن السؤال الذي طرحته . بل هي تلغي السؤال .

ثم عاد الى السؤال بلهجة ساخرة تشوبها مرارة :

ـ ولماذا على الحياة ان يكون لها معنى ؟

فكرت كم من الناس في كم من الأجيال طرحوا السؤال نفسه في الغرف المظلمة داخل المدن المحرّمة أو تحت سماءٍ ضمت ملكات بابل وعبيد روما الكانوا يشاهدون أطفالهم يموتون .

ثم هز كتفيه خفية ، وسأل :

ـ وما جواب الفلاسفة عن ذلك ، منذ بدأوا يفكرون !

ـ ألا يخص السؤال ، بالحريّ ، الأديان . إن كان لا بدّ من معنى للحياة ، فلأنه وحده يمكن ان يعطي معنى للموت . تعرف عبارة أينشتاين : « أغرب . الأغرب ، ان يكون للعالم معنى » . إنما ليس ضرورياً ان معنى العالم هو معنى حياتنا . وإذا حضارتنا ليست الأولى تنكر خلود النفس ، فهي الأولى لا تقيم أهمية للنفس .

ـ لماذا تتكلم كمؤمن وأنت لست مؤمناً .

ـ رينان لم يكن غبياً .

ـ بلى ، أحياناً .

ظن اني مؤمن على طريقتي وأنا أجده غير المؤمن على طريقته . مرة قال لي : « ثمة تعزية دينية ، وليس من فكرة دينية » . وهذه فكرة لم يقلها حتى الهندوسيون الذين يعتقدون ان الفكر البشري يطوف تائهاً على سطح القداسة . لكنه يريد قول ما تقوله الهند . وتعزيته ، ليس قبر ابنته (وهو يهمه اذ قال لي مرة : « سأدفن هنا مع آنّ ») ، بل ما يتفق لديه مع اضطراب النفس التي يخلط الفكر بينها وبين اضطرابها . والتفت إليّ :

ـ الموت ، هل تعرف ما هو الموت ؟ .

ـ إله النوم . لم يهمني الموت يوماً . ولا همك أنت . كلانا ينتمي الى جماعة من الناس لا يهمّها أن تموت ولو قتلاً . مع أن علاقتي بالموت ليست ذات وضوح . حين اسندني الألماني الى الجدار في غراما ، لم أكن أفكر باعدامي . إنما في هجمة تلال بارير (أنت كنت على التلة المقابلة ، أظن . . .) كانت قذائف الهاون وصلتنا بصوتها الذي كأنه يبحث عنك . أحنينا رؤوسنا ، وأكملت أنا رواية النكات . فجأة ، كان دويّ قَصَفَ حزامي اثنين، مما يدل على خطورة الاصابة إذ كنت منبطحاً . عندها ، سكتُّ. لماذا ؟ ربما لأننا لا نتكلم مع الموت . . على ان الذكرى اللافتة في هذا المجال ، باقية من أسبانيا ، وأوجعني ان استذكرها في فيلمي . كانت طائرات الرصد الإيطالية تغير علينا . رحت أطلق النار ، فأصبت طائرة سمعت منها صرخات هلع . فجأة ، مرت غلة على عين البندقية التي اطلق منها النار على الإيطاليين الكانوا مستحكمين اطلاق النار علينا . ذلك أن النمل أصمّ ، وكذلك الناس في ناحية . إنما، عند تصوير الفيلم ، كانت النملات تهرب تحت أصوات الانفجارات . ولم

ينجح المشهد إلا حين فتقت لأحد التقنيين فكرة ان يضع العسل على منظار البندقية . من هنا ، يقول الاسلام معصرناً القرآن : هل الحشرة التي تـدهسها سيّـارة على الـطريق ، يمكنها وعي المحرك ؟ .

هنـا قفـزت قـطة رمـاديـة الى المكتب . عجبت من أين وصلت ، والباب موصد . . . فقال لي الجنرال وهدباه محنيان :

ـ هل تعلم ان في مبنى الأمم المتحدة قطة سوداء لا يجسر أحد على طردها ؟ حين يحتدم المندوبون في الكلام على مصير العالم ، تمر لتعيد الأمور الى نصابها .

وكأن الهرة احست بالموضوع ، فتقدمت منه . وسألتُه :

ـ سيّدي الجنرال ، هل تحسن ألا تفعل شيئاً ؟

ـ سَل القطة . نقوم بنزهات معاً . ليس من يفرض على نفسه نظام فراغ . لكن هذا الفراغ ضروري . الحياة ليست العمل فقط . فالعمل المتواصل يؤدي الى الجنون ، تذكّر : من كان من مساعديك دائم التفكير بعمله ، لم يكن هو الأنجح .

وراح يداعب القطة ، فسألته :

ـ أحد كبار المفكرين الذين عرفتهم ، مات بالسرطان وهو يقول لبولان : « ما أغرب الموت » . انما الأصعب ، موت من نحبّ . . .

استدار فوراً صوب مقبرة كولومبي ، وهي لا تبدو جيداً من مكتبه . كان الثلج يتسـاقط وراءه . اعتقد ان ابنتـه مدفـونة فوق . بعد برهة صمت ، أجاب :

ـ موت من نحبّ ، نفكر فيه بعد مرور فترة ، بشعور عذب لا يفسّر . . .

لم يكن حدثني عنها قط ، إلا تلميحاً . منذ كان في لندن . ويتمشى بها ممسكاً يدها ، كان يفكر إن لم يكن ولد في مواجهة الشقاء . ثم اردف لي :

ـ ليس صحيحاً ان أعمق التجارب هي التي تهيمن على حياتنا . ربما في العمل . أما خارجه فلا .

ـ بدأت تجربة العودة الى الأرض تّمحي من ذاكرتي ، وكنت عرفتها بعد سبأ ، ثم بعد شبح إعدامي خلال المقاومة .

ـ دائمًا ، الشقاء الكبير يمّحي. إنما ، ما نفكر في الموت . . . أهمية الموت أنه يجعلنا نفكر في الحياة .

ـ سيّدي الجنرال ، تعرف مثلي العبارة الشهيرة : الحياة ، مجموعة القوى التي تجابه الموت . إذن فالموت روح العالم ، لكنه يعني لي الثرثرة . . ثمة مشكلة موتنا نحن ، إنما هي موجودة لأننا أحياء . وهذه قد لا تكون حتمًا مشكلة الموت . أما ازاء الإيمان ، فالأمر مختلف .

وكما كل مرة أحدثه عن الإيمان ـ وهو يعني إيمانه هو ـ يتنفس بحركة من يطرد الذباب .

ـ الهررة الصغيرة تلهو ، والكبيرة تتأمّل .

هممت بمداعبة الهرة على المكتب . . . ثم أجبت :

ـ أو انها توحي بذلك . . . الأطفال ، الرجال يتأملون ، أو

يوحون بذلك . . أحد اصدقائي ، وهو محلل نفساني ، يقول لي دائماً : « الحياة ، كرجل في المترو ، يحمل حقيبة في كل يد . وهو مهتاج ، ويترقب كل حركة للوصول سريعاً ، إنما الى أي محطة أخيرة ؟ الى الموت . ومع هذا ، يتمسك جداً بالحقيبتين » . . .

ـ ما عمر صديقك ؟ رأيه ليس نابعاً من شخص فتيّ .

ـ حوالى الخمسة والستين عاماً .

ـ ما يزال فتياً . . ومع هذا لا يعلّق كبير أهمية على الطموح . والحقيبتان ممتلئتان أمراضاً . الأمر يفجأ . . .

ـ وتدخل فيه رغبة ان يكون الانسان معشوقاً . . هل لاحظت انها ليست واحدة من الخطايا الأصلية ؟

ـ التكبر والرغبة تتيحان إيجادها . وما همّ . طوال عصور ، تأمل الإنسان فكرة أن الموت يسلّط على الحياة ، فينعزل الانسان ، في رياضة روحية قد تدوم في الدير خمسين عاماً . . منذ سنوات طوال ، والسؤال ممنوع طرحه . حيثما تمحي الديانة ، يعيش العلم في العصور ، والعالم يعيش يوماً فيوماً . . صورة الحقيبتين لافتة ، لكن الحياة ليست أن يعيش الانسان مسكوناً بهاجس الحقيبتين ، بل بأن يتحرر منهما . . . ربما ، لا دائماً ، لأنهما تتيحان عدم التفكير بأيّ أمر آخر ، وخاصة بالأهمّ . هل نحملهما لما فيهما ؟ أو لأننا نحمل فيهما ما يساعدنا على تناسي السفر ؟ اذا استثنينا الطموح ، ماذا يبقى فيهما ؟ انهما ممتلئتان أحاسيس الأنيات . بعضهم يضيف عليهما العبقرية . ويأتي الموت فيتولى تهدئة هذا القلق .

ـ أو يتولّى تحويله .

ـ طبعاً . . . لِمَ لا ؟

ـ لا يمكن لأيّ كان أن يضع فرنسا في حقائبه .

ـ أعدتُ لفرنسا ما كانت أعطتني .

ـ الثلج ما زال ينهمر في صمت . . هز كتفيه وأكمل :

ـ ما الفرار من الحقائب ؟

ـ العيش في الحاضر كما أنت تعيش في التاريخ ؟ .

ـ التاريخ يبرر الحياة ، ولا يشبهها .

ـ كما الرسم .

ـ ستالين قال لي عبارة مهمة ذكرتها لك : « في النهاية ، ليس سوى الموت رابح » . . ومع هذا ، ثمة التأمل .

كان قال لي هذه العبارة ، ولم أفهمها سوى اليوم . لكن حياته اليوم توجهها مذكراته . قلت له :

ـ الكتابة أيضاً مخدّر مهم . الحقائب ملأى صفحات بيضاء تنتظر ملأها . حين لا يدخل أي تفوّق ، في اللعبة ، فالشعور الأخص والأقوى لدى الناس ، يصير : كيف العمل لعدم التفكير في الأساسي ؟ وحين تكون أنت المحور ، مباشرة أو مداورة ، تعود الى البال عبارة نابوليون : « والآن ، اكتب الأمور العظيمة التي عشناها معاً » .

ـ كان عنده حظ .

وكمل بصوت غير ساخر ، مستعيداً بغض ماضٍ :

ـ كان يظن ان الخلود متفق معه ، مع ما كان يفكر به عن عمله ، مما يسمّيه المجد . نعود الى الكلام على هذا . فالكتابة تتيح نسيان الخوف . وهذا مهم .

ـ من الأكيد ان روما أوجدت أول حضارة ملحـدة . انما كانت موسوسة . حين كان شيشرون ، أو سواه ، يتكلم على الحمامات المقدسة ، كان يقول انـه لا يحب هذه المجنحـات الموظفة .

ـ موسوسة كما جميع الملحدين . لا اكثر . بم كان يؤمن القيصر ؟ ليس في كل كتاباته ما يدلنا على ذلك ، ولا في كل ما كتب عنه ، وهو كثير .

ـ لذلك اجد مهمًا ان تكتب مذكراتك . وإلاّ ، ألا تعتقد ان آخرين سيكتبونها ؟ . تذكر ما قيل لسقراط : « وما ينفعك يا سقراط ان تعزف عـلى القيثارة ، مـا دمت ستموت ؟ ويجيب سقراط : « ان أعزف على القيثارة » وثمة جواب ثانٍ . خذ ما بدأ يحصل حول أيار ، تجد كم ضروري جدّاً ما كتبه بونابرت بنفسه عما حصل من لغط حول فترة سانت هيلين . ثم ، حين ستكتب ـ سواء كتبتَ بالـ « أنا » أو بصيغة « ديغول » ـ لن يقرأ القارىء شهادتـكَ كما سيقـرأ الحـدث بقلم آخر . هنا الآيـة معكوسة . فالقلم الآخر ، سيزوّق ، كما الروائي يؤلّف ، فيما أنت تشهد ولو اعتقد القارىء انك مخطىء . وأعود الى التشديد على ان كتابة المذكرات عملية لا تعـوّض . . مرة قلت لي : « الفرنسيون يرغبون معرفة ما أفكر أنا بكل هذا » . ان إعادة

تنظيم فرنسا ، كما المقاومة ، كانت مجموعة أحداث ، ولم تكن احلاماً. لكن الحلفاء ، وخاصة الأميركيين ، كان يمكنهم اعتبار المقاومة بعثة اجنبية . لكنك انت حوّلتها أمراً آخر ، كما حولت اعادة تنظيم فرنسا . كان يكفي لخطاب ١٨ حزيران بضعة أيام ، ليعني شيئاً آخر غير النداء إلى خلق بعثة أجنبية . كنت تقول : « ثمة قوى كبرى لم تفعل بعد ، سنجيّش العدد الكافي من الطائرات والدبابات ، وسننتصر للأسباب نفسها التي جعلتنا ننكسر » . كان ذلك قوياً جداً ، إنما لم يتحدث عنه أحد ، حتى في جلسة مجلس الوزراء الذي قرر عام ١٩٤٠ ان ينزل هيريوت في لندن . . . قوة انبياء إسرائيل ، إنهم اعلنوا الحقيقة فيما كان الجميع ضدّها . وقوة خطاباتك في حزيران وما تلاه ، نابعة من الرؤية النبوئية نفسها : « حين ستقومون من بين الأموات » .

ـ الأشياء الرئيسية التي قيلت للانسانية ، كانت دائمًا أشياء بسيطة . . . الديانات مثلاً . . . وما تحدثه ، لا يمكن التكهن به .

هل يكون للعلاقة بين رجلين وحدهما ، في هذه الغرفة المغلقة ، رغم وساعة المنظر في الخارج ، أن تثير توارد أفكار بهذه الدقة ؟ ذات يوم ، كان قال لي عن المقاومة : « كرست لها كل شيء . كانت هي فرنسا . فالى أي حدّ تبنّتها فرنسا » ؟ .

قلت له :

ـ لماذا خطاباتك في الحرب لا تعطي أهمية اكبر للمقاومة في العاصمة ؟ هل كنت تظن ان سياسيين ، آجلاً أم عاجلاً ، سيحاولون الانقلاب عليك ؟ .

ـ بلى . . . أعطيتها أهمية كبيرة . . .

ـ عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ ، حين سَألك صحافي عن مصدر أسلحة الفيلق الأول ، أجبته : « من الأفريقيينْ الهاربين من الثلج ، ومن الاميركيين » . مع أنها كانت أيضاً مما أخذناه من الألمان ، ولا يزال قسم كبير منها في متحف ستراسبورغ .

ـ أعتقد انني ، وقتها ، لم أكن أعرف ذلك . كان يجب أن أعرفه . . .

غالباً ما تكون المسافة التي تفصله عن محدّثه ، فاصلاً له إلى شقّين منفصمين ، فهو يقول : « كان يجب ان اعرفه » ، « كما يكتب « ديغول » عقّبت على كلامه :

ـ حدث شيء رائع في الأشهر الأخيرة من المقاومة . وعندها أدركنا ما كان ينتظرنا ، فبعد توقيف جان مولان ، شعر المقاومون والمقاومات بأنهم يحاربون في وجه جحيم هائل .

تراه كان يخشى من غش في صفوف المقاومة ، فلم يكن يؤمّن إلّا للموثوقات ؟ هل كان يعتقد ان المقاومة وحدها لا يمكنها تأمين استمرارية فرنسا ؟ كان يقول : « أسمع صوت شعبي عميقاً ، كما أسمع ضجيج البحر » . وهو تكلّم مراراً على كهوف الغستابو وعلى أعمدة تنفيذ الإعدام . ومرة رأيت ، وكنت معه ، في « الأنفاليد » ، عموداً ، مزّقته رصاصات الألمان ، أعادنا الى أصعب لحظات المقاومة . تطلّع ، مثلي ، إليه ، لكنه راح يفكّر بالمسافة التي بين أدغال المقاومة والبعثات الأجنبية . قال لي : « المقاومة عرفت عدة دواعٍ . وأظن فرنسا تعرف أنني لم أناهض سياسة باسم أخرى ، ولا حضارة مهتاجة

باسم حضارتنا ، ولا حتى باسم المسيحية . كل ما فعلته : المقاومة باسم فرنسا . ولن يُنسَى انني احتويت الجميع ، وإلا لكنت رئيس حزب في المنفى . ومع هـذا ، يتهمني بعض المساكين باحتواء فرنسا . . مساكين . . . » .

أحسسته اليوم مسكوناً بهاجس المرحلة التي عادت فرنسا فيها فرنسا ، إذ تمر اليوم ساعات عصيبة تهدّد ، بنضارة تلك المرحلة . هل تكون العشر السنوات الاخيرة مجرد قفزةٍ أخيرة ؟ أفكر بعلماء البيولوجيا الكانوا مجتمعين في سان فرنسيسكو ليشهدوا الاختبار الذي سيجعل الحياة تولد من المادة : نجحوا في المرحلة الأولى ، ثم مرّوا بلحظة ارتعاشة حين بدت الحياة متردّدة في الأنبثاق من الجماد ، وأخيراً ، كان الفشل الذريع .

كان اهرنبور ، وهو من أشد كارهي الجنرال ، يقول : « في موسكو ، بدت فرنسا تتبعه على خطوات ثلاث ، كما الزوجات المسلمات ». تراها لم تعد في حاجة إليه اذ لم تعد تريد شيئاً ؟ « بير حكيم ليست ، طبعاً أوسترليتز . والذين اقتتلوا فيها يشهدون » . هكذا تفكيره بذلك ، إنما أحياناً لا دائمًا . . . « انا العجوز في العجوز والبحر لهمنغواي ، ، لم أعد إلاّ بهيكل عظمي » .

لكن عنده اليوم اللامبالاة الغربية تجاه ما انجزه بالأمس . . . « رجال نهتف لهم ونهلّل ، نجدهم يرمون أحمالهم فجأة » . بمن تراه يفكر ؟ بيوليوس قيصر ؟ ربما . بسان جوست ؟ لا يعرفه جيداً ، ولا يحبه . . . فهل يمكن تحليل اللامبالاة تجاه الانجازات ـ وهي عند امثاله مبالاة تجاه كل شيء ـ أم انها وليدة

شعور اساسي ناجم عن تبريرات ؟ هكذا تجيب كيمياء الدماغ ، حسب ماكس توريس . ترى ، قبل رحيله ، سمع صوت الموت مؤذّناً ؟ مع انني ، وراء « الهيكل العظمي » الذي سماه ، الح تعلقاً لديه .

يوماً قال لي ، في إخلاص واضح : « أعترف انك غلبتني » . وفي اليوم التالي ، فعل ما كان قرّره قبل محادثتنا . لكنه يجمع خطاباته ، ويجيب عن رسائل النساء اللواتي يسألنه ، فيسألهنّ ، عن صلواتهن ، وتعليماته الى السيدة ديغول واضحة في هذا الشأن ، عند حصول أي حادث . فهو يتكلم على الموت في لامبالاة عظيمة ، حتى ان احدهم ، وكان يعرفه جيداً ، قال لي : « إنه يحزم حقائبه استعداداً » .

كان يؤمن بعزلته . ولم أكن أوافقه هذا الإيمان . فما يكتبه ، تتمة لحياته ، ومجابهة لوحدته التي يمارسها بعد ظهر كل يوم في رفقة هرّته . يقول : « بعيداً يمتدّ نظري ، ولا يقع على بيت واحد . أتمشى ساعات طويلة ، ولا أصادف أحداً » . تماماً كما قبله القديس برنار جاب كليرفو تلك القاحلة الشتائية . مرة ، قال لي عبارة فاجأتني انما تعبّر عن كوامنه ، وتلمح الى سان جوست : « كان القديس برنار تمثالاً . ترى كان له قلب ينبض ؟ » .

في الطريق الى كليرفو ، بستاني يجتاز المعبر ، وأبعد منه بقليل ، عربة خيل مهجورة . ثمة ، عند الجنرال ديغول ، ميدان لا هو روماني ، ولا يذكر بواشنطن ، ولا بميادين رجال الدين المنفردين . رفضه هو الأساس . ومزاجه ، لا يحدّده بقوله : لا ، بل بكونه لا يكون مرتاحاً إلا حين يقول : لا .

دخل عليه أحدهم ، حاملاً رزمة ، فتحها ، انها الصفحات المطبوعة على الآلة الكاتبة ، من مخطوطته : « خُطب ورسائل » .

ـ هل هو الجزء الأول .

ـ نعم . الحرب .

غداً ، في مثل هذه الساعة ، سيكون في هذه الغرفة نفسها ، وسيستعيد نظريته عن حرب الثلاثين عاماً ، وكان أوجدها عام ١٩١٤ : « فوش ، كليمنصو ، ديغول .. الخط نفسه » وكذلك : « إن امتنا تواجه خطر الموت » . وغداة تدمير الاسطول الفرنسي في المرسى الكبير أمام الأسطول الأنكليزي ، يلعلع صوته : « باسم الفرنسيين الما زالوا احراراً في التصرف وفق شرفهم ومصلحة فرنسا ، أُعلن انهم ، مرة اخيرة ، اتخذوا خيارهم القاسي : انهم اختاروا القتال » . وكذلك : « بين الجنود المقاتلين ، نادراً ما يسمع العالم بعد خطوات جنودنا البعيدة » . وسيقلب الصفحة ، ليقرأ ، ويضيف هنا فاصلة ، هناك نقطة ... « فرنسا التي تحارب ، هي حكماً فرنسا » ... ووثاق الوحدة الفرنسية ، هو ، فقط ، دم الفرنسيين الذين رفضوا ان يعرفوا ، ، كما قال كورناي ، عار الموت دون شرف القتال » ... وكذلك سيقرأ : « جيشنا في افريقيا ، صدىء السلاح انما معنوياته قوية » . كما سيجد ظل هتلر منتحراً، وفيشي الذي صار بلا ظل ، : « منذ اعلنت الخيانة أن العار عذر لتجنب العذاب ... هؤلاء الواقعيون الذين يجهلون الواقع ... فيشي الممسك بيدي فرنسا فيما العدو يذبحها .. الأغطية التي يرميها الأعداء والخونة على شهدائنا .. أفواه الكانوا

يدّعون حكم بلادنا ، والتي لا تنفتح إلا لتأمر بلادنا بالتمرّغ في الوحل » . . .

وسوف تتتالى الصفحات ، مدونة ما كان يحصل كل يوم :
اعظم انتصار في العالم ، هو انتصار الذين لم يستسلموا . . .
او « في التغيرات العظيمة ، لا قيمة أو بروز أو حساب إلا للّذين يعرفون كيف يفكرون ويريدون ويتصرفون وفق ايقاع الأحداث العظيمة » .

وسوف يتذكّر ، أحياناً ، التاريخ الذي صنعه ، كما ميكالانج يتذكر الكابيلاسيستينا ، واحياناً اخرى كما تعود الى البال ذكرى صراع طويل مع رواق من الظلال طويل . وستحين ساعة الغداء .

وها هي حانت . وبادرني :

ـ أما زلت تقرأ ؟

فيما هو يستقبل سفيرنا في لندن ، جوفروا ده كورسيل ، وهو كان مرافقه العسكري فيها ، رحت أبحث مع مرافقه العسكري اليوم والسيدة ديغول . أحسستني ما عدت نافراً لديها . تراها لأنني أرافق الجنرال في عزلته ، أم لأن حدسها النسائي دلّها على عمق علاقتي بالجنرال ، أم لأنني اليوم في كولومبي ، أم لأنها تعرف ما توحيه اليّ من أعجاب (تولد خاصة بعد محاولة الاغتيال في كالامار ، حين ترجلت من السيارة صامتة ، نافضة كسر الزجاج عن كتفها ، ومعيدة قبعتها الى مكانها) ؟ وها هي اليوم أراها صبية وأملح الوجه الذي احبه الكابتن ديغول . كانت في الأمس القريب تعبى ، وها هي اليوم مرتاحة في جوّ قريب

من هدوء الجنرال وصفائه . تتحدث عن قصر الاليزيه كما عن معتقل :

ـ كنت دائمًا اتساءل كيف استطاع احتمال ذلك كل هذه المدة .

ومن خلال تعابير كثيرة لها (آه . . . الجنرال يحب هذا . . أو . . . يقول هذا) تبدو تحبه في أنوثة دافئة .

على الطاولة ، لعبة الصبر ذات الاسلاك الحديدية . نظرت اليها ثم إلينا :

ـ يتدرب عليها أيام الآحاد ، ليتغلب على أحفاده .

تأملت هذه الأسلاك التي يلاعبها الجنرال .

الأسبوع الماضي ، وصلتني هذه الرسالة بلا توقيع :

« إذن هو هذا ، الجنرال ديغول : حقارة في الفكر ، حقارة في الروح وحقارة في القلب ! ومن هنا : قصر في الرؤيا ، مغالطة تاريخية ، وتعمية في العبقرية اللاتينية . ان فرنسا (لا فرنساه هو) فرنسا المضللة التي شهدت ، معه وبواسطته ، هزيمة ١٩٤٠ تتحول انتصاراً ، والتخلي عن الحكم يتحول مجداً ، والخيانة تتحول شرفاً والجهل يتحول مدرسة . . فرنسا التي شهدت جيشها مهزوماً وعدالتها ممتهنة ، وحضارتها ممزقة وشعبها مكروهاً . . . فرنسا التي قادها الى الضلال والفوضى واليأس بالمسافة الرهيبة بين أقواله الطنانة والحقيقة . . فرنسا التي شهدت ابناءها ينقلبون عليها ، في ايديهم السكاكين ، فيما بقي هذا العجوز يتفرج عليها ساخراً . . فرنسا التي طردته ، كانت ما

تزال متمسكة بالأمل . . .

ولكانت فرنسا غفرت كل شيء ، لو وجدت لديه عظمة ، أو نفساً ملحمياً أو جنوناً . لكنها لا تجد في « قائدها » سوى ثعبان حقير الدماغ ، سوى رجل لا عملاق فيه سوى ادعائه ، وعناده التعيس . . . إن فرنسا اليوم تتأمل هذا المدّعي الجاهل ، بهمومه الرئاسية ، ورحلاته الى الضواحي ، وتعلقه بالمال ، والجوائز المسلكية أو الشرفية التي يمنحها لمساعديه .

لذلك ، ووعياً منها أن هذا المصاب بمرض العظمة ، حقير ، تنظر فرنسا اليوم ، ببعض القلق ، الى صدور هذه الكتب التي ستصب الزيت على العواطف شبه المطفأة ، التي ستزعج اميركا ، وتصيب روسيا بالخيبة . . . » .

أميركا وروسيا . . . مرة قال لي : « ولا مرة ، وجدت أمامي رجلاً يمثل حجم فرنسا » . وحده شكسبير عبرّ عن الحقد الذي تثيره الأقدار الكبيرة ، التي ما زالت تثير اليوم الحدق لأنها كانت أثارت الحبّ : « الحقد على جاندارك أو على نابوليون » . . . وما زلنا نذكر الأغاني ضد بونابرت . « إذن . نابوليون ، ولن تعود إليك ماري لويز » ؟ أو ضد لويس الرابع عشر : « دخل الجندي العجوز الى الضيعة ، وتزوج من المومس العجوز » ، أو الشتائم ضد يوليوس قيصر . وهي شبيهة بتلك الموجهة ضد الاسكندر . من هنا ، ان كاتب هذه الرسالة ، قد يقتل الجنرال ، لو كانت له الجرأة ، باسم البيتانية ، ناسياً هتلر ، والشيوعيون كانوا يقتلونه باسم البروليتاريا . فأعداء نابوليون لم يحتاجوا الى اعذار ليكرهوه . وكذلك ريشليو ولينين وكليمنصو . ينتمون الى التاريخ ، إذن الى الحقد . وكان الجنرال سألني

بالأمس ببسمته المروّسة : « ألا تجد غريباً ان يكون الـواحد مشجوباً (لا يَستعمل قط كلمة « مكروهاً » حـين يتكلم على نفسه) لما فيه ولما ليس فيه » ؟

لما فيه . . .

أعترف انني لا أعرف الجنرال ديغول . مَن يعرف مَن ؟ تسمي « معرفة » تلك الإلفة مع ما للفرد من خصيصة فردية ، فلا يفاجئنا بعمل ولا نعرف أن نموقعه فيه . يضاف إليها ، وهم ما يضيفه النجاح . خطوة واحدة بعد ، وتصير معرفة الآخر هي معرفة ما يخبىء . يقول القول السائر : « لا رجال عظماء في نظر خدّامهم » . فهل هـذه حقارة حقـودة ، أم دعوة الى وحـدة الوضع البشـري ، إلى مشـابهـة عميقـة تـطغى عـلى جميـع التسلسلات ؟ في العصور الغابـرة ، كانت تُستعمل عبارة « كشف القناع » في عصرنا ، يبدو ان البحث عن غير المعترف بـه ، أعمق من البحث عن غير الصالح للاعتراف به ، والبحث عن « الذي يفعل فينا دون علم منا » لا ينبع من المعرفة ، بل من خرافتنا : الطيران كما السير ، انوجادنا في جميع الأمكنة معاً ، إمكان امتلاك كل شيء ، وعدم الموت .

والسـلالات الكبرى ، وعت المجتمـع مهزلـة ، والانسـان هازلاً . من هنا ان النموذج الفرنسي نابع من حدة الذهن ، لكنه ينحو صوب التحديد أو التشويه . مع ان التفكير في ماكس أو ميري ، لا يثيرفـيّ تحديدهما ، بل صورتهما الهزلية ، اكثر من مكانتهما . ذلك ان الرسم ليس عملية ذهنية ، بل نوع أدبي وفني . رسم الصورة ، تجميد صاحبها في الرسم . لكن رسامي

الوجوه ، لا يجمـدون الصورة نفسهـا ، ولا يملكون الأدوات نفسها . كل كائن نبع لا ينضب ، لكن كل كائن يحدّد ظله حين يدخل في المساحة الشعاعيـة للعمل أو للعـواطف ، كما يحـدث لي عندمـا تطغى فكـرة ، « زمـان . . . » عـلى فكـرة « رأيت » .

حواري مع ماكس ، دونته ، لأنني أحسسته من الماضي . استمعت الى آرائه في الماركسية الفرويـدية ، كـما تخيلت آراء النفوس المرهفة عام ١٧٨٨ حول الطغاة ، وكما كنت استمع الى ميري يقول : «كان ذلك زمان البونزفو ، حين كانت موسيقى سنغافورة تطغى على أوامر قادة مصفحاتنا » . وقد يكون هذا هو التـأثير الـذي يمارسـه علـيّ رجـال التاريـخ . فتجبرتهم تتعلق بالانسان الجماعي ، من هنا أن تجربة الجنرال ديغول ليست من طبيعة تجربة ميري أو ماكس ، وتجربة ملاح الطائرة لا تختلط مع تجربة المسافرين ، لأن تلك فردانية . بينما عند الجنرال ، الفرد معدوم ، وأسلوبه الخفي مقصود لأن هذا الحذف يخلق أسلوباً قوياً . مع أنه فاوض كثيراً ، فهو لا يناقش . أحياناً يطلع فكرة باردة أو فرضية ، لكنه غالباً يؤكد أو يسأل . بينما عند نهرو ، الفرد ليس معدوماً بل محذوف ، بالتاريخ الذي صار عنـوانه « زمان نهرو » . ومرّ الزمان على الهند .

غادر الجنرال غرفة اجتماعاته قائلاً لجوفروا ده كورسيل :

ـ في الواقع ، حرسنا القديم ، احبه ، إنما . . .

قاطعته السيدة ديغول :

ـ إنما بقي ولم يترك . . .

ـ إنما أريد ان يفهم الجميع بأن لا علاقة لي بما يفعله .

وقدم نبيذ البورتو . جدران البهو مغطاة برفوف الكتب . فوقها ، مصابيح صغيرة وصور فوتوغرافية للملوك ورؤساء دول حاكمين او متوفين او مخلوعين : تشان كاي تشك ، ايزنهاور وملكة انكلترا ، وكينيدي . حدّ نيكسون . ومعها لوحات قدمت اليه في الجزائر . ليس ما يرتبط بحياته هو : لا اثراً فنياً مبتاعاً . جهاز تلفزيون ، كنت رأيت آخر وانا امر في البهو الآخر .

انتقلنا الى المائدة . نفر صوته :

ـ وماذا يجري الآن ؟ هل تخرجان في هذه الايام ؟

تغير صوته . كأنما يريد يقول : استراحة . تماماً كما زمان الغداءات الخاصة في الإيليزيه . بعد خروجه من مكتبه الرئاسي ، حيث خارطة هائلة للكرة الارضية ، لا يتكلم في الامور الجدية . بصير يجيب بجملة موجزة او بهزة كتف من هنا ، ذهول جاراته اللواتي كن ينتظرن آراءه حول تاريخ العالم ، فيما هو يسألهن عن أخبار اطفالهن ، او عن رأيهن في آخر فيلم شاهدنه . لكن الجنرال خلق في كولومبي جواً لم أعرفه في الإيليزيه : جواً حميًا وعائلياً ، كما لو أنه يحس بنفسه سيد البيت .

روى السفير عن حفلة بارون ريديه ، وأتبعها بسلسلة نكات ، ختمها بقوله : « كل هذا سخيف لا قيمة له » . . . فقلت :

ـ ما الذ نهاية القرن الثامن عشر ، وهي موزعة بين كلمة امير لين في فيينا ، وكلمة مدام ده بومبادور في قصر فرساي . . .

فيينا ، يصل رسول حاملاً رسالة الى امبراطور النمسا : جل غرق في حفر برائير » ، وهي حفر بدون ماء ، ليجيب مير : « هيا . . . مداح آخر » . والكلمة الخصمة تعرفونها : يس الخامس عشر . . .

والتتمة تكون : « لويس الخامس عشر يتملق مدام ده مبادور » . لكن كلمة « يتملق » ليست من قاموس السيدة يغول :

- لويس الخامس عشر يداعب مدام ده بومبادور . فتأخذ يده ، وترفعها الى قلبها ، تبتسم قائلة : « هنا . . . هنا » . . .

عادت الهرة ، فسألت عن اسمها ، لتجيبني السيدة ديغول :

- كان لها اسم مميز . . . نسيته . . . الآن ، اسمها غري غري . . .

ذات يوم سألت الجنرال عن علاقته بالقطط . فأجابني بعد تفكير : « لم تعد تخاف مني » .

وكانت جنفياف ديغول اخبرتني انه مرة سمع الأولاد يقولون ، في الغرفة المجاورة ، عن الميلاد التالي : « اذا اتى العم شارل ، نفرح كثيراً ، انما لا نعود نستطيع المزاح » .

سألت جوفروا ده كورسيل :

- هل قرأت آخر نظرية انكليزية عن آزنكورت ؟

- لا اظن . . .

- عن التقاليد ان النبالين الفرنسيين لم يستطيعوا استعمال

اقواسهم المتمددة من المطر والتي دون اغماد ، فيما الانكليزيون كانت معهم اغمادهم .

وسأل الجنرال :

ـ ولم يعد ذاك في التقاليد ؟

ـ تقول النظرية الجديدة ان اوروبا كانت عهدئذ مسرح فئران ، والانكليز وحدهم كانت عندهم اسراب قطط . وحاصرت جماعات من الفئران فيلقاً من الجيش الانكليزي ، لا خوفاً من القطط بل بسبب رائحتها . وانهالت على حبال الاقواس الفرنسية .

سأل الجنرال :

ـ والنبالون في آزنكورت كانوا يحاربون بالاقواس ام بالقذافات ؟

ـ بالاقواس في أحد الافلام . . . كل هذا غامض . لكن مؤرخاً مدققاً يمكنه التأكيد على وجود او عدم وجود جماعات القطط ، في قبطانيات من ١٢٠ قطة مصطنعة . . .

قالت السيدة ديغول :

ـ أساساً التوفيق بين قطتين ، أمر صعب . . .

فقلت :

ـ اطرف قصة عن القطط ـ ولم اعد اذكر ان كانت من فيلموران او من جان كوكتو او مني ـ هي هذه : « في زاوية حيث النار تتقد ، كان يجلس انكليزي وزوجته والقطة

السـوداء» . تطلعت هـذه الى الرجـل وقالت لـه : «زوجتـك خانتك» ، فتناول الرجل بندقية الصيد وقتل المرأة . فانسحبت القطة ،وذنبهـاعلامة استفهام ، وهي تردد : «إني كذبت» .

قال الجنرال :

ـ اظن القصة منك . . . لكن قبطانيات الحيـوانات بقيت طويلاً ، بقطط او بدون قطط . . .

ـ تتذكر الرسالة التي تلقتها دائرة المحفوظات قبل سنوات ، وفيها شارل ده باتز ، أي دارتانيان ، قائد المطيرة ، يشكر الملك على تسميته اياه قائداً على كلابه ؟ حين لم تعد في اوروبا قطط ، ارسلت الى البابا غريغوار الأول قطة من الحبشة . وأصدر مجمع تحذيراً يفيد بان قداسته يهمل واجباته الجبرية ليداعبهـا . . . وانني اتذكر قطة سوداء ممددة على مصيدة في «المدينة القديمة» من كونكارنو .

أحد جدران الغرفة ، العـاري منذ عشرين سنة ، مـزيح بدبابيس بولينيزية ، بعضها جميل وبعضها الآخر مقصود للزوار .

قال الجنرال :

ـ هذه تسلي الصغار . . .

التفت الى أرجـاء غرفـة الـطعـام ، فـرأيت عـلى خـزانـة نورماندية ، مجموعة منحوتات من الشمال . . . فسألت عنها ، لتجيبني السيدة ديغول :

ـ اهدونا اياها في كيبيك . . .

كانت خادمتـان تقومـان بخدمتنـا ، والجنرال يصب الخمـر بنفسه . لم اكن رأيت هذه البسمة الساخرة لديه الا حين ترافق هزة كتف ـ كما ، مثلاً ، حين رأى بريجيت باردو ، في احدى حفلات الإيليزيه ، تصل بثوب فاضـح برنـدبوري ، فـابتسم قائلاً : « ما اقل حظي ، سيدتي ، انت بالزي العسكـري وانا بـالمدني » . . . او كـذلك حـين كان يصـافـح جمعـاً ، بـدون نظاراته ، فوصل الى احدهم : « مرحبا ، سيدي الكاهن » ـ ولكن، يا سيدي الجنرال ، لست كاهنا ، انا من حرسك » . . . فأبتسم قائلاً : « اذن ، اهلاً باحد الحراس » . . . او كذلك ، حـين سمـع احد الاغبيـاء يقول امـامه : « بـولغ بـظروف اعتقـال رافنسبروك » فقال له : « المقاومات كن في ظروف مريحة داخل معسكرات الإبادة ، حتى أنهن بقين فيها » .

سأل الجنرال السفير عن اخبار اصدقاء انكليز ، فأجابه :

ـ اكثر الرسائل تأثراً بين كل ما تلقيت ، كانت رسالة السيدة تشرشل .

واستدار السفير نحوي مكملاً :

ـ تعرف أيها كانت الأولى ؟ رسالة فرنكو . دعاني الى زيارة اسبانيا . . .

اللحم المشوي عقب السمك . وكان الخمر لذيذاً جـداً ، والجنرال لا يترك كأساً فارغة . سألني وهو يصب في كأسي :

ـ الم تذهب الى الجزائر ؟

كـان يعرف انني دعيت لترؤس مؤتمـر الـدول النـاطقـة

بالفرنسية . . فاجبته :

ـ كدت اقبل ، لأن الدعوة ، موجهة الى فرنسي ، ذات معنى . . . قيل لي ان الخلاف كان بارزاً بين الزنوج الاميركيين والزنوج الافارقة . . .

ـ ربما كنت سويت هذا الخلاف . . .

ـ أحسست انني قلت في نيامي ، ما كان عندي اقوله . .

ـ طبعاً قلت في نيامي اشياء مفيدة . هل تغيرت النيجر كثيراً ؟

ـ اقل من التشاد . لا تزال نيامي مدينة من الامبراطورية الفرنسية القديمة ، حيث الرئيس يسكن القصر الاصغر الذي للحاكم . . .

ـ والقرى ؟

ـ عريقة القدم . بعض عالماتنا في السلالات يسكننها . ومساهمة النساء في طقس النيجر الاسلامي ، مهمة جداً . يعتقدن ان في وسعهن لعب دور مهم بين النيجر وفرنسا . ومعهن حق . القرى لم تتغير ، الا في كون جميع الرجال الطوال القامة يدعون « غول » ، كما في الكونغو ، وكذلك نساؤهن او خطيباتهن يدعين : ايفون . . . وغالباً ما تسمع صرخات : غول . . . غول . . . العمة ايفون .

ضحكت السيدة ديغول ، وسألت :

ـ وما تفعل عالماتنا في السلالات هناك ؟

- يجرين دراسات على المرأة النيجرية . مهمتهن ليست سهلة . دليلتي كانت ذات شعر متماوج ، فيما المواطنون هناك يجدون في النيجر إلهة متماوجة الشعر ، بسبب تماوج المراكب في المياه . والمرة الأولى التي استحمت فيها إحدى عالماتنا ، هرب جميع سكان القرية . وحين عادت بعد أيام ، بادرتها صديقتها النيجيرية : « حسناً اننا كنا نعرفك جيداً ، والا كانوا قتلوك . اذ بما انك لست الإلهة ، فستكونين الشيطان » . . . ومن يومها ، وهي لا تستحم الا بقبعة على رأسها تخفي شعرها .

التفت الى كرسي ، رأيت عليها بعض الاعداد من « جورنال ده لا فرانس » ، واول اعدادها خصصت للثورة . تنبه الجنرال الى وجهة نظري ، فتبعها وقال :

- كانت الأمور اقل تعقيداً مما كنا نظن . كان في فرنسا ثمانية وعشرون مليون نسمة ، وكان فيها التجنيد الاجباري . وكانت الملكية ، لدى غروبها ، استعادت قوتها العسكرية . والاصلاحات التي طالب بها غيبير حققتها الثورة والامبراطورية . لكن الثورة اعادت فرنسا الى المعركة ، وفرنسا معتادة على ضربات السيف . وربما من فضيلة السلاح ، انه يقود الى النبالة . . . من كان يقول ان اتباع جان جاك روسو يصيرون رومانيين؟ هل تذكرون يوم رحنا نشاهد « روي بلاس » لفيكتور هوغو في اخراجها الجديد ؟ يومها قلت لك : « ما هذا الموضوع الفريد ! » . واجبتني : « بالنسبة لجمهور العصر ، هذا الخادم العاشق الملكة ، هو روسو الامس نصب وزيراً » . لم اكن فكرت بذلك . تراه كان تمنى ذلك ؟ لم لا ؟ كان على شيء من الجنون .

لولا هذه اللمح من السخرية ، لكان الجنرال قاسياً جداً . وهو ، الى ذلك ، يحب الغريب الشاذ . . . أجبته :

ـ لم يكن فيكتور هوغو يعرف ان ملكية « روي بلاس » ، ماري ده نوبور ، رزقت ولداً شرعياً هو اكبر مغامري عصره . الكونت سان جرمان . وكاليوسترو وكازانوفا يبحثان عن الدهاء الذي به تمكن من ولوج الغرف الحميمة لدى لويس الخامس عشر حيث لم يتمكنا قط من الدخول : ذلك ان الملك ، كما سائر ملوك العصر ، يعرف مولده . . .

على غلاف عدد آخر من المجلة الاسبوعية ، صورة كبيرة لنابوليون سألني :

ـ ماذا تقول في الامبراطور ؟

ـ فكر عظيم ونفس صغيرة . . . لكن ذلك ليس ليقال في كورسيكا .

ذات يوم ، كان عليّ ان القي في أجاكسيو خطاباً في ذكرى ولادته ، وكان على الجنرال ان يلقي في الانفاليد خطاباً في ذكرى نقل رفاته . قلت للجنرال :

ـ يبدو لي أنه لم يكن يوماً في مواجهة الاستفهام الميتافيزيكي او ، اذا شئت ، الديني . في مذكراته ، كلام على وساوسه ، مع ان كبار المفكرين الدينيين موسوسون .لكن ديانته الحقيقية لم تكن مختلفة كثيراً عن ديانة امه ومعتقداتها . هكذا كبار الغزاة ، نادراً ما يستوقفهم سؤال عن معنى الحياة : الاسكندر ، يوليوس قيصر ، جنكيزخان ، تيمورلنك . . واظنهم ، حين مثلوا أمام

الله ، ارسلهم جميعهم يتلقون دروساً في الدين .

ابتسم الجنرال بما اوحي التقاءه مع الغرابة الانسانية ، وأجابني :

ـ ربما لم يكن لديه الوقت ليهذب روحه . تذكر ، في سانت هيلين ، عبارته الشهيرة : « هذا محزن ، كما العظمة » . متى قال ذلك ؟

ـ حين بلغ جزيرة البا . . .

ـ لكن هذه ليست روحاً عادية . . .

صحيح ـ كانت الروحانية دائمًا غريبة عن نابوليون . لكن علاقته مع الحياة في سانت هيلين ، ليست ما كانته في أوسترليتز .

ـ ثم ، لدى الاشخاص التاريخيين ، تتخذ قدرة الخلق الاسطوري مكان الروح .

ـ ماذا كنت قلت في الانفاليد ؟

ـ ترك فرنسا اصغر مما وجدها . لكن الأمة لا تحدد هكذا. كان يجب ، من صالح فرنسا ، ان يوجد . كما فرساي ، كان يجب بناؤه . لا يجب ان نتجر بالعظمة .

يعرف الجنرال أن القوة هي القوة ، ويحس ضعفنا . لكنه لا يفكر في فرنسا بتعابير القوة (لذا استسخف عبارة ستالين : « لفرنسا مقاطعات اقل من حكومة لوبلين ») . ولا بتعابير المساحة الجغرافية . فكيف لم يع ذلك اوضح ، حين قرر قبول

استقلال الجزائر؟ يومها، فضل روح فرنسا على كل الباقي، وربما على نفسه. لذا، لا يعلق كبير اهمية على كون نابوليون ترك فرنسا مهشمة: كان الامبراطور اثبت للفرنسيين ان فرنسا موجودة هنا اكمل الجنرال:

- ثم ان قدر نابوليون ليس القدر الوحيد التاريخي المنسوج من مجموعة اخطاء...

- كل رجل من التاريخ، يجمع اسلحته قبل ان يختار بأي منها سيقاتل...

- يجب ان يختار... مأساة انكلترا حالياً، انها مرغمة على الاختيار بين احتفاظها ببقايا الامبراطورية لقاء الهيمنة الاميركية، وبين لعبة شريفة مع اميركا. امضى تشرشل كل وقته يعطي الولايات المتحدة دون حساب، بدءاً من جزر الانتيل مقابل خمسين مركباً لم تكن تستعملها اميركا. بينما نابوليون لم يحسن الاختيار بين القائد العام والامبراطور. قبل لايبزيغ، بقي ساعات يوقع قرارات، مع ان جيشه لم يعد، يومها، الجيش الفرنسي. فكيف بدأت الأمور؟ وكيف اختلطت؟ سأخبركم: «حتى١٨١١، لم يكن تفكيره العبقري ضعف بعد. وكان عمق استراتيجيته، مبنياً على توحيد جميع الجهود في واحد، والعناد على مضاعفة الرهان، وحب المغامرة. وفي المعارك، كان يعرف، كما لا احد، ان يخلق كسر التوازن، ويعرف ان يستغله. لم تكن إرادته تخيب في الانتصار ولا في الانكسار. يقول فولتير ان الصفاء في حالات الالم القصوى، هو اول فضل لدى القائد. وفي كل مصير تاريخي، ثمة اللحظة التي بها البدء. وتلك اللحظة، مع نابوليون، هي في لودي».

فكرت ان اقاطعه ، لأسأله : « ومعك انت ، متى كانت ؟ » لكنني اعرف جوابه : كانت يوم لم يعد يفكر في ويغان ونوغيس والآخرين (على افتراض انه . . .) ، وحين سأله رينيه كاسان في لندن : « كوني قانونياً ، هل يمكنني اعتبارنا بعثة اجنبية ام جيشاً فرنسياً ؟ » أجابه : « نحن فرنسا » .

وراح الجنرال يسترسل في حديثه عن نابوليون :

ـ على أن نابوليون يدعي دائمًا الضغط على الثروات . لكن النفوس ، كما الاشياء ، لها حدود احتمال . وبدءاً من ١٨١٣ ، لشدة ما ضرب ، كسر سيف فرنسا . وحين تنكسر النسبة المتوازية بين الهدف والوسائل ، لا تعود تنفع مزايا العبقرية . وما فعله في القسم الأول من حياته (كقائد عسكري) مصمم سلفاً في شكل مدهش . وكل ما فعله بعد حملة روسيا ، له طابع المغامرة ، اعرف ان الضابط البسيط حين يصير امبراطوراً ، يمكنه التفكير بأن الامبراطور الغائد سينتصر بعد . لكنه ينطلق الى هذه المعارك كما لو كان شخصاً آخر . . .

ما يفكر به الجنرال ، وما عالجه ، يتخذه في ذاكرته حجم تلخيص ممنهج . فهو لا يرتجل ، بل يحلل . وحين يكونالتاريخ هو المحور ، كيف لا يبدو محترفاً كبيراً بين هواة ؟

قلت له :

ـ جوزفين بيكر تقول ان العودة الى النجمية اسهل من صيرورتها .

فاجابني :

ـ شرط عدم التوهم بهذه النجمية . لو لم يربح نابوليون عدداً من المعارك ، هل كان يقدم على واترلو كما اقدم ؟

ـ في النهاية ، عانى نقصاً في المقاتلين ، وبدا يحارب جميع مبادىء شبابه . مع ان الأمير شوارزمبرغ اكد لي ان جده عرف كيف يجلب من روسيا المقاتلين النمساويين .

ـ ربما لم يهاجموا كثيراً . لكن النكسات لم تصب مجد نابوليون في العمق . . . وبقي اسمه عظيمًا ، ليس عند الفرنسيين فقط . بقي يحرك النفوس . وها هو قبره حتى اليوم يستقطب زواراً يصلونه فيحسون بقشعريرة العظمة . . .

ـ رغم تحقير تولستوي الكان يعتبره لصاً . بعد انكساره ، كرهه الجنوب . وفي كاركاسون ، اقيمت محرقة كبرى ، جيء لها بنسر من احد الاقفاص ، واحرق عليها .

ـ وهل تكريم لاحد اجمل من احراق نسر تعبيراً عن كرهه ؟ ترى ، ما كان شعوره ، وما دهشته ، عند انكساره في المرة الأولى ؟ هزكم صراخ جاندارك حين بلغتها النار . كنتم تعتقدون ان القديسين سيحمونها فلن تحترق . اظنه احس بما يشابه .

ـ لا تزال احدى عباراته تهزني لسحرها وغموضها : « اضع مخططاتي بأحلام جنودي النائمين » . وهو اعاد التنظيم ، وكان يحمل فيه حاجة تغيير الفوضى الى نظام ، كما جميع رجال التاريخ الذين ليسوا رجال مسرح . سياسياً ، الأمر واضح ، لأن الفوضى التي ينظمها ، واضحة . ولكن ، في الميادين غير السياسية ؟ حالياً ، اعمل على جمع مقدمات كنت كتبتها عن

اشخاص من نهاية القرن الثامن عشر ، اذن عن أشد الأزمات التي اجتازها الفرد في حياته . فما كـان سيكون ادب يكمـل لاكلو ، او سياسة تكمل سان جوست ، او رسم يكمل غويا ؟ فائما بسبب نابوليون ، كان لمدام ده ريكامييه ان تخلف « الصبية العارية » (لغويا) . لكنه حمل فرنسا الى جهة الرجال . ومنذ ١٧٥٠ ، لم يكن الفـرنسيـون الـذين غزوا اوروبـا ، بـل الفرنسيات .

ـ جعل الطموح سيداً على فرنسا . وكانت الثورة الفرنسية حكاية خرافية . حول الاصطلاحيات الى أوامر . كـان استاد طموح ، كما كان يقول باريس : « استاذ طاقة » .

ـ القـديس راستينياك ؟ لكنـك كتبت : « الـدفـع العنيف للطموح ، الذي يساند رجل التحركات » او ما يشابه . . .

ـ لم يكن المقصود ، هوى الدرجات والتشريفات ، بل رجاء التأثير على الأحداث الكبرى . الطموح الفردي هوى طفولي . من هنا تفضيل مـا به يـظهر ، عـلى ما هـو . . . وهذا هـو نابوليون ! وكان قادراً على تدجين وحدته في سانت هيلين . . . فهل كان له اكبر من دعوة فرنسا ؟ كان يحب الجيش الفرنسي ، اذ عهدئذ ، وتحت امرته ، كان الجيش الأقوى . لكنني اظنه وعى قدره ، حتى في سانت هيلين ، على أنه قـدر فرد غـير عادي . مع ان الفرد شيء صغير في ازاء شعب .

ـ هو حتماً سيد راستينياك ، سيدي الجنرال ، لكنه سيد نيتشه ايضاً . مهما حصل في سانت هيلين ، كان طموحه مكتفياً . يقول ستندال انه لو وحد ايطاليا عام ١٨١٣ ، لكان تمكن من

مواصلة الحرب فيها بعد واترلو .

ـ كان يجد ان لديه ايطاليين ، لا ايطاليا . فيما كان يحس ان معه فرنسا . . .

ـ أود معرفة لماذا المتحمسون له يسلفونه من انتصاراته ولا يدينونه من انكساراته . ربما لأنه يدهشهم . والفرنسيون معترفون له ، كما للجمعية التأسيسية ، كما لجاندارك ، اذ يظهرون قوة عند احتياجهم لها . نابوليون وثق بهم . لذلك احتملوا واترلو .

ـ صحيح انه لم يكن دائمًا على مستواه المطلوب . لكنه كان دائمًا يواجه ضده المثرثرون . وهؤلاء يؤذون . . .

وبدرت منه حركة معناها : « هل يمكن اتهام الناس بالمرض ؟ »

ـ طبعاً تعرف ماليزون ، سيدي الجنرال . وانت سيدتي . . .

ـ طبعاً .

لم اذكر انني سمعت هذه الـ « طبعاً » من امرأة ، منذ رئيسة دير فيلغرانش التي سألتها ان كان لديها انجيل يوحنا . . . قال الجنرال :

ـ لا تزال موجودة ، الخميلة الكان بونابارت يمارس تحتها رياضته .

ـ كانت شجرة مقابل بوابة الحديقة . بين غصنيها الكبيرين ، رأى نجمته ، وهو عائد من أوسترليتز . وحين ذهب الى

مالميزون بعد واترلو ، لم يكن استذكاراً لجوزفين ، اذ استقبلت هناك القيصر ، بل ، كما يقول الجنرال برتران ، ليجد هناك نجمته الكان اضاعها منذ سمولنسك . وهو روى القصة على متن السفينة التي حملته الى سانت هيلين . كانت معركة اوسترليتز في الثاني من كانون الأول ، وواترلو في ١٨ حزيران . لم يكن الامبراطور فكر بذلك . . . وهكذا ، راح في مالميزون ، شارداً تائهاً ، تحت القناديل في اروقة مالميزون ، يبحث عن قدره الضائع ، وبعد ايام ، يستقل السفينة « بلروفون » . . . كان الأمير نابوليون راح يرى الحديقة ، لكن الشجرة كانت شاخت كثيراً ، فقطعوها .

ـ لا يمكن ايجاد النجمة عند البحث عنها . . .

ـ « احكي لنا عنه يا ستي ، احكي لنا عنه » . إنه اعطى الشعب إمكان الوصول الى الارستقراطية ، وهذه الفرصة كان يسميها المساواة . لكن ما كان يسميه مجده ، ويضعه فوق الكل وحتى فوقه هو ، كان من طبيعة اخرى .

ـ اراد جعل الفرنسيين ارستقراطية ، ولكنهم لا يحبون شيئاً حبهم لها . وممن كان محبوباً سوى من الشعب ؟

ـ وما الشعب ، سيدي الجنرال ؟

ـ فرنسا ، طبعاً . . .

العبارة نفسها التي قالها ، عند انتخابه الثاني ، في مكتب الإيليزيه ، حيث اللوحات الفنية الرائعة ، وخارطة العالم ، والشبابيك الكانت تؤطر احواض الورد التي صارت وحيدة . وعاد الجنرال يسترسل :

ـ طبعاً ، لا أؤمن بمبدأ العدد ، لكن الهوى الجماعي موجود كذلك لدى الأقليات . افضل هوى فرنسا على هوى المجلس الاقتصادي او هوى الاكاديمية الفرنسية . . . الجماعات عرفت اهواء عظيمة ، والاجسام لا غنى عنها ، لكن الاهواء لا تنفعها كثيراً ، بل تخلطها مع العقل . نابوليون ، صار ـ في نظر اكثر اخصامه الاجانب ـ رجلاً عبقرياً . في نظرنا ، افهم ان يكون يؤكد لفرنسا انها اهم مما هي تظن . ولكن نحن ، ما فعلنا غير ذلك ؟ وبالنسبة للالمان ؟ هل يكون في نظرهم خلف شارلمان ؟

ـ ليس أشد غرابة من هيولى السيرة الى الحياة الاسطورية ، سيدي الجنرال . . . لماذ يوليوس قيصر هو احد ابرز الوجوه في الغرب ؟ عنده انتصارات مهمة انما غير عظيمة خارقة ، وحكم روماني حازم كما غيره . . . انما ، ثمة بلوتارك . . . وشكسبير . . .

ـ الانتصارات اقل اهمية مما نظن . لماذا تورين اشد احتراماً من كونديه ؟ ولا معركة لديه اهم روكروا . . . موريس ده ساكس لم يخسر معركة واحدة في حياته ، ومع هذا لا يساوي نابوليون الذي انتهى منكسراً . الانتصارات التي ليست سوى انتصارات ، لا يؤدي بعيداً . يجب ان يدخل معها عام آخر . ربما الأمة الآتية : جاندارك ، مستقبل العالم ، التفسير الغامض والرمزي للذين يصنعون التاريخ . أما نابوليون ، فكان منتصراً حين كان يقود الجيش الفرنسي ، ومنكسراً حين كان يقود الجيش العام الكبير ، وكان لم يعد كله فرنسياً ، الا في واترلو . . . فرنسا مدينة له ، دون ان تعرف ، بما عمله للفرنسيين . كانوا آتين من روسباخ ، حين هو واصل من

ايـطاليـا . جعـل من الجيش الفـرنسي مـا جعلت رومـا من البعثات ، والاسكندر من الجمعيات السياسية السرية . ثم ان الـ ٣٧ الف حارس ، فرنسيون ، حتى المبتدئون بينهم . وفيكتور هوغو جمع بينهم كلهم في براعة . . . اراد نابوليون ايجاد فرسان في الجيش ، يجعلهم فرسان جوقـة الشـرف . كما خلق فـرقاً فرنسية نخبوية لم يصدم أمامها احد . صدقوني : فرنسا لم تنس له ذلك ، ولو هي اعتقدت انها نسيت . عام ١٩٤٠ ، كان معي يقول للفرنسيين انهم ليسوا ما يبدون عليه.

وبدرت منه حركة غريبة ، كما لو أنه انب نفسه على كونه تكلم في مواضيع جدية الى مائدة الغداء . ثم استأنف بلهجة شبه ساخرة :

ـ وماذا عن مشروعك لنقل جثمان ابن نابوليون ؟

ذلك انني كنت وجدت من السخف ان يبقى تابوته موازياً لتوابيت كبارنا ، فاقترحت ، طالما انه في الانفاليد ، ان يوضع على قدمي تابوت والده .

ـ اعتقد ان النقل تم . . .

ـ لم نشعر بذلك . لم نعد نعرف بأي شيء . . .

واردف ، في فضول لا مبال :

ـ لماذا ، ترى اتخذت شركات كثيرة للتأمين رمز النسر شعاراً لها ؟

ـ ربما لأن ابرزها اميركي المصدر . . .

ـ ليلياً ، اسمع في الراديو عن جادة الرئيس كينيدي
مرة سمعت عن جادة كليمنصو في واشنطن او لندن .
نيويورك ، استقبلك ، يومها ، جونسون ، اظن ؟

ـ نعم سيدي الجنرال ، بصفته نائباً للرئيس . . .

ـ مع أنه لم يبد بتلك الصفة . . .

ـ اظن ان الاميركيين ، في والدورف عام ١٩٤٤ ، ا
ليستقبلوك بالتصفيق . . .

ـ وارسلوا اليّ اوراقاً صغيرة ، في احدى الجادات . .
شعب متحمس ونظيف . . . لا بأس به .

ـ هل تتذكر حوارنا يوم عدت من جنازة الرئيس ؟
عن السيدة كينيدي . قلت لك انها لعبت في ذكاء لعبة
تتدخل في السياسة ومع هذا تعطي زوجها مجد نصير ه
كان يجده لولاها : يوم غداء الخمسين حملة جائزة نو
فأجبتني انها امرأة شجاعة وراقية . انما لا تخطىء بتقدير قا
لأنها نجمة ، وستنتهي على يخت احد امراء البترول . . .

ـ أنا قلت لك هذا ؟؟ غريب . . . مع أنني كنت اقا
قد تتزوج من سارتر او منك . . . قالها بلهجة ساخر
الأولى ، في حالة من يبدو غريباً عما يقول . . . فأكملت :

ـ تتذكر اليافطات في كوبا ؟ «لا لكينيدي .
لجاكلين » . . .

هنا تدخلت السيدة ديغول :

ـ شارل ، لو كنا ذهبنا الى هناك ، هل كانت

يافطات : لا لديغول ، نعم لايفون ؟

نادراً ما كان يجيب عن الاسئلة الساخرة . حين دخلت احدى صديقاتنا دير الكرمليات ، كتبت مقالاً وداعياً . فقال لي : « لا تنشره ، يمكن ان تعدل عن رأيها اذ لم تقدم نذورها بعد » .

وبالفعل ، عدلت عن رأيها .

عدت الى السؤال :

ـ أي انطباع تركت فيك انديرا غاندي ؟

ـ كتفان هزيلتان يقوم عليهما قدر الهند ، وتحملانه . تظن ، لو وصلنا الى القنبلة الذرية قبل الاميركان ، كنا انتهجنا السياسة نفسها ؟ لو رفضت حكومة المديرين نابوليون ، لكان تغير كل مصيره . ولو كان بورقيبه من مواليد الشمال ، لكان عمدة مرسيليا . اجمالاً ، النساء يفكرن بالحب ، والرجال بالمراكز المميزة . بعد ذلك ، يفكر الناس بالسعادة ، وهي غير موجودة .

تذكرت عبارته : « وهم السعادة موجود للسذج . هل كنت سعيداً يوماً ؟ ربما ، من زمان » . وتذكرت عبارة جيد : « غريبة ، هذه النقيصة فيّ أن لا اعرف كيف اكون سعيداً » .

وأجبت :

ـ النساء يفكرن في الحب . صحيح . لكن « امرأة مرهفة » اوحت الى ستندال ان عملية البلورة عادية ، بينما ان تكون المرأة بلورة ، هنا الأهم .

وعادت السيدة ديغول الى مزاحها :

ـ ولكنك ، شارل ، اعطيتهن حق التصويت . . .

ـ فرنسا لا تنشطر .

ـ وعفوت عن جميع المحكومات بالاعدام .

ـ النساء يملكن الافضل والاسوأ . لا يجب اعدامهن .

هل تعني لهجته : انهن غير مسؤولات ؟ ربما . لكن لهجته تغيرت ، وأكمل :

ـ لم الجمال النسوي قناع ؟ المنحوتات ، اللوحات ، الأفلام . . .

ـ انه الماكياج . اللواتي كان لي شرف استقبالهن معك : مارلين ، لودميلا تشيرينا ، بريجيت باردو ، لم يكن يصلن الى الايليزيه بملاقط الشعر . الفنانون يخترعون الاحلام ، والنساء يجسدنها . لكن المسيحية وحدها اخترعت الانوثة الخالدة .

ـ لماذا ؟

ـ حاولت مرة ان افهم كيف فينوس ده ميلو تمكنت من أن تصير عذراء قوطية . هذا حدث اول جعلني احلم . حين الكنيسة تعتقد ان مصيرها متوقف على كلوفيس ، الوثني . تبحث له عن امرأة كاثوليكية . ولكن كلوتيلد اميرة سويسرية . انما الكنيسة لا تبحث عن الاجمل ، بل عن المرأة الجذابة . اشهر بنات الهوى ، كن جميلات جداً ، بل رائعات الجمال ، انما غير جذابات . انها الانوثة ، تحددها العذوبة . في ما بعد

سيطرت في المسيحية عبادة مريم ، فاذا اكثر الكاتدرائيات على اسم « السيدة » . تعرف النظرية القائلة ان الاقطاعيين عندما انطلقوا في الحملات الصليبية ، راح الفرسان (المجندون منذ سن الثالثة عشرة والذين لم يروا في حياتهم الا امهاتهم وشقيقاتهم او الفلاحات اللواتي كانوا يضاجعونهن) ، يكتشفون ، مع السيدة الاقطاعية التي صارت تترأس الاجتماعات في غياب الاقطاعيين ، سيدة في الخامسة والعشرين ، ذات جاذبية اطاشتهم . . من هنا ، قلت ان المسيحية خلدت الانوثة الخالدة . لكن هذا منفصل عن الميدان الديني . آنياس سوريل كشفت عن نهدها في صورة للعذراء . واللحظة الحاسمة في الرسم ، حين الرسام يكتشف الانوثة الخالدة ازاء العذراء . . .

ـ أكمل . . .

ـ« الجوكوند » ، هي اللوحة الوحيدة التي يجمع عليها الكل . ولو لم تكن محمية من زجاج واق ، لكانت ثقبت من زمان . كان سارقها حملها الى غبريال دانونزيو ، مذهولاً . وكانت الشرطة عثرت على الاطار والبصمات وواصلت البحث . وكان السارق ، بيروجيو ، لم يعمل في اللوفر قبل ستة اشهر . لم تكن بصمات ، مع الشرطة ، لكن هذه دخلت غرفته ، وكتب رجال الشرطة تقريرهم على الطاولة الكائنة تحتها اللوحة دون اطار . وحين ارسلناها الى الولايات المتحدة ، على متن الباخرة « فرانس » ، وزعت الازهار على الركاب ، وبقيت بطاقة مكتوب عليها : « الى الموناليزا » ، ظنها القبطان لأحد الصحافيين ، لكن

البطاقة كانت بيضاء . على أن الجوكوند قد لا تكون الموناليزا ، بل كونستانس دافالوس ، المتشحة بحجاب الحداد ، واقدم بنحو عشرين سنة . ما يكون عمرها ؟ علقت في حمام فرنسوا الاول ولويس الرابع عشر ونابوليون ، اي في زمن لم يكن يمجد ليونار ، الذي كان ذا شعور خاص ازاء رسمه ، حتى كتب : « كان لي يوماً ان ارسم وجهاً الهياً حقاً » . طبعاً ، الوجه بدا كما الهياً ، لأن بعث الاشكال القديمة كان من المنحوتات ، وهذه بلا نظرة حية ، اذن بلا روح . من هنا ، في واشنطن ، قلت إن « المرأة ذات النظرة الالهية تنتصر على الآلهات اللواتي بلا نظرة » . « فالوجه الذي بلا نظرة ، كما في المنحوتات القديمة ، هو التجريد : النوم او الموت » . هل تحب المنحوتات الاغريقية ، سيدي الجنرال ؟

سألته ذلك ، لأنني لمحت في مكتبته عناوين بعض المجموعات .

ـ دفعتني غير مرة الى تدشين بعض المعارض التي حملتني على التفكير . كمعرض المكسيكيين مثلاً . المنحوتات التي تستحثني ، تلك التي تعود الى القرون الوسطى . . . اعجبني قولك مرة ، ان زمان الصليبيين اطلع على قديسين عسكريين ، لا فرساناً . كيف تم اختراع القديس جاورجيوس وهو لم يوجد قط ؟ ما همّ . المنحوتة القوطية ، الرومانية ، تستحثني . الباقي من عالم الآثار . . . ترى ما كان حلّ بالفن اليوناني ، لو انكسرت اليونان في سالامين ؟ .

جوابي عن سؤاله ، أعرفه . لكنني لم اعرف على ما سأبنيه . . .

ـ الأسكندر قضى على كل شيء .

بدا كأنه يزيح حلمًا ، وقال :

ـ صحيح . وعند الفجر ، هجم الذئب على عنزة مسيو سوغين ، فافترسها ، وهي كانت تناضل طوال الليل . . . هل استقبال الولايات المتحدة للجوكوند كان كما وصفته الصحف ؟ .

ـ غداة الخُطَب ، رأيت زحف الجماهير في واشنطن ، مع الأطفال احياناً ، نحو الأيقونة الكبرى . وفي نيويورك ، حيث كان يبدأ الصف الطويل لمشاهدتها منذ السادسة صباحاً ، وصل شاب في العشرين ، يلبس سترة مبطنة بالفرو ، منتفخة كما لو خبأ فيها بندقية . قفز عليه الشرطي ، وراح يفتشه ، فقفز من عبّه كلب صغير ، فاستدرك الشاب : « اردت ان يكون فوكسي الكلب الوحيد في العالم يرى الموناليزا » .

وهزت السيدة ديغول رأسها تقديراً . فقال الجنرال :

ـ سنرسل اليهم ، بعد ، لوحات ، إنما من مستوى آخر . ولكن ، ألم يكن سفرك الأول ، بخصوص اللاجوكوند ؟ . ما زلت اتذكر برقياتك فترتئذٍ ، أو بالأحرى برقيات السفير . كانت ذات ملخص جدّي . وكنت أعرف ان الرئيس كان يتمنى المصالحة معي ، لا على موضوع الجزائر . . . فما قولك اليوم ؟ .

ـ أجرينا معاً لقاءات مختلفة . الأول ، لن أتكلم فيه . رافقني سفيرنا . ولم يكن في نية الرئيس تغيير رأيه في شيء ولا في أحد . . . كان متجمداً أكثر من مفتكر ، لأنك كنت طاغياً في عينيه ، ولم يكن من لمحة فيهما لفرنسا . اذن ، لا اتفاق حول

الكونغو ، ولا حول فيتنام . ووصلنا في الكلام الى الجزائر . أبدى ليونة ، إنما اهتماماً كبيراً . قلت له : « آجلاً أم عاجلاً ، سنصل الى استقلال الجزائر . معنا أم ضدنا ، لا فرق . عندها تتصرفون الى افريقيا أو آسيا ، واتمنى لكم حظاً موفقاً » . في البدء ، ظنني أهذي ، ثم بدرت منه حركة غامضة ، كما ليستبعد الموضوع . كان اللقاء انتهى ، إذ لم يعد لي ما أسأله إياه . فقام عن مقعده الوثير ، في تلك القاعة الكبرى حيث كنا وحدنا ، وتقدمني قائلاً : « نقمة السيدة كينيدي ستمحو كل شيء هذه الليلة (كان يستقبلني في البيت الأبيض) ، ولن نتكلم على لافاييت » . فأجبته في مرح : « ومن يكون هذا الفتى ؟ » ، فضحك عالياً ، وانفتح الباب المزدوج عريضاً ، فدخل المصورون يلتقطون لنا صورة ضاحكة ، كما لوريل وهاريل .

ـ وعند المساء ؟

ـ ملاطفات . . كنت في غرفة تحوي السيدة كينيدي . وكان هو في غرفة أخرى . وكانت السيدة كينيدي فعلت ما في وسعها ليبدو هذا اللقاء (وكان قال عنه : « لقاء حاداً ») مفطر ببعض الحرارة . وقبل نهاية الأسبوع ، وتبادل الحراقات (كان شغوفاً بمصغرات المراكب) كان قال عني : « هذا موضوع ، يهم جاكي » .

ـ ورحلتك الثانية كانت بخصوص الجوكوند ؟

ـ لم يكن في هذه أي اشكال . فالحرارة الاميركية عميقة ومخلصة . كان الرئيس يظننا ، نحن الفرنسيين ، ندير شؤوننا

بالصداقة . وجرت احداث تعرفها اكثر مني . . . كان يظن انك، أنت أرسلت الجوكوند ، وأنّ لي بعض الضلع في ذلك . كان رجلاً مرهفاً تجاه المجاملات ، فدعاني الى منزله الريفي . . . وبعد غداء من السراطين الرخوة . . .

قاطعتني السيدة ديغول :

ـ وما السراطين الرخوة !

ـ هي التي تصل المائدة كما لو كانت أصلاً بلا قوقعة . هذا كل ما فهمته . . .

ـ هل هي لذيذة ؟

ـ كالسراطين العادية .

ـ تدخل الجنرال .

ـ وعندها تكلمتما جدياً ؟ يعني . . . لا اكثر من كولومبي . . .

ـ سيدي الجنرال . . . لدى روبرت كينيدي ، شقيق الرئيس ، كان كلب اسمر ينتظر المدعوّين في مدخل الممر . وكان آخر ، من الفصيلة نفسها ، إنما أسود ، على مدخل البيت . وحين رفعت كأسي قلت : « مشكورون لأنكم استقبلتمونا بكلب فهم ان يكون باللباس الرسمي » . . . فساد الجو مرح عام . ذلك ان الولايات المتحدة ليست تتقيّد بالبروتوكول ، وغالباً ما تكلمت مع الاميركيين بهذه الحميمية التي تسميها أوروبا جدية . . . وقتها ، كان الرئيس واصلاً بالطائرة من اجتماع لنحو ثلاثة آلاف نسمة ، فوجد فيه ثلاثمئة

ألف . قال لي : « حسب معلوماتي ، هكذا الأمر مع الجنرال ديغول . فلِمَ ؟ » أجبته : « لأن الأسطوانات جعلت الجمهور لا يعود يهتمّ للموسيقيين . . . وانتم ، وسائل إعلامكم ليست الأسطوانات » . بعدها ، رحنا نتكلم على فرنسا ، فقلت له اننا تعرضنا مراراً للاجتياح ، مما لم يحصل للولايات المتحدة ، وإن حكومة عندنا لا تؤمّن الدفاع الوطني ، لا تكون شرعيتها إلا ظاهراً . اظنك قلت له ذلك ذات مرة قبلئذٍ . . .

ـ ما هكذا بالحرف . وما أجابك ؟

ـ باختصار ، قال لي : الدفاع عن أوروبا ، مهمتنا . فأجبته ان الدفاع الوطني هو إرادة الدفاع نفسها ، كما مع ماو ، وكما في فيتنام . فكّر لحظة ثم أجاب : « فرنسا بلد عجيب : أتذكر مآسيها بعد انتصاراتها التي جعلتها أول بلد في اوروبا ، وبحريتها المعاد تنظيمها ، المساعدة التي أسدتها الينا ، الثورة ، نابوليون . . . ١٩٤٠ ، واليوم الجنرال ديغول » . قلت له انها بلد لا يخضع للمنطق ، ولا يجد نفسه إلاّ حين يبذلها للآخرين : الحملات الصليبية ، والثورة ونابوليون . انكلترا لم تجد نفسها عظيمة كما عندما كانت وحدها ، ومعركتها عام ١٩٤٠ ، لا مثيل لها منذ درايك ، فيما فرنسا لم تجد نفسها عظيمة إلا عندما كانت عظيمة للعالم .

ـ ثمة ميثاق عريق بين عظمة فرنسا وحرية الآخرين . . .

ـ صحيح ، سيدي الجنرال . . . وأنا كنت أعرف ما به يفكر الرئيس كينيدي : لا يمكن الولايات المتحدة ان تبني سياستها الأوروبية على فرنسا ، ولا يمكنها كذلك تجاهل فرنسا لأن

الفرنسيين قادرون على كل شيء ، كما ، مثلاً ، على اختراع الجنرال ديغول . . . وعقّب كينيدي حديثه عن الولايات المتحدة ، فقلت له ، ما كنت قلته لك بالأمس ، وكنتُ قلته في بكين لوزير الخارجية : « الولايات المتحدة هي الأمة الوحيدة التي صارت الأقوى في العالم دون ان تسلك الطريق العسكري . الاسكندر أراد ان يكون سيد العالم (عالمه هو) ويوليوس قيصر . لكن الولايات المتحدة بحثت عن هيمنة اقتصادية ، وهذا أمر مختلف تماماً . وبما انها اليوم تتمتع بهذه القوة الهائلة ، تتساءل ماذا ستفعل بها ؟ » . وخيّل لي انني التقيت وإياه على فكرة واحدة : كان يرغب حل مشاكل اوروبا وآسيا بقرار من الولايات المتحدة ، ولذلك اثارني في المرة الأولى . صحيح انني اؤمن بقوة الولايات المتحدة ، لكن القوة شيء والتاريخ شيء آخر . قرطاجة ، كذلك ، كانت قوية .

ـ لا تخطىء : كان يريد ، بأي ثمن ، المحافظة على الوضع القائم للولايات المتحدة في دفاعها عن الغرب . ولست على يقين من انها ، رغم قيمتها ، لم تعِ الفرق بينها في أوروبا وبينها في اميركا . . . فالولايات المتحدة ، في اميركا ، نشأت من لاشيء ، على سيبيريا خصبة ، من مجموعة مراكب غادرت جذورها . واذا صارت الولايات المتحدة سيدة العالم ، سترى الى اين ستؤدي بها إمبرياليتها .

ـ تذكرت عندها عبارة الرئيس ايزنهاور : « لن أمثل أمام الله ويداي ملطختان بالدم » .

ـ لكن الدم يجفّ في سرعة .

ـ قلت للرئيس كينيدي : « انتم اليوم مرغمون على سياسة عالمية ، كما أرغمت روما ذات فترة على سياسة متوسطية . ومنذ خطة مارشال ، ما كانت السياسة العالمية للولايات المتحدة » ؟ .

واحسست انه فعلاً يريد مجابهة التاريخ ، وتحمل المسؤولية ، الكبرى التي على الولايات المتحدة ، والتي يعيها تماماً . واعتقد انك ، اذ اعلنت ذلك له ، أقمت العلاقة العميقة التي لا الى هدم ... وهذا الرئيس السياسي الحذق ، كانت فورات غضبه تفصله عن السياسيين ، حين يدخل في اللعبة مصير الدولة . . هل تذكر قوله على شاشة التلفزيون : « كان ابي دائماً يقول لي ان الصناعيين ، إزاء البلاد ، يتصرفون كما ابناء العاهرات ، ربما كان يحس عندها بالخطر ، لكنه لم يكن يبدي أيّ اهتمام ظاهر في ذلك».

ـ إعلم أن الشجاعة ، في عدم الاكتراث للخطر ، ولو كان الموت اغتيالاً أو بصاعقة .

قالها الجنرال وهزّ كتفيه . . . فقلت :

ـ حين اغتيل يوليوس قيصر ، كان يحمل في يده لائحة المتآمرين ، إنما لم يقرأها . والرئيس ، حين حدّثني عن لنكولن ، هزّتني لهجته . كان يأمل ملاقاته على حياته ، فالتقاه في الموت . وكان أن غفلة من شرطة دالاس ، كانت كافية لتغيير تاريخ العالم .

ـ اظن الرئيس كينيدي مات يوم عيد ميلادك . القدر يلعب وحده لعبته السحرية : شكسبير ولد عام وفاة ميكالانج ، والشمس نامت في حضن قوس النصر يوم ذكرى وفاة نابوليون

الذي لم يرها قط . وكان آخر عمل رسمي قام به لويس السادس عشر ، ترقية ملازم في الجيش اسمه بونابرت . . .
إذن ، بعد الاعتبارات التاريخية ، قال لي الرئيس في طريقة جافة : « ستكون للصين قنبلتها الذرية . فهل تتدخل منذ الآن ؟ » . لم يكن يعلّق كبير أهمية على ذلك ، إنما كان يعتقدني لن اتكلم مثل مستشاريه الأميركيين ، وسأحمل له ميداناً جديداً للتفكير ، وكان ينتظر ، حتماً ، من جوابي ، صدى لأفكارك وتفكيرك .

ـ أذكر ، قلتُ له ان الصين لن تكون لها قنبلتها الذرية قبل عام . . .

ـ وكان هذا صحيحاً . لكن ما لم أفهمه ، لاحقاً ، حين تكلمت مع الصينيين ؛ لماذا اعتبار التدخل الاميركي نوعاً من الحرب (وإلا لما كان الاميركان نزلوا في الصين) بدل اعتبار انّ سحق بعض المراكز الصناعية الصينية اعاد الصين خمسين عاماً الى الوراء ؟ اعتقد انه سألني السؤال نفسه الذي سألته إياه وزارة الحربية . وأجبته ان معه من الوقت أكثر مما يظن ، واضفت ، متحفظاً ، انه لن يتدخل .

ولم يُجب الجنرال . . . هل تساءل ، مرة اخرى ، عما كان يفعله لو هو يملك القوة الاميركية والقنبلة الذرية ؟ هل فكّر بروسيّا ؟ في الخارج ، يتساقط الثلج كما على المدينة المحرّمة . عدتُ الى الكلام :

ـ أراد كينيدي حتماً ان يقوم بعمل تاريخي ، له وللولايات المتحدة . ولكن لا يمكن وعي عمل أقوى بلد في العالم ، دون

اعتباره امبريالية .

ـ من يدري كيف سينصفه الزمان ؟ كان رئيساً حقيقياً : كان مهندساً لا مديراً . أراد ان يعمّر . داهمه الموت . هل تقام التماثيل للطموحات ؟ كل الموضوع يتوقف على الخلف . نيكسون سيخرج من قمقمه بشكل أو بآخر . هل سيكون لهذا البلد أن يعي سياسته التاريخية ؟ أم اننا سنشهد بطئاً في التحول ؟ البلاد المستقبلية لا تفكر قط في المستقبل . لماذا ؟ لم تعد لروسيا سياسة ثورية . وستكون للصين سياستها الثورية طوال خمسين عاماً لتصنع الصين .

ذكرني كلامه بالقول السائر : « الأم الحزينة لأمبراطورية ميتة » . ولكن أياً كانت نظرته ، حافظت لهجته على تفاؤل لامبالٍ بالطاقة . وعاد الى الحركة التي اعتاد ان يمحو بها كل شيء .

ـ هل أتيح لكِ ان تشهد احد اجتماعات الهيبيين ؟

ـ اظن انها تمت خاصة في كاليفورنيا .

ـ تهمني هذه . ما يريد الهيبيون بالضبط ؟

ـ انه نمط حياة . ايديولوجيتهم ـ كما من سبقوهم وسيلحقون بهم ـ ليست جوهرية : الشاذون منهم يدّعون الوجودية ، الهيبيون يدّعون الانتساب الى غاندي ، والرافضون ، الى تشي غيفارا . . . ثمة ايضاً العدمية . . ويلفت ، جداً ، قول تلك الطالبة في نانتير : « حين تعرف ماذا تريد ، تصير بورجوازياً » . شخصيات دوستويفسكي في « المعتوهون » ينحون هذا المنحى .

ـ وماذا تقيم ازاء « معرفة ما تريد » ؟

ـ الغريزة . فأحداث أيار ولدت من زواج ثورة شيوعية ـ نقابية ـ حذرة ، وهيجان لاعقلاني لدى الشبيبة . وكل ذلك في غمامة من الخيالي التاريخي ، كما في كل مكان . . .

ـ عدا في روسيا .

ـ منذ بحارة كرونشتادت ، لم يعد للخيالي الفوضوي مكان في روسيا .

ـ العدميون الروس كانوا يرتكبون جرائم .

ـ وكان القيصر يقتلهم بدوره . تغير الجدّي كثيراً . والرس كانوا أعفّاء ولا يتعاطون المخدرات في المغامرة الحالية ، ثمة قطاع جسدي ، هو المعُوض . من هنا أن الثورة ، لدى العدميين ، كانت قيمة عليا ، تعاملوا معها ، كما قلت الآن سيدي الجنرال ، بواسطة التحرك الرافض . والثورة التي بها يحلم العدميون عندنا ، تنتمي الى ما أسميته الوهم الغنائي . وما يناهضون به المجتمع الاستهلاكي (وهو عندنا غير مستقر) ، ليس مجتمعاً آخر ، بل احتقارهم للقائم . لكن الاحتقار ليس قيمة عليا . مرة ، أحد الطلاب الكنان يجري تحقيقاً بين الطلاب ، قال لي : ثمة ما هو أهم من الهيبيين والرافضين : عدد الشباب الذين يقولون : « لا فرق . لا شيء يهم . الطموح موجود دائماً » . إنما حدثياً . كان يجب أن يأتيه نابوليون ، والبورجوازية والروايات والولايات المتحدة ، ليتوازى مع الحبّ ، ويصير هوس العصر الأول . لم يكن لجوليان سوريل شقيق اكبر . فهل نحن نشهد انحساراً كبيراً للطموح ؟ ليس

اكثر من ١٠٪ من الطلاب مسيّسون .

ـ الاحتقار ، اللامبالاة ، الأخوّة . . . كان أوريول المسكين يقول : « اريد اكون رئيس جمهورية أخوية » . إذ للسياسي أن يكون خادماً ليصير سيداً . في العالم كله ، ثمة ذوو النوايا الطيّبة . مرّ الزمان ، ومرّ القدر . وعام ١٩١٤ ، عرفت فترة شباب مأخوذة بالفضول الذي يسبق المعارك الأولى . مع هذا كانت تلك الفترة تحس بدنو المحصدة ، فلم تلبث ان ماتت . . . وهكذا اليوم : ظنت الولايات المتحدة أن الديمقراطية ستحلّ كل الأمور ، وها هي اليوم عاجزة عن حل هذه المسألة . ديمقراطيتها هي المساواة ، وشعور آخر يضع الديمقراطيات الانكلوساكسونية والسكندينافية فوق ديمقراطيتنا : عبادة الشرع . والشرع هو الدولة . في السياسة ، كما في الدين ، لم يعرف اللاتينيون يوماً متى كانوا هم روما ، ومتى كانوا يتوهمون ذلك . هل قلت ان روما كانت نقيض الحركية المتوسطية ؟ .

*

انتقلنا الى الصالون ذي المقاعد الجلدية ، نحتسي القهوة ، فكانت الهرة غريغري سبقتنا الى احد المقاعد . أدلهمّ الغيم في الخارج ، فطغى العتم في الغرفة . التفت إليّ الجنرال وقال ببعض السخرية :

ـ الست أنت الذي دّرج كلمة ديغولية ؟ ما كنت تقصد بها في البدء؟

تغيرت لهجته من جديد . لم يعد الموضوع عن الهررة ولا عن

الاستراحة العيلية الكان يتكلم بها على غيفارا أو على نابوليون . وكما في ولائم الغداء الحميمة أيام الايليزيه ، احسست ان الاستراحة انتهت . فقلت :

ـ في البدء ، أيام المقاومة ، كنت أقصد بها : الأهواء السياسية الجامحة ، في خدمة فرنسا ، مقابل تيار : فرنسا في خدمة أهواء اليمين واليسار . بعدها ، صارت مجرد عاطفة . . . عاطفة أن دوافعك ، حسنة أو غير حسنة ، كانت غير دوافع السياسيين .

ـ حين رأيت السياسيين مجتمعين للمرة الأولى ، احسست بهم عدائيون للجميع . لم يؤمنوا بديكتاتوريتي ، لكنهم فهموا انني أمثل الدولة . سيان : فالدولة هي الشيطان الذي اذ ينوجد يمحون هم ، ويخسرون ما به يتمسكون : لا المال ، بل ممارسة ادّعاءاتهم . . .

ـ ولكنك لم تكن تسهّل لهم حياتهم : كانوا يعدون بهدايا ، فكنت تعدهم بالتضحيات . والفرنسيون ، طبيعتهم ، مناهضون للملكية ، وتنظيم التعليم الابتدائي منذ الجمهورية الثالثة ، ليس دون خلفيات . وهم مناهضون للسياسيين غالباً لأسباب سيئة . مرة قال لي غي موليه انه لا يكاد يملك ٨٠٠ ألف فرنك من ثمار عهوده ، وكان ذلك ، حتمًا ، صحيحاً . (حين كانت وزارته ووزارتي في المبنى نفسه : في الفندق المقابل لماتينيون ، كانت غرفتي هي غرفة الفرسان القديمة ، فيما كان هو في غرفة الكهنة) .

ـ اعترف ان كبار السياسيين اكثر صدقاً مما يُظن . خاصة في

حبهم للقصور الوطنية . حين عاد هيريو ، شرح لي في خمس دقائق ان عليه الالتحاق بأوتيل لاساي المخصص لرئاسة المجلس . لم اوافق لأنه لم يكن رئيس المجلس . ولم يغفر لي ذلك في ما بعد .

ـ يبدو لي أن الفرنسيين لا يقدرون طويلاً إلا رجال السياسة المرصودين على هدف عظيم : فرنسا ، السلم ، كما كليمنصو وبريان ، وحتى بوانكاريه ، بسبب الحرب . أي الذين لا يكون تحديدهم بمجموعة طموحات وانتخابات وإعجاب .

ـ صحيح .

ـ قدمت للفرنسيين هبة لا يحلمون قط بها : أن ينتخبوا ، فيهم ، الجزء الأفضل . جعل التضحية شرعية ، لعله أعظم ما يمكن ان يقوم به إنسان . الشيوعيون ، الى حد ، قاموا بذلك تجاه شعبهم .

ـ من هنا ، كان افضل ، أمام محاكمنا ، أن يكون الحازم سَالان ، لا البريء توخاتشفسكي ، في وجه محاكم ستالين . وأعترف ان اذا مات جنود في سبيل قيام الجمهورية ، فلم يمت احد في سبيل الحزب الراديكالي . وستعود فرنسا من جديد الى التسيّس .

ـ لكن فرنسَاك لم تكن يوماً من الناحية العقلانية . كما فرنسَا الصليبيين . وإلا فلماذا لاقاك شباب جزيرة سِين ؟ ونحن ؟ كنت تقول لنا اننا في النهاية سننتصر . . . وكنا نفكر اننا سنموت . وكان ديغوليو اليسار يأملون انك ، آجلاً أم عاجلاً ، ستقوم ، في الحقل الإجتماعي ، بما لم يعودوا يتوقعونه من

الشيوعيين ولا من الاشتراكيين . ومع هذا ، لم يتبعوك ، فقط ، من اجل ذلك . عام ١٩٤٠ ، كانت العدالة الاجتماعية حلمًا بعيداً : ستالين حليف هتلر وهتلر في باريس . لكن الشيوعيين انضموا الينا في ما بعد ، حين شعروا أن الدفاع عن البروليتاريا المسحوقة يلتقي مع الدفاع عن فرنسا المسحوقة .

- ومع الدفاع عن روسيا .

- ان ما أعاق الديغولية عن بلوغ حجم القومية ، هو ضعفها . قوتك كانت في انك لم يكن لك شيء . لم يقم ديغوليون ليتبعوك . وان كان لي أحكم على الأمر ، من خلال الصحافيين الكانوا يأتون يستصرحونني ، فالقطاع الرئيسي لفرنسا المناضلة وللمقاومة كان بدأ يّمحي : التيار المناهض للفاشية . انت آخر قائد مناهض للفاشية في الغرب . واكثر قدامى المحاربين في اسبانيا ، اسبانيين أو فرنسيين ، ممن تبعوك أيام المعاهدة الألمانية السوفياتية كانوا مستمرين في النضال ، بل دهشوا جداً حين لم يجدوا فرانكو ، بين هتلر وموسوليني .

- جيّد انك تذكر الأجانب إذ تتكلم على المقاومة السياسية لا الوطنية التي لولاها لما كان للأولى كبير وزن .

- لكنهم اكملوا معنا النضال ، عوض ان يلتحقوا بالجيش الاميركي . ولهذا معنى كبير . ولا أظن مؤرخاً في المستقبل يمكنه تفسير الديغولية بتعابير سياسية بحتة ، أو وطنية بحتة الديغولية ، كانت فرنسا ، مضافاً اليها أمر آخر . . . مرة ، حين وصل أحد اصدقائي الانكليز الى كاليه ، عام ١٩٤٥ ، وجد فوق رف البار الذي دخل اليه ، صورة لك . فسأله صاحب

البار : « هل أنت ديغولي ؟ » ، فأجابه صاحب البار : « انا لا أهتم للسياسة . . . والرجل لا يدوم اكثر من ثلاثين عاماً ، وهذا الرجل أفضل من الجميع » . وكان القدر حملني الى الرحلة الأولى التي حُرمت إنشاد المارسلياز عام ١٩٥٠ . يومها ، كانت رحلة وزراء الجمهورية الرابعة . طلبت نوع نبيذ ، فنوعاً آخر ، ابتسم خازن الخمور وقال لي : « غيرت النوع كي لا ترسلني الى المستودع الأسفل ؟ ما همّ . سأذهب . أنا سعيد بخدمتك . بلادنا تفخر بكبار الأدباء ، لا بأولئك » . وأحسست ، سيدي الجنرال ، ان احد ابرز اسباب اعتباري ديغولياً مثالياً ، كوني لم أُنتخب قط . حين قلتني ، عام ١٩٥٨ ، غريباً جداً ، قلت لي بين الجدّ والقهر : « كن وزيراً » ، فسألتك : « ولِمَ ؟ » . في الديغولية ، ثمة ما يفسَّر وما لا يفسَّر . وربما أفضل عنوان لكتاب تكريمي ، عنك ، عنوان كتاب سوستيل : « إزاء وضد كل شيء » . كنت وحدك يوم ١٨ حزيران ، وها أنت اليوم وحدك .

قلت له هذا ، وأنا أعتقد أن « لا » المنفرد ، ترشح دائماً حولها . فقال :

ـ كان الجميع ضدي كلما كنت على حق . اعتدت على هذا .

ـ قلت ان جنودنا ما كانوا ليموتوا عن الحزب الراديكالي صحيح . لكن ضحايانا في معسكرات الإبادة ، ما كانوا ليموتوا عن انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام . وانني اتخذ المثال الأرفع . . .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

ابتسم في مرارة . ان له عبقرية الفطرة ، ولكن له كذلك حسّ القسوة والعنف . . اتذكر دهشته حين ، في موضوع انخفاض الفرنك ، قلت أمام الوزراء ما به يفكر . كان دائمًا يتكلم الأخير . يومها قلت : « أريد ان أفهم ، والديغولية دفاع البلاد ضدّ المضاربين في التجارة ، كما ضدّ الكثيرين غيرهم ، كيف تقبل بالانخفاض ، فيما الخبراء يؤكدون إمكان تجنبه » . ثم قلت بانفعال : « لا يمكن مصير فرنسا ان يحتمل حرب الجزائر إلا اذا انتهت بمعاهدة »

وفي ايار ١٩٦٨ ، قلت : « الذهاب الى الشانزيليزيه يلزمنا ، في خطر ، إن لم نكن عديدين . ولكن قد نصبح مليوناً. وعلينا ان نحاول » طبعاً ، لم يكن في حاجة إليّ كي يفكر بذلك لكنه كان سعيداً بسماع ذلك .

كان الجنرال ينظر الى الطاولة امامه ، حين قالت السيدة ، ديغول :

ـ خلال اشهر راقبنا النجاحات والسقطات . ودائمًا النسبة نفسها .

رفع الجنرال عينيه ، فكان في نظره ، كما في صوته ، البطء الذي أعرفه . قال :

ـ وماذا حلّ بكل ذلك في ما بعد ؟ .

توارد الأفكار ، مرة اخرى . « في ما بعد » يقصد بها : بعد وفاته . ذات يوم ، كان قال لي بلهجة فيها من الوسوسة اكثر مما فيها عنفوان : « ان قامت انتفاضة جديدة ، فلتكمل ما به بدأت

لا ما إليه يكون وصل غيري » . تراه ، يومها ، كان يفكر في مصيره ؟ (لأن حياته لم تعد تهمه) هل هذه صورة عن الارادة الفرنسية ؟ على كل ، كليمنصو كان هكذا . وفي المكتبة أمامي ، لمحت الغلاف المثلث الألوان ، لكتاب : « عظمة انتصار وبؤسه » . قلت له :

- ماذا تقول اليوم في كليمنصو ؟ .

- كان يكرههم كثيراً . إنما كان يؤمن بالقدر . تذكر حواره ، يوم قال له اللويد جورج : « فرانشيه ديسبيري حالفه الحظ » ، فأجابه كليمنصو : « عظيم . . كم من الناس يفتقرون الى الحظ » . لا أعتقد ان الحظ موجود ، لكن العكس موجود حتماً . وغضبه يعبّر عن غضب فرنسا . وعام ١٩١٨ قال في ما يُظَنّ اليوم انه خطابه الأول كرئيس وزراء : « في السياسة الخارجية أعلن الحرب . تخوننا روسيا وأعلن الحرب : أمام باريس ، في باريس ، خلف باريس . وهذا كافٍ » . وكان قوله رائعاً . . . كان يعرف الفرنسيين . تأمل المشهد الكان أمامك هذا الصباح . موقف قوي . لكن فرسنجيتوريكس خسره . كان عليه كل يوم ان يستقبل نقابات ورافضين .

- لكن كليمنصو حاول جاداً ان يسوّي المسألة . . .

- وبأية نتيجة ؟ بمطاردة النمور ؟

- زاهاروف - وكان أعطاه سيارته الروس رويس ، لم يكن يتخذ معاونين إلاّ من تجهم قططه . فكانوا يضعون بعض الناردين في اسفل بنطلوناتهم . ربما كان اغواء القطط أسهل من استهواء التاريخ . . . ما تقولين في هذا يا غريغري ؟ .

ـ غريب ان يتخلى كليمنصو فجأة عن السياسة . التاريخ يغيّر الرجال ، أحياناً . لكنه حافظ على غضبه . ومات على كره فوش ، الذي سوّى معه حساباته ، وعلى كره بوانكاريه الذي لم يكن سوى سوّى معه حساباته . مرة ، قال لـه فيليب برتلو (وكان دافع عنه أمام بوانكاريه) : « انت شرس كثيراً سيدي الرئيس » فأجابه : « تزوجت امرأة خانتني ، ورزقت أولاداً تخلوا عني ، وعرفت أصدقاء طعنوني . تبقى لي يداي المريضتان ، ولن اتخلى عن قفّازيّ ، ولم يبق لي سوى فكين ، وبهما يمكنني ان أعض » . أضاف برتلو : « ذكرني بالجنرال دوراكين : دائماً على غضب ، وليس من يعرف السبب » . وهـذه أقـوال باريسية . . . لكن كليمنصو تجاسر أن يقول للنواب : « اطردوني من المنصة ، إن كان ما تطلبونه ليس في خدمة فرنسا . لأنني لن ألبّيه لكم » . وهو قال للجنرال كوليدج : « تعال الى قرانا واقرأ لائحة الضحايا ، وقارن » . وكان قال مرة وحده : « أود ان يتجاسر الشعب الفرنسي ويتكلّ على نفسه . كان الفرنسيون عظماء دون ان يدركوا ، فلما هبطوا لم يعودوا يصدّقون انهم هبطوا » .

في الخارج ، هب هواء عاصف راح يغزل شرائح الثلج ، مما ذكرني بالمشهد نفسه وأنا في قصر « المصباح » اعيد كتابة أقوال العرافة التي انبأتني عن الاسكندر . بعد برهة قلت :

ـ تيميستوكل مات في خدمة بلاد فارس . وكان كلود مونيه يستشهد بعبارة فخورة من كليمنصو : الفخار للذين لا يخفضون أبصارهم أمام القدر . . . هل عرفت بوانكاريه ، سيدي الجنرال ؟ .

ـ كنت في المحطة الشرقية عام ١٩١٤ ، حين وصل يشهد انطلاق القطارات العسكرية الأولى . لم يصفق ، يومها ، أحد .

وعدت بالبال الى مشهد الكابتن ديغول في تلك المحطة . . . فكّرتُ بالرماحين يدورون في ليل آردين غداة إعلان الحرب العالمية الأولى .

هل يكون المستقبل كما وصفه صاحب البار في كاليه ؟ ستالين يستعيد بطرس الأكبر ، وجمهوريونا ، على رأسهم ميشليه ، يستعيدون جاندارك . التحاليل العقلانية سريعة الانكسار . هل كان يكفي عرض الوقائع حقيقية من الاذاعة ، ليفهم روزفلت (رغم عدائيته) وهتلر ان جثة فرنسا يمكن ان تستعاد وتبعث حية ؟ ماذا حملت الاذاعة الى الجنرال جيرو ؟ كيف كان له ان يقول : « فرنسا تنزف على الأرض ، لكنها تعرف وتحسّ انها ستحيا حياة عميقة وقوية » . وكيف ، من جهة اخرى ، يمكن تحديد العمل التاريخي القام به غاندي من خلال العمل السياسي ؟ والتاريخ الذي يجسده الجنرال ، الى أيّ حدّ يجسّد القدر ؟ وماذا كان يمكن ان يحصل ، بعد لقاء بوردو ، لو رضي هيريو باللجوء الى لندن ؟ أو لو كان نوغيس قَبِل قيادة فرنسا الحرة ؟ أو لو لم يضع فيشي الماسونية خارج القانون ، مثيراً نصف افريقيا الفرنسية لدى الديغوليين ؟ أو لو انتقل بيتان بالطائرة الى الجزائر ؟ أو لو هتلر كان وجد القنبلة الذرية قبل الاميركان ؟ إن حذاقة الجنرال ديغول السياسية لم تتحكم بقدره . بينما اقدار سان جوست وجاندارك وفريديريك الثاني (معجزة براندنبور) وماو ، كانت تهزني كما أقدار الأشخاص الملهمين المرصودين . اثنان كان يمكن ان يقطعا الطريق على

بونابرت : سان جوست (مات على المقصلة) وهوش (مات مسموماً) .

عام ١٩٥٨ ، كُلفت بحماية الجنرال . كنا نعرف ان قد تُطلَق عليه النار من أحد منازل ساحة النجمة حين يكون متأهباً أمام قوس النصر خلال عزف المارسيلياز . وحين دخلتُ مكتب جورج بومبيدو ، رئيس الوزراء عهدئذٍ ، كان يقول لأحدهم أشيب الشعر : « ملوك فرنسا الذين اغتيلوا ، قلّة : هنري الثالث ، هنري الرابع » . . . فأجاب الأشيب : « صحيح ، ولكنهم كانوا الذين يريدون توحيد الفرنسيين » . . . وحين سألت بومبيدو عنه ، قال لي انه مدير البوليس .

قلت للجنرال :

ـ مهما يكن ، سيدي الجنرال ، إن صادفنا شيء من اخصامنا ، يعجب حتى الله نفسه .

ـ أي أخصام ؟ الشيوعيون أم الاشتراكيون ؟ أم النقابات العاجزة عن ان تكون على حجم فرنسا ؟ كل هؤلاء ، وفردينان لوب ، في منزلة واحدة . . . في عقم واحد : الافتخار بقوة ماوتسي تونغ أو ببطولة غيفارا . المسيرة الطويلة للوصول الى شارلتي ؟ ما هذه المهزلة . . .

ـ خلال الاستفتاء ، قال رئيس الحكومة ـ وهو فرنسي حرّ ـ لأحد المسؤولين المناهضين للديغولية : « مع الأسف ، اذا استعفى مالرو ، يجب تسويد الانصاب من جديد » . فأجابه الآخر : « لا يهمّ . سنضع خطة . ويكون لدينا الوقت » . وكم تلقت الحكومة الكنت فيها ، رسائل شتم تندّد بتبذير اموال

المكلفين تغيير لون باريس ، بقشر زنجار العصور ، فيها حجارة بيوت باريس ، كما بيوت فرساي ، مزنجرة برتقالياً ، لا سوداء . وفي أي حال ، لم يستبدلوك ببوهير . . . أما أخلافك . . .

ـ لا أخلاف لي ، انت تعرف . لم يعد الشيوعيون يؤمنون كثيراً بالشيوعية ، ولا الآخرون بالثورة . فاتهم القطار . لشدة ما كذبوا وهم يدّعون الديمقراطية ، صاروا ديمقراطيين . وصاروا يريدون تهديد السلطة ، لا الاستيلاء عليها . وإلا ، لست أرى لماذا لا يكون نظام اقتصادي كالشيوعية ، افضل من آخر كالرأسمالية ؟ . أفهم الاميركي الذي يقول إن دوائر البريد يجب ان تؤول الى شركات خاصة كالهاتف . كما أفهم كيف المؤسسات الحرة تؤمن الضمان الإجتماعي . ولكن لو كان عليها ان تجابه قنبلة ذرية ، ولا يمكنها ذلك دون الدولة ، تجاه الاتحاد السوفياتي أو الصين ، ماذا كانت تفعل ؟ كما لا أفهم لِمَ لَم يكن عليّ أن اتباحث مع الشيوعيين حين كانوا جزءاً من فرنسا لا جزيرةً فيها ؟ مرة قلت لتوريز : « انت اخترت . انا ، لا حق لي بالاختيار » . طبعاً لم يوافقني على رأيي لكنه فهم ، هو الآخر . وحتى لكي انتصر ، لا أريد ان اجابه ، بل ان اجمع . . . أيام التحرير ، فعلت ذلك . لذلك ، لن اكون يوماً ملكياً ، مهما قال المهتاجون . لن يكون توحيد لفرنسا حول العيلة المالكة ، ولا حول الطبقة العاملة . ليس للشيوعيين الفرنسيين سوى كلمة « ملموس » على شفاههم ، مع انهم اكثر الأحزاب خيالية في العالم . ودعايتهم لاحقتهم حتى اقنعوا الكثيرين . لكنهم ينسون شيئاً واحداً مهمّاً : لا أهمية لكل ما

يقولون . وذات يوم ، ذكرت « الأومانيتيه »(جريدتهم) انني اجتمعت بتوريز خلال المقاومة .

ـ لا فائدة من السطو على هالات الأساطير ، لأن الاسطورة تنشلّ حين تنفصل عن مصدرها . وثورة اوكتوبر صارت بعيدة ، سيّدي الجنرال . . .

ـ لا يمكن ، عندنا ، تأسيس شيء ثابت ، على الكذب . هذا واقع اكيد . ولكن ، رغم المظاهر تبقى الشيوعية الروسية هي الأقل خداعاً ، لأن قيامة روسيا ليست كذبة .

فهمت انه يلمح ، في هذا ، الى احد اوائل حواراتنا ، حين قلت له إن الشيوعية في نظري تستمد قوة كبيرة من كونها أعطت روسيا الدور الذي لم تكن لتجده في الأنظمة التقليدية أو في البلدان الغربية أو في الجامعة السلافية . ثم أضفت على كلامه :

ـ . . . ولأن المشكلة الاجتماعية تتنامى . فثمة في الشيوعية مهزلة مستعصية : ارادة تحويل الأخصام الى مجرمين ، مما أبعد المثقفين عن الحزب ، وليس في الاتحاد السوفياتي فقط . فعندنا كذلك ، قد تصير الشيوعية ، بين سواها ، ما تصير عليه الأحزاب : اسطورة في خدمة مجتمع تعاضدي .

ـ الفرنسيون ، كما تعرف ، يصعب عليهم التصرف بين رغبتهم في التمايزات ، وذوقهم في المساواة . ولكن ، وسط هذا العالم الجميل ، لم يكن لي سوى خصم واحد ، هو خصم فرنسا : المال .

ـ المثقفون ليسوا فقط قراء النوفيل أوبسرفاتور .

ـ حتى هؤلاء كانوا معي . انت كتبت أن « النفوس المرهفة » لم تولد ولم تمت عام ١٧٨٨ » ، وأن كل التاريخ ليس منفصلاً عن خيال تاريخي . مع ان « نفوسنا المرهفة » اتهمتني موراسيا حين كنت اقيم الجمهورية ، ومستعمراً حين كنت أوجد وحدة فرنسا ، وامبرياليا حين رحت أزرع السلام في الجزائر . فهل تتصور موراس يناضل ليفرض انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام ؟ وهل ترى « اليمين » مسروراً بالتأميم ، وسعيداً بقراراتي عن الجزائر وقراراتك عن الضمان الاجتماعي ؟ عام ١٩٥٨ ، كنا فاشيين ، كما تعرف ، وتتذكر عبارة نسبت إليك : « متى كانت الديكتاتورية تخضع لدورة انتخابية ثانية ؟ » .

ـ وقلت أيضاً : « متى الديكتاتور تهاجمه الصحافة ؟ » لو جاء المؤرخون يكتبون تاريخك من خلال الصحف ، لجاء خيبة .

أعود الى ٤ أيلول ، ساحة الجمهورية ، حيث لفظت خطاباً مهدت فيه له كي يعلن دستوره . كانت الصرخات المعادية الآتية من بعيد ، تضج في الساحة ، فيما الجنرال يعلن : « وهكذا ، وسط القلق الوطني العام ، والحرب الغريبة ، ظهرت الجمهورية . وكانت سيادة الشعب ، ونداء الحرية ورجاء العدالة . وكان عليها ان تبقى كذلك خلال المراحل المضطربة من تاريخها . واليوم ، اكثر من أي وقت آخر ، نريدها تبقى » . عندها ، ارتفعت في الفضاء بالونات الأطفال ، حاملة لافتات تعلن ان الفاشية لن تمر .

عاد الجنرال يخاطبني :

ـ كبار أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر ، كانوا أنبياء . لكن ما بدأ دراميا ، انتهى ، أيضاً وأيضاً ، إلى مهزلة ، لأن المثقفين ـ حتى اذ

يحبون مثلي الأمجاد ـ هم في خدمة شيء يتخطاهم .

أتذكر ان كامو ، خلال عبور الصحراء ، سأله عن كيف يمكن في رأيه لأديب ان يخدم فرنسا ، فأجابه : « كل اديب يكتب ، ويكتب جيداً ، يخدم فرنسا » .

قلت له :

ـ ثمة فنانون ديغوليون : بالأمس براك ولوكوربوزييه ، واليوم شاغال - وبالتوس . وثمة غيرهم بعد .

ـ ومن تسمّيه الفنان الديغولي ؟

ـ الفنان الذي يدافع عنك .

ـ عظيم : انت تعرف معزوفة الآخرين ، اننا نضع فرنسا عالية جداً . كما لو كانوا يجهلون ما في التواضع من ضعف . مثقفونا وفنانونا يهزون العالم . شاهدت على الشاشة الصغيرة ، المأتم الذي نظمتموه لكوربوزييه حتى استحالت ساحة اللوفر المربعة بيضاء تحت الأضواء الساطعة ، ولفتني مجيء سفيري اليونان والهند بالأكاليل . . . واذكر البرقية التي وصلتني من الحكومة الهندية : « إن الهند ، وهي تضم العاصمة التي بناها لوكوربوزييه ، تأتي لتسكب على رفاته مياه الغانج ، تكريماً لذكراه » . واتذكر نهاية كلمة رثائك « الوداع يا معلمي القديم . . . الوداع يا صديقي القديم » . هل تذكر الباقي ؟ .

ـ أجل . . . يومها قلت : « الوداع يا معلمي القديم ، يا صديقي القديم . . . طابت ليلتك . . . هوذا تكريم المدن العريقة ، في أزهار نيويورك وبرازيليا . . . هي ذي مياه الغانج المقدسة ، وأرض

الأكروبول . . .» وهكذا ، يا سيدي الجنرال ، تجد ان « نفوسنا المرهفة » تستبعد هذا الميراث . (في وداعه ، كما كوربو الذي رفضه الأكاديميون) ، لكن لهم جميعهم آباء كنيسة ، وجميعهم على صعوبة في المصالحة : فرويد ، ماركس ، بروست ، كفكا ، . . . إنهم قوم من الأخصام تصبح مصالحتهم صعبة حين ننسى ان المقاهي الكانوا يجتمعون فيها لم تكن لها سوى تلك الأحاديث . . .

قلت هكذا ، وفكرت بفرويدو ـ ماركسية ماكس توريس . . . فأجاب الجنرال :

ـ ديسنوس ، و . . . ما أسمه ، الآخر : ديبورد ؟ ماتا على نبالة . لماذا لم يعد المثقفون يؤمنون بفرنسا ؟ .

ـ وهل هم آمنوا بها عميقاً ؟ في العصور الوسطى ـ كانت فرنسا ـ الغير موجودة عصرئذٍ ـ موضوع أغانٍ حزينة . . . جاندارك نفسها ، ماذا يبقى منها بعد خمسين عاماً على غيابها ؟ وكذلك فولتير . آمنوا بالملك أو كرهوه . رجل ذكي كما ديدرو ، كان يرى الحرية متجسدة في كاترين ملكة روسيا . من هنا أن دور الأهواء السلبية لدى المثقفين ، كبير ، كما ، على أيامنا هذه ، ظن الذين يكرهون هتلر ، أنهم معك . وإن لبعض الوقت ، إضافة الى معتقدات اليسار . على ان مثقفينا ، في اكثرهم ، متأدبون ، تتوقف أيديولوجيتهم على عواطفهم . وإلا فلماذا الروائي يفهم الأحداث أو التاريخ أفضل من الرسام أو الموسيقي ؟ نيتشه قال ان العدمية (العبثية في تعبيري) منذ ١٨٦٠ ، طالت تدريجياً جميع الفنانين . ومنذئذٍ ، إذا بالعبقرية ، منذ بودلير حتى أيامنا ، تتجّه عدمية في نسبة مرتفعة جداً .

ـ صحيح ان الصراع اختلف مع اللافاشية والمقاومة . لكن مثقفينا

يريدون ان ما يسمونه الفكر ، يطغى على الأمة (وصولاً الى أيار ٦٨) . أنا أريد حماية حرية الفكر ، ضمن حدود ركائزها : الحقيقة الوطنية ، وهي واقع لا تقوم بدونه . فولتير اكثر تعلقاً بفرنسا منه بالمنطق . المثقفون تستهويهم النوايا ، ونحن تهمنا النتائج . كيف الوصول ؟ بواسطة المآدب ؟ .

ـ والتفت ينظر الى الثلج يتساقط في الخارج . تراه ينتمي الى عصرنا ، أم الى ماضٍ تنتمي اليه اليوم قامته العملاقة ؟ .

يرى بومبيدو أن المآدب ضرورية لجمع الناس . هل كان على خطأ ؟ مرة دعوت أديناور الى مأدبة ، ولم أكن أعرفه قط . كونك تقدم اللحمة نفسها الى ناس يتكارهون لأنهم لم يتعارفوا ، أمر يحولهم الى خراف . وإلا لكان اليمين واليسار التقيا قبل قرن كامل . واعلم انني لا اتحاشى النظريات السياسية من حيث المبدأ ، انما من حيث الذكرى . حين الجبهة الشعبية وصلت الى الحكم ، فكرت : بما أن عليهم محاربة الفاشية . سيرغمون على الدفاع عن فرنسا ، أي على تهيئة جيش حديث . وكنت أعرف لاغرانج ، أحد قلائل البرلمانيين الذين التحقوا بالقتال وماتوا خلاله . ما الذي جرى ؟ كوّنت الجبهة الشعبية جيش فرنسا لعام ١٩١٨ ، حين النازية تقسم البلاد . .

ـ لكن الجبهة الشعبية حققت عدة معجزات .

ـ معجزات لولاي كان محاها هتلر وفيشي الحكومة الروسية ناضلت من أجل موضوع أساسي . وكذلك هتلر . منذ اليونان القديمة ، والمنطقة المتوسطية تتخذ الخطابات إصلاحات . كل ما فعلناه ، نريد نسيانه . أيام السوق الأوروبية المشتركة ، اذ كنا بين الست دول ، مع حمل زراعتنا دون مقايضة ، كان أمراً خطيراً . لكن

فرنسا تبقى بنت الاسطورة . . . أو ما تسمية انت أسطورة . . . ربما أنا نفسي كنت اسطورة ذات يوم . . . يتصور المؤرخون أن يمكننا القيام بما نريد ، حين نكون في الحكم . لويس الرابع عشر كان يتذمر من انه لم يكن يطاع في أوفرني ، فيما لقي لاجئون مقراً لدى الحاكم متهمون بقضية السموم . نابوليون كان يتذمر من أنه لم يكن يطاع في أورليان إلّا اذا ذهب اليها . وأنا لم أتوصل الى بناء مبان ملائمة . كنت أريد بعث فرنسا ، وتوصلت ولو جزئياً . أما التفاصيل ، فالله يعلم ما لديه منها ، ويشرح لماذا اليساريون يدعون يساريين تميّزاً لهم عن الشيوعيين ، ولماذا يدعون هكذا في حين اليسار نفسه لم يعد موجوداً .

ـ هذا اليسار يسكنه خيال تاريخي هائج . لدى البلدان المتوسطية ، تتعلق السياسة بالمسرح . والخيال يأتي تارة مع الشخص ، وطوراً ينقلب ضده .

ـ صحيح قلت لك ، إنه كان معي طويلاً حتى تحولت تان تان . .

ـ ولكن اذا كان اليسار شيئاً آخر غير المهزلة ، فلأنه كان نقيض اليمين الكان مالاً وحسب .

ـ ولم تعد لليمين عقيدة منذ انفصل عن مفهوم الأمة . أي منذ استعاد الشيوعيون ميراث روما الكائنت تتقاسمه مع الجيش والكنيسة والدولة ، فيما الشيوعيون لم يكونوا الكنيسة ، وكانوا يحاولون اغراق الجيش والسيطرة على الدولة .

ـ اليمين الحقيقي لا يمكنه يكون الا سرياً . وأسطورة اليسار الحقيقية كانت هي نفسها أسطورة ديغولية ١٩٤٠ : الدفاع عن المهزومين . وهي عقيدة برّرت تباعاً : التقليديين ، وثوريي ١٨٤٨ ، وأنصار الثورات العامية ، والراديكاليين ، والبولشيفيين ويساريي

آيار . . . إن الاسطورة السياسية ميدان انفعالات تسكن في خبايا الأفكار . . .

ـ حاولت كومونة باريس نهضة فرنسا. بهذا المستوى، كونت جزءاً من تاريخنا . لكنها لم تقتل بروسيا واحدا . .

ـ الكومونة نظراً اليها المثقفون في صوابية ، لكنها أخطأوا النظر الى ثورة ١٨٤٨ . مع أن المثالية المتطرفة سابقة لـ ١٨٤٨ : عرفها روسو وسان جوست . وهكذا ، صار الخيال التاريخي أحد العناصر الرئيسية في عصرنا .

فكر الجنرال برهة وأجاب :

ـ اذا استبعدته كلياً ، ما يحلّ بالماركسية ؟

ـ الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ... لكن هدف نفوسنا المرهفة ليس السيطرة على السلطة ، بل على الأوديون .

ـ صحيح . عند اعلان التحرير كان جماعة السياسيين يعتبرونني هاوي سياسة . وكنت أعرفهم جميعهم . الثوري الوحيد بينهم هو أنا . طبعاً ،كان الشيوعيون اليعتبرون الكلمة هي استيلاء حزبهم على السلطة . ومع هذا ، بعد سنوات من ذلك ، في أيار ١٩٦٨ ، قال رئيسهم لوزير داخليتنا : « لا تستلموا » . .

ـ أية كلمة رئيسية لا تستمد قوتها من معان متناقضة ؟الثورة ، الله ، الحب ، التاريخ . . . الله يعني الخالق ، الحكم ، الحب المقدس ، سر العالم ، . . . التجاوز ذلك . .

ـ ليس من الضروري تحديد الله ، بل ما نريد تغييره ، والوسائل التي بها ننهد الى هذا التغيير . وأتساءل ، كما كل واحد ، بحول

العصور الكبرى المظلمة في التاريخ . من زمان حاولت أن أفهم ما الذي كان ، في بيزنطية ، يفصل الزرق عن الخضر عبثاً . عندها ، فهمت روما .

ـ قد تكون روما صعبة الفهم . وكذلك ثورة أوكتوبر . وكذلك ذنب متهمي موسكو . ومثلها ظاهرة اللافتات في أيار : « فلننتقم لموتانا » ولم يكن بعد من ضحايا . ومثلها أن يكون ماوتسي تونغ يمثل الحرية ، بعدما كان للكثيرين ، الرجل ذا السكين بين أسنانه . . . أود أن أفهم ساحرات هذا العصر . . .

ـ اكتب تاريخ الخرافات . هذا موضوع جيد .

ـ مع أن تدمير الرأسمالية لم يكن يوماً رئيسياً لديك . .

ـ لم آت يوماً لتدمير الرأسمالية . مع أنني لم أدافع يوماً عنها . جئت لإقامة فرنسا في وجه الخرافات الكائنت تشلها . هل كان لينين الأممي يعرف انه جاء لاقامة روسيا ؟ السياسة ، فن وضع الخرافات في نصابها التاريخي . لا شيء جدياً مع الخضوع للخرافات ، ولكن لا شيء كبيراً بدونها . . . مع أن الخرافات (الأوهام) شيء غير موجود اذن فرنسا ليست خرافة . ولا روسيا . ولا لينين . ولا ستالين . ولا موسوليني . الخرافة ، هي ماركسية المثقفين الذين لم يقرأوا ماركس . ذوو النفوس المرهفة قرأوا حتماً كثيراً من جان جاك روسو ، لكنهم لم يقرأوا « العقد الاجتماعي » . رغم الأسطورة فيه ، يبقى كتاباً قوياً .

ـ الأساطير لا تتتالى في الميدان السياسي فقط .

ـ هل صادفت مرة كاهن كولومبي ؟ انه كاهن طيب قال لي عن المسحة الأخيرة : « دائماً كنت أجدني في الموقف نفسه ، خاصة مع

السيدان : سيدي الكاهن ، سأعمل بما تقوله لي ، انما لا أهمية كبيرة له . لم أؤذ يوماً أحداً ، فالله لن يطردني ، أليس كذلك ؟ « . . . من هنا ، أقرّ بتثبيت ما به يؤمن الكاثوليك ، ولا يعرفون به عندما يموتون . معه حق هذا الكاهن : المسيحيون المؤمنون بأن الله يستقبل الذين لم يؤذوا أحداً اكثر من الذين يؤمنون بالجحيم . لكل ايمانه الخاص : الماركسيون كما المسيحيون . مع أن الفرق بينهما كبير .

أعرف أن للكنيسة جزءاً كبيراً في حياة الجنرال . ومع هذا ، قال للبابا : « والآن حضرة الأب الأقدس ، هل تتكلم على فرنسا ؟ » لم يذكر الله إلا نادراً ، حتى في وصيته . ولم يذكر المسيح قط . وأعرف صمته حيال مواضيع رئيسية ، نابعاً من خجل أو تكبر ، أن كنا نسمي تكبراً . حقه في الصمت . أن يتناول القربان المقدس في موسكو ، فهو يؤدي شهادة . لكنه لم يفعل ذلك الا في موسكو . وحين ايمانه لا يبدو لي لغزاً ، أراه عميقاً لا يترك مجالاً لشك . لذلك لم يكن يزعجه مذهب لاادريّتي ، اذ إنني لست ضد الاكليروس ولا ضد المسيحية فيما هذه حال المثقفين من جيلي وعكس الذين من جيله : شارل بيغي ، فرنسيس جيمس ، بول كلوديل . . . . واللاأدرية المواكبة للمسيحية ، تقلقه اكثر مما تزعجه ، وان هو صديق مقرب من الهندوسية . ايمانه ليس مسألة بل ثابتة كما فرنسا . لكنه يحب الكلام على فرنساه ، فيما لا يحب الكلام على إيمانه ، الذي يغطي ميداناً سرياً هو ميدان المسيح ، وسؤالاً لا عن الايمان بل عن أشكاله . من هنا استغرابه حين ذكرت له العبارة الهندوسية : « كل إنسان يذهب الى الله عن طريق آلهته هو » . وذات يوم سألني : « من تعني لك الآثار الدينية للعباقرة كما بيتهوفن وفيكتور هوغو ، وايمانهما كان غامضاً ، وهما لم يكونوا فولتيريّين ؟ » .

وذات يوم ـ أحد أقرب مساعديه ، وكان مكلفاً بجمع وثائق قد يحتاجها الجنرال لإلقاء خطاب ، (في كندا ، أظن) سأله في خجل :

ـ أعتقد سيدي ، ستختم خطابك حول الارادة الالهية : هي ذي الوثائق جاهزة .

ـ أشكرك . . . لست خائفاً من الله . . .

وهو طبعاً يقصد : « وهل تعتقدني سأبعد ذكر الله ؟ » . لكن فرويد ، لم يكن ليستهين بالشكل الذي يتخذه إيمانه .

واستعدت الكلام :

ـ أندريه جيد ، في آخر حياته ، كان يتمسك بفكرة خاصة : « الذين ، عندي ، استمرار للاخلاق ». وكان في بدء حياته ، يؤمن عكس ذلك .

ـ الخطيئة ليست مهمة . الأخلاق الصحيحة توجه الانسان نحو ما يحمله من عظمة ، وإن تكن هذه غير مهمة . حين قلت : انني جئت لتحرير فرنسا من الخرافات التي تمنعها من أن تكون فرنسا ، فهموني مع أن تلك الخرافات كانت ثابتة ومؤثرة عميقاً . لا تدور حول التاريخ كالذباب ، بل تتتالى . وتتماوج من يسارية اليساريين حتى أحاسيس ذوي النفوس المرهفة . . . أمس ، وكنت أتنزه ، مرّ على قدمي خيال الغيوم ، ففكرت أن الخرافات جزء من الانسانية كما الغيوم جزء من السماء . ولكن ، هل الخرافات تتتالى كما الغيوم أو النباتات ؟ أمام الأشجار الباسقة التي تمر بها وانت داخل ، تحت ، على المدخل ، أفكر بتاريخ الأمم . وهو عكس الغيوم . وتسلم مسؤولية فرنسا ، لعام ١٩٤٠ لم يكن مجرد عمل بستاني .

خيّم علينا ظل ماكس توريس ، وفرويدو ـ ماركسيته . مع أن الأعشاب المائية للبروفسور بركلي لا تلتقي وغيوم قائد فرنسا الحرة . كما لو أن هذه الصورة تتجسد في الذين يستخدمونها تدريجاً . كما لو انها تتقدمنا دائماً . كما لو أننا نعكس ، لدى مرورنا في الحياة ، الظل المجهول نفسه .

وعاد الجنرال الى الكلام :

ـ مع هذا ، يجب ان نفهم ما قمنا به .

ـ ما قمت أنت به .

ـ ما اقوم به لم يتحدّد مرة بما قمت به . وخاصة لا بـ ١٨ حزيران . المهم ـ ربما كما لدى جميع الذين ارتبط اسمهم بالتاريخ ! يكن ما كنت أقوله ، بل الأمل الذي كنت أحمله . أعدت فرنسا لا ... ت أمل العالم بفرنسا . فكيف يمكن التعلق برسالة دون أمل ؟ غدا ، يوم أموت ، يتغير هذا الأمل ، لأن قوته كامنة في مستقبلنا الذي ، طبعاً ، لن يعود مستقبلاً . لكنني لا أخشى ان يندثر هذا الأمل كلياً . فالمؤسسة غلاف : نغير ما في داخلها . وحين ما في داخلها مهم ، لن يرميه أحد في سلة المهملات . لكن هذا الذي يهم ، لا يمكن التكهن سلفاً به . رجل التاريخ ، خميرة ، حبة قمح . . شجرة الكستناء ، ليست الكستناء . لو أن الذي فعلته لم يحمل في ذاته أملاً ، كيف كنت فعلته ؟ كان الفعل والأمل متلازمين كانما الأمل لا يصح إلاّ على البشر . . . ولدى الفرد ، نهاية الأمل هي بداية الموت . . . قد تكون على حق في قولك إن الديغولية ، لدى الكثيرين ، كانت تحدد بما يفصلهم عن السياسيين . انما ، عندي أنا حين ارتضيت الكلمة ، في ما بعد ، كان وطننا في عز انطلاقه ، الانطلاق المستعاد . من هنا ،

سأعنون الجزء الأول من مذكراتي : « مذكرات الأمل » . وما زلت بعيداً عن تحضير الجزء الثاني ، ولا مجال للكلام على الجزء الثالث ، بالشعور نفسه . كل ما فعلناه ، سيتحول وأريد أن يبقى شهادة : « هذا ما أردته . هذا ، ولا شيء سواه » . لهذا ، لم يعد لي وزراء سوى الغيوم والشجر والكتب .

ـ تعرف عبارة : « ارتجاف الغصن على السماء ، أهم من هتلر » .

ـ ومن السرطان ، حتمًا ، حين لا يكون فيك ولا في أحد محبب إليك . انها عبارة نسوية .

ـ لكن قائلها رجل . . .

ـ كان هتلر يقولها للكانوا يفضلون الدفاع بالأغصان بدل المصفحات . لكنني افهم ما يعني بها . . . منذ أشتهر ، رأيت أغصاناً كثيرة .

ـ يمكن التعلق بالحياة ، وإن هي ليست للكائنات البشرية وحدها . . .

ـ يمكن التعلق بالحياة ، وإن هي ليست للكائنات البشرية وحدها . . .

ـ أحب الأشجار ، والحطابين . لم يكن الغصن أهم من هتلر ، عند رفاقنا في معسكرات الإبادة . والعمل التاريخي ليس فقط عمل فرد ، حتى لو كان هذا الفرد نابوليون . فهذا العمل يستهلك أعمق الأهواء لدى الكثيرين : الحزن والأمل . فكيف لا تطل الاشجار الى المخيلة في هذه الحالة ؟ وعلى أي حال ، عمر فرنسا أعتق من أعتق غصن في أية ساحة من ساحاتها . فلا نقعن في سذجة الأخذ

بخلود الأغصان . . . هل تعرف الحوار الذي دار بين بسمارك ومولتكه الكان في الثمانين ؟

ـ أي حوار ، سيدي الجنرال ؟

ـ قال بسمارك : « بعد هذه الأحداث ، هل ما يجدي بعد للحياة ؟ » ، فأجاب مولتكه : « نعم ، أيها القائد : أن ترى شجرة تنمو وتكبر » .

وسكت الجنرال برهة تفكير ، ثم عاد ليقول :

ـ رجال التاريخ ، لاعبون مهره .

حين يتكلم بلهجة حميمة ، تنثني عينه ، وتبدو اللهجة الحميمة على بعض سخرية . وأكمل :

ـ لم يكن القديس برنار متأكداً من أنه سحق ابيلار . ونابوليون لم يكن متأكداً من الانتصار صباح أوسترليتز . في بورودينو ، ظن أنه منتصر ، اذ غادر الروس الساحة . سأل : « كم الأسرى » ، فأجيب : « لا أحد تقريباً ، أيها القائد » . ففهم أنه دخل في معركة خاطئة ، وخرج من انتصار خاطىء .

ـ الاسكندر الكبير تساءل ، قبل لقائه بوروس ، كيف يمكن أن يقوم بالحملة على الهند ؟

التأرجح في السياسة الكبرى ، لا يختلف كثيراً عن التردد في الشؤون العسكرية . نأخذ عاملاً مغيراً في التاريخ : لحظة يمرّ التيار . معنا أو ضدنا : ويرماخت العام . ١٩٤٠ وتلك التي عام ١٩٤٤ ، التحرير وأيار ٦٨ . أحياناً ينقضي بأسرع مما به جاء . وأقصد هنا ذاك الذي يعطي الشعب روحاً ، كما الجيش .

فكرت في الجزائر ، وخاصة في فيتنام . كم سمعت بالأمس عبارة : « لا يمكن قيام جيش من الأنـاميين » . وأجبت :

ـ في الفن أيضاً ثمة طابع سحري للتيار : حين بودلير يصير بودلير . . . وكذلك « السيد » . . .

وسيرانو . . . الذي يستعاد أبداً .

ـ أما زلت تحب إدمون روستان ؟

ـ أحب شبابه . . . التيار الذي يمر قد يكون ما كانت روما تسميه الثروة . . . المهم . . . أيام قليلة ، بعد ، تفصلنا عن ١٩٧٠ . . بعد اليوم ، جيل واحد يفصلنا عن الدخول الى العالم الثالث . . . وهو دخل الى الولايات المتحدة .

ـ إنها نهاية زمن الأمبراطوريات . . .

ـ لا نهاية الامبراطوريات فقط . . غاندي ، وتشرشل ، وستالين فهرو وحتى كينيدي ، هم أصحاب جنازات كبرى . . .

ورفع يديه في الحركة التي نعرفها عنه ، والتي لم نرها مرة إلا أمام جمهور . . .

فكرت بالمحرقة التي راحت تجعل الرصاصات المتأججة تتساقط من جثمان غاندي ، وبصفارات القطارات الروسية راحت تعلن موت ستالين في مجاهل سيبيريا ، وبحرس تشرشل وكينيدي ، وبِفِيَلَة نهرو . كل هذا في حياة واحدة . وقلت :

ـ لا يزال ماو وعبد الناصر في مكانهما . . .

ـ ماو ، نعم . الإسلام ، ربما . أما افريقيا ، فمن يدري ؟

فكرت بطانرتي عام ١٩٥٩ ، عند الفجر ، فوق رهبة مستنقعات التشاد ، وبالجندي الزنجي المغمى عليه تحت شمس الكونكورد ، يوم ١٤ تموز خلال توزيع أعلام الوحدة . وفكرت بالرئيس سنغور ، والزنوجية الكان بها يطالب ، فيما الأميرة الميروفنجية في كازامانسا يتبعها قطها الكبير تجر وراءها أتباعها تحت رذاذ الثلج ، نحو الأشجار المقدسة . سنغور أيضاً كان يبشر بدخول العالم الثلث . الغطسة الأخيرة في آسيا . آلاف الأزهار منحنية بحركة واحدة ، ماو ، المدينة المحرقة ، شمس الصين الساطعة عبر ستائر الحرير الأبيض . . . عام ٢٠٠٠ ، هل يقوم العالم الثالث في وجه المدينة التي تغزو القمر وتتجاهل الشباب ، وفيه طلاب يحرقون أنفسهم كالرهبان البوذيين ؟

راح الجنرال ، دون انتباه ، يبعثر أمامه ورق اللعب على الطاولة الخضراء ، وينظر في الخارج الى الثلج المتساقط :

ـ سيقام صليب اللورين على أعلى تلة مشرفة . واذ لا أحد في المنطقة كلها ، لن يراه أحد .

تطلعت صوب القمة ، فلم أر إلا تماوج الغابة السحيقة . قال :

ـ ستالين معه حق : في النهاية ، المنتصر الوحيد هو الموت .

ـ ربما الأهم في أنه لا يربح فوراً . كانت مصر تعتقد أن المومياءات والتماثيل والأهرام ، لا تعود تحمي الفراعنة بعد مرور آلاف السنين . ومع هذا ، بقيت مصر تبني الأهرام .

ـ كان يجب . . .

له اليوم ثمانية وسبعون أو تسعة وسبعون عاماً . . . وكان مرة

قال : « لا أدّعي أن السن لم تلعب دوراً في قراري » . وها هو يبدو اليوم أكبر مني كثيراً . ذلك أن الشيخوخة لا تبدو لنا بل على سوانا . لكنها سطوته بقيت أخّاذه ، وهو لا يحاور الشيخوخة ، بل يحاور لا مبالاة رواقية تخص التاريخ الذي هو بناه . وهو عام ١٩٤٠ ، كان قال في خطاب له : « سألت مرة رجل السهل لماذا يرتقي الجبل ؟ فأجابني : لأرى السهل أفضل » . وحين كنت بالامس ألمح الى الشعور الديني ، كان يجيبني بالحركة التي ألفتها فيه ، وهي كمن يطرد الذباب . قال :

ـ ثمة تعساء ، لم يفعلوا شيئاً في حياتهم ، كانوا يأخذون عليّ تغيراتي . ولكن ألم يـ . العالم الذي أعمل فيه ، متغيراً هو الآخر ؟ إن السياسة المستمرة ليست دائمًا متشابهة . انهم يعتقدون أن الحياة في تقليد الطفولة ، وفي أكل الحلوى .

ـ لا أظن أن جيلاً واحداً ، شهد تغيير العالم بهذه السرعة ، حتى عند سقوط روما .

ـ إن روح السياسة في أوروبا ، هي الأمة . فهل بعد القنبلة ، ستبقى الأمة على ما كانته قبلاً ؟ لن يكون التكرار دائمًا : القنبلة الذرية ليست سوى قنبلة أقوى من غيرها جاء اختصاصيون يقولون لي : لا تحمل إلينا الاختراعات سوى مضاعفة وسائلنا الخاصة . . . بلى . . . الميكروسكوب الالكتروني ليس سوى نظارات أكبر : يجعلنا نكتشف ما لسنا نبحث عنه . يحل بعض مشاكلنا ، ويحمل مشاكله . لم ننته بعد من مشاكل القنبلة الذرية . السلاح الأقوى ، بدأ بإحلال السلام . وهو سلام عجيب . . . انما فلننتظر بعد . . . مع نمو القطاع المسمى قطاعاً ثالثاً ، ما مصير صراع الطبقات القديم ؟ في

أيار ، قلت عبارة أقرّها : مأساة الطلاب ليست جامعية ، بل هي أزمة حضارة . شهر أيار خلق الكثير من الخيال ـ وليس فيه سوى قتيل واحد ، وعرضاً لا عمداً ـ ولكن الى أي حد لامس الشبيبة الفرنسية ؟

هنا تدخلت السيدة ديغول :

ـ أحد مربي النحل ، اكد أن النحل أيضاً ، في فرنسا ، كان مهتاجاً في أيار .

تذكرت فندق لابيروز لدى عودته ، إذ قال : « لو كنت قبل موتي ، يمكنني أرى شبيبة فرنسية » . وتذكرت عبارة ماكس توريس في أيار ، عندي في مكتبي (بور رويال) . وأجبت :

ـ تبدو لي مأساة الشبيبة ، نتيجة ما أسمي سقوط الروح . ربما حدث شيء مماثل قبيل انهيار الامبراطورية الرومانية . فلا حضارة يمكنها أن تقوم دون قيمة عليا ، ولا ربما دون تفوق .

ـ هل يمكنك الكلام على قيمة عليا دون أن تكون هذه قيمة دينية ؟

ـ كان روبسبيار يؤمن بالمنطق والأمة . وبما يجب عمله لتأمين نجاحها . وهو ما فعله حتى المقصلة . وسان جوست لم يكن أمام الستراسبوريين ، ولا سان برنار أمام الطلاب . الجامعة لا تعرف ما تريد ، وكذلك الدولة الغربية ، وكذلك الكنيسة . وكذلك الطلاب هل تظن أن حضارة واحدة ، قبل حضارتنا ، عرفت سوء الضمير ؟ لم تمتلك حضارة واحدة هذه القوة ، ولا واحدة كانت الى هذا الحد غريبة عن قيمها فلماذا غزو القمر ، اذا كانت الغاية الانتحار فيه ؟

هربت القطة غريغري ، كما خوفاً ، وتذكرت هرة السيدة خضري باشا ، وهي لم تكن تحب سماع الحديث عن الموت .

تغيرت الاضاءة في الصالة : عاد الثلج الى السقوط . وراح الضوء الجديد يلتمع أمامي على اللعبة وأسلاكها ، فيما قلت :

ـ غريب ان نحيا ، واعين ، نهاية حضارة . الثورة الفرنسية والثورة الأميركية عقبتا نهايتا مجتمع . الفلاسفة الرومانيون كانوا ينتظرون الرواقية ، لكن هذه لم تكن ميزان ثقل في وجه المسيحية .

ـ لأنها كانت يائسة ، بينها القيامة تدعو الى الرجاء لا الى اليأس . الأمل دائمًا أقوى من القلق .

ـ الشاذون ، من زمان ، سبقوا الهيبيين والمعارضين . لكن أساتذة ذاك العهد لم يكونوا شاذين . كان فاليري يقول لي عن جيد : لا يمكنني أن آخذ بجدّ ، رجلاً همّه حكم الشباب عليه . وكنت أجيبه أن ثمة فرق بين الشبيبة والشباب .

ـ طبعاً كالفرق بين فرنسا والفرنسيين . ولكن أية حضارة قبل حضارتنا ، عرفت كباراً أعداء شبيبتهم ؟ قلت إن أساتذة القرون الوسطى لم يصيروا شاذين . ثمة ظاهرة لا تدوم : عدم مسؤولية الذكاء . إمّا يسقط هو ، أو تسقط الحضارة . الذكاء يهتم بالروح ، كما اهتمت قبلاً بالكون ، بالحياة ، وبنفسها . كما هو في روسيا ، وفي الصين . ولكان مونتسكيو قال لي أشياء مهمة . وحين سألت مثقفينا ، قالوا لي أشياء غير مهمة ، أحياناً بلا اندفاع ، وأحياناً بلا جدية ، انما غير مهمة . السخانة تحكي ، لكي لا تقول شيئاً . الذكاء ، على العكس . وسترى . يجب الرجوع دوماً الى ما به نفكّر . يمكن ان نتخاصم على أهواء مبهمة ، انما لن نتخاصم على هذر . ويمكن الانتهاء الى بيع جرائد اليسار على الارصفة ، لا عن جبن ، بل لأن هذه شجاعة لا تجد أمامها خصمًا . لو

انني قلت لستالين إن أخصام الدولة والحكومة عندنا لن يسلموا أنفسهم قريباً ، لكان اتهمني بالجنون . . .

ـ كيف بدأت مع ستالين ؟

ـ بقينا نحو دقيقة دون كلام . . . وكان ذلك طويلاً . . . ثم . . .

هزّ كتفيه وأكمل :

ـ ثم ظننت انه سيحدثني عن أوروبا ، أو عن جماعة لوبلين ، وكان متمسكاً . بهم . لكنه قال لي : « إذن ، جئت تطلب مني توريز ؟ لو كنت مكانك لما أعدمته . انه فرنسي جيد » . فأجبته : « الدولة الفرنسية تعامل الفرنسيين بما تنتظره منهم . وانتم ؟ » .

من عادة الجنرال ألاّ يروي قط . . . « دجاج ستالين ، يستطيبه تشرشل » . لكن غيره يحل مكانه . تذكرت مأدبة الكرملين ، وذاك الوزير الأهوج الذي حمل الخبز الى ستالين ، وهذا غير مسموح . فحمل ستالين كأسه الفودكا ، وكان فيه ماء ، اذ لا يشرب الخمر إلا في شقته الخاصة ، وقال : « الرفيق فلان وزير النقل والمواصلات ، . . . فإذا لم تسر المواصلات كما يجب (وسحق ستالين كأسه بين أصابعه) سيشنق » . وأظن الجنرال فكر بهذا المشهد اذ قال لي : « كان طاغية آسيوياً ، ويريد نفسه هكذا » .

ثم دار الحديث على حكومة لوبلين الكان الجنرال يرفض القبول بها . انتهى وقت المأدبة ، ودخل الجنرال ينام . وفي الثالثة صباحاً ، اذ لم يجد مولوتوف وزير خارجيتنا بيدو ، جاء الى غاستون باليفسكي يقول له : « هلاّ قلت للجنرال ديغول إن المارشال سيعرض فيلماً من

أجله » ؟ ونزل الجنرال الى غرفة الكرملين الصغيرة . كان الفيلم وطنياً ، وفيه الجنود الألمان ، بالصورة المكبرة ، يتساقطون الواحد تلو الآخر . ولدى كل قتيل ، تنكمش يد ستالين على رجل الجنرال . وهنا قال الجنرال : « وعندما أحسست أنه أوجعني كثيراً ، سحبت رجلي » .

وقتئذٍ ، كان هتلر لا يزال حياً . .

وفي الصباح ، تم توقيع المعاهدة الفرنسية السوفياتية . كان الثلج ، كما هذا الذي يحيط بنا اليوم ، انما اكثر كثافة .

ذات يوم ، وكان المخرج الكبير سيرج آيزنشتاين تلقي أمراً بتوقيف العمل في إخراج « الوضع البشري » ، همس لي : « حين اخرجت « بوتمكين » ، لم يتدخلوا ، إذ كنت بعد مجهولاً ، وكانوا يعطونني ستة أسابيع لانهي الفيلم ، مهما كانت العقبات . كنت في السابعة والعشرين . ولكن اليوم ، لن أطلب مقابلة ستالين ، لأنه إن لم يفهم ، لن يبقى له الا الأمر بقتلي » .

وفي الواقع . . . كيف مات ايزنشتاين ؟

قال الجنرال :

ـ لا يفيد السيكولوجيا كثيراً . سلفاً نعرف أن روزفلت ليس تشرشل ، وأن خروتشيف ليس ستالين . لا جديد من كلام الفرد الى القائد . ليس من السحر اكتشاف أن المرض يزهق .أما شعوبنا ، فعصرنا يضعها إزاء مواقف مفاجئة تحدث في الناس عن روسيا الخالدة حين قرأوا كوستين . لكن وجود كوستين كان قبل وجود الحزب الشيوعي . وهذا مهم .

إنه يتخذ معرفة الناس على أنها خصيصة مهمة لدى القائد . ولا يستعمل كلمة سيكولوجيا طوعاً . كان يهمه ألا يقع سخرية الناس ، وأن يفهم متى يقعون في سخرية أنفسهم ، والى أي مدى تبلغ الثقة ؟ وإلى أي حد يمكنهم التوغل في عمق الأشياء . وكل ما عدا ذلك ، لم يكن يهمه . . .

هذه المعرفة ، تتجه من أعلى الى أسفل . ولا تنطبق ، جزئياً ، إلا على محدّثيه التاريخيين . من هنا ، أنه يحيط بجغرافية الخصم . وهو حريص على تحديد موقعه ، كما رئيس ديني على تحديد إيمانه . وأياً يرفض هذا الموقع ، يرفضه الجنرال . لذلك تباحث مع روزفلت بأسوأ مما مع ستالين . فروزفلت كان يعتبر أن فرنسا لم تعد تهم ، وستالين أن فرنسا لم تعد تهم عسكرياً ، لكنه كان يعرف أن الاتحاد السوفياتي أيام برست ليتوفسك لم تعد تهم مطلقاً . وكان ستالين يجد في الجنرال ديغول زميلاً في « مواجهة كل شيء ، لا عبقرياً عادياً » والجنرال الكان يحدد روزفلت انه « ديمقراطي منفّذ » ، لم يحدد الجورجي قط . قال :

ـ هوذا الملمح الأبرز الذي صوّر لي عن ستالين : يظن نفسه وحيداً ، فيما مولوتوف وراءه . يغمر بيديه أقساماً كبيرة من الكرة الارضية التي في مكتبه ، وبيد واحدة أوروبا ، ويتمتم : « كم صغيرة ، أوروبا » . لذلك حين التقيت ستالين ، لم ألتق روسيا بولونياي ، كانت العكس . وأقولها في إقرار : روسيا تهم كثيراً .

ـ ما قد تحمله اليك الحياة في الاتحاد السوفياتي : تلك الغرابة اللامحدودة التي تكلم عليها كبار الأدباء الروس ، والتي ما تزال موجودة حتى اليوم . كان ستالين يردد : « عندنا سبارطة وبيزنطية .

وأنا أميل الى الأولى » . . . ذلك أن ليس سوى بيزنطية تقف في وجه سبارطة . ذلك ان السكارى الملهمين ، هم الكوميك السوفياتي ، الذي ليس اكثر زهواً من الكوميك الروسي . وأنا عام ١٩٣٤ ، عرفت قائد الشرطة في الشمل الكبير . كان الناس هناك يدمنون على الكحول فتقضي عليهم . وكان يلزمهم تنظيم . وبعد مسافة أسابيع من الزحافات التي يجرها كلاب ، وصل القائد في إسبة (منزل خشبي يسكنه فلاحو روسيا الشمالية) فوق الأوقيانوس الجليدي . وكان معه عدد كبير من زجاجات الفودكا ، وروسي توفي انما لا زال محفوظ الجثة في الجليد ، وبعض الحيوانات اخصها طيور البطريق ، ومُدّت على الطاولة قصاصة جريدة من سان فرنسيسكو ، عليها إعلان زواج : « فتاة جيِّدة الظروف ، ترغب في الزواج من روسي ، سيبيري على الافضل . مطابق لشروطها » . ويعود تاريخ الجريدة الى عام ١٨٨٣ . وحّدها كدسات من الروبل ، عليها حجر . . . وكان نادي روستوف مكوناً تقريباً في اكثره من المبتورين ، لأن كل مهماته كانت محصورة في الصاق ملصقات على جدران الكاتدرائيات ، مكتوب عليها : « الله خائن » . وتساءلت كيف لم ينتهوا جميعهم الى سجن الاشغال الشاقة (واظنهم انتهوا اليه في ما بعد ، لأنني كنت في روستوف قبل حملة التطهير) طالما الله خان بتسليم روسيا الى البولشيفيين ؟ إنه سرّ . لكن اوره كان يسوّي الأمر ، إذ كل عام كان يسقط بعض الملصقين فينكسرون يدهم الباقية او رجلهم . وحدّي ، كان عُرج يترعون الفودكا مع أصدقائهم الذين ستنكسر ارجلهم في العام اللاحق . . . كان اهرمبور يقول إن روسيا ممتلئة بنماذج الاخوة كارامازوف » . ومعه عرفت اجمل مشهد روسي . ففي

احدى مدن سيبيريا ، كانت المخازن تعلق ملصقات من إمضاء ستالين ، تعلن أن العلاقات الجنسية باتت ممنوعة . وانتشرت الخُطب : ايها الرفاق ، كل هذا الوقت المهدور على إشباع الرغبات الفردية ، يضيع من طريق الانتاج . ان الجنس اخطر من الفودكا . يكمل في اهرنبور : « عندها ، ذهبت الى مركز البريد ، وطلبت ارسل برقية . فأجابتني الموظفة الشقراء ذات الجدولتين : ايها الرفيق اهرنبور ، إنني مزّقت كل شيء . هو قال : العلاقات الجنسية بين الرجال ممنوعة . ما اغباهم في موسكو . كما لو كان يمكن ان تقوم علاقات جنسية بين الرجال . فامتعضت وقلت لها : ايتها الرفيقة الموظفة ، ما اغباك انت . . . » واعرف العديد من هذه النوادر ، التي لا اظن انها لا تعني شيئاً .

ـ صحيح . . .

ـ وهي تمتزج ، كما في الروايات الروسية ، بالمياه العميقة ، العام الماضي رأيت أحدهم ، في مدينة كومسومول ، مضطرباً لأنه قرأ دفتراً فيه الانجيل بحسب ماريوحنا ، وهو دفتر كان يباع بأغلى من مؤلفات تولستوي الكاملة . وانني استمعت الى عالم نفساني (اليوم بات الكلام في موسكو أسهل ، اذ قبضة البوليس باتت فوق الرؤوس ولم تعد على الحنجرة) قال لي : عالجتُ مؤخراً ابن أحد المندوبين من البروليتاريا . فسألته السؤال التقليدي : « بم تحلم غالباً » ؟ ليجيبني : « بأنني ، أخيراً ، صرت وحدي . وحدي ضد كل الآخرين وحدي ضد كل الناس » . ومؤخراً اذ كان بوخارين يذرع معي ساحة الأوديون ، قال لي : « أوشك الآن ان يقتلني » . وهذا ما

حصل فعلاً . . . ولدى دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ، اصطف الاسرى البولونيون عسكرياً ، ليستمعوا الى الضابط البولوني يقول لهم ان عليهم الانخراط في صفوف جيش التحرير البولوني ، الى جانب الجيش الأحمر . وتقدم الضابط بعدها ببطء ، متعكزاً على عكازتين ، لأن الروس ، الشهر السابق ، كانوا بتروا رجليه . . . هل تذكر ، سيدي الجنرال ، منظر ستالين المضحك ، أمام عدسات المصورين ، عقب توقيع المعاهدة الالمانية السوفياتية ؟ يقول دجيلاس ، وهو قابله قُبيلك او بُعَيدك ، انه كان أصلع . وأنا حين عرفته ، كان ضابطاً قوياً في الشرطة ، ذا سطوة وغليون رشاربين . .

ـ لكنه عام ١٩٤٤ ، كان استحال هراً عتيقاً . أصلع ؟ ولكن الهر أصحر . لم يكن ينظر إلا الى المستقبل ، لكنه لفتني بتعلقه في الماضي .

ـ الماضي ماثل بوضوح في روسيا . في مكتب لينين ، قرب خارطة جبهات الحرب الأهلية ، وعلى كدسة مؤلفات ماركس ، تمثال انسان منقرض ، من البرونز ،تقدمت صناعي أميركي كان يريد تأسيس مصانع أقلام ، بعدما قررت الحكومة تعليم الأطفال الكتابة . . . وشاهدت المسرحية المقتبسة عن رواية : « عشرة أيام هزت العالم » ، فكانت أخاذة اسطورية بحتة ، اكثر من « اوكتوبر » ايزنشتاين . وفي اليوم التالي زرت متحف ماركس وانغلز وهو كثير الفراغات حتى كان مكان متسع ، في الغرفة الأخيرة ، لبعض العشاق يتبادلون القبل الحارة التي لا تتيحها لهم مقاعد الشارع . والى ذلك ، قيامة لينفرد النصبية ، ومقبرة الخمسة آلاف ضحية ، وتمثال ستالينغراد الضخم الذي هو فعلاً في ضخامة سبارطة . .

ـ وعـدا الباهر ؟

ـ لدى غوركي ، كان ستالين خداعاً شاذاً . كـان الجذل الصامت . وكان أظن ،تحت سيطرة الهلوسة الاحصائية (كما انت ، سيدي الجنرال ، تحت ارادة الجمع) : لو قتلنا جميع الذين عرفوا من عرفوا . . . نصل الى المذنبين الحقيقيين ، أو نشلّهم . وكان يقول : « معي ، لن يتكرر فرنكو » . ومع هذا ، لم تكن تهمه براءة الكان يقتلهم أو يرسلهم الى الأشغال الشاقة . تَذَكَّـر جوابه الى دجيلاس الكان يتشكى من اغتصابات الجيش الأحمر في يوغوسلافيا ، اذ قال : « عانى هذا الجيش كثيراً حتى بات لا تصح محاسبته على أي شيء » . وخاصة اسرى الحرب الروس المرسلون الى الاشغال الشاقة ، والذين منهم تمكنوا من الهرب .

ـ هل الهاجس الإحصائي يفسر تصرف الطاغية ؟

ـ لا تزال تذكر حواري مع بوخارين ، وكان بعد في الحكم : « لحل مسألة الغولاك (المزارعين الأثرياء) وفق نظريتك ، يجب قتل ثمانية ملايين منهم » ، وعندما سألته : « وبعد ؟ » ، سكت فبدا أفعواناً رهيباً ذا شاربين . . . ثم كان حواري مع كوسيغين عام ١٩٦٦ . صُوِّر لي سياسياً محنكاً ، لكنني رأيته الثالث الباقي من

الثالوث الحاكم ـ والباقيان كان قتلهما ستالين ـ ، وهو كان عمده لينغـراد عند المعركة . وتذكرت أكبر مقبرة مدنية في العالم . ولكن حوار ذاك ، كان هو نفسه مع شو إن لاي ، مزج أخذ المواقف التاريخية الصلبة مع التأكيدات . . . وهو حدثني عن الحكم الفردي المتهم عند ماو ، عن تطور الإنسانية : « لا يمكن أن نخيط الناس في

سروال واحد ، فلا يعودون سوى جنود . إن زمان المتعصبين عَبَر » .
بعدها ، ختم بتأكيد جازم : « ثمة فرق بين الحزب الذي عرفته ، وما هو عليه اليوم ، كالفرق بين موسكو التي عرفتها ، وما هي عليه اليوم » . وأظنه على حق ، إلّا في كون الحزب لم يعد هو الحزب . وهو ، على أي حال ، واقع تحت سيطرة شخصية ماو ، وطموحه في غزو آسيا . قال لي « على ماذا يتكل ماو في ذلك ؟ الإنتليجنسيا ضده . انه الديكتاتورية عينها ، وسيؤدي به الأمر الى الرأسمالية عند وفاته ، سيكون فراغ كبير . كل ما فعله ، مستند على الخوف » .
قلت له : « لكن الخوف دافع كبير ، سيدي الرئيس » . فأجاب :
« قد ينتهي الصينيون الى التدخل في فيتنام« (حيث لا يمكن الاتحاد السوفياتي أن يدخل) هم يختارون الحرب ونحن نختار السلام » .
قلت« هـل تعتقد ، سيدي الرئيس ، أن الولايات المتحدة ستستعمل القنبلة الذرية ؟ » قال : « لا الصينيون يتكلمون كثيراً على الحرب ، لكنهم لن يخوضوها . حتى في فيتنام . لست متأكداً من أن قوى السلام يمكنها أن تصنع السلام ، لكنني متأكد من أن قوى الحرب ، صورياً ، لا تستطيع ان تصنع الحرب » . . . يومها ، سيدي الجنرال ، كان الثلج يتساقط ، كما هنا ، انما أغزر . وأمام النافذة نفسها الكان يقف عليها ستالين، وجدت خطاباً قديماً :«كان ستالين يقف أمام نافذته،من الكرملين ، ينظر الى الثلج المنهمر يغمر الفرسان التوتونيين والجيش الكبير» . . . وعام ١٩٣٤ ، رحت في ذاك الشارع الصغير عند أسفل الكرملين ـ افكر بهذا البلد الوسيع التاعس ، يهدده هتلر من جهة ، وهو من جهة أخرى يحلم بمنافسة أميركا الهائلة . ورحت انظر حولي ، الأبراج العائدة الى القرون الوسطى ، وأتذكر الحرس الامبراطوري لناطحات السحاب في مانهاتان . . . وكنت رأيت سهوب سيبيريا تشتعل فيها أنوار المصانع

كما في بدايات حريق . . . على أن آخر ذكرياتي في روسيا ، لا يخص ستالين ولا أتباعه . فأحد أصدقائي طلب مني ـ وكان هاجر منذ ١٩١٨ ـ أن أذهب وأرى أمه في موسكو ، أسألها ما تحتاجه من مساعدة ، فزرتها . وبعد أشهر من عودتي ، وكنا معاً في صالة السينما ، قال لي فجأة : « ألا تشبه أمي اليوم هذه السيدة العجوز على الشاشة ؟ » .

في هذه اللحظات ، دخلت الى الساحة ، السيارة ذات الاطارات المسمرة ، للثلج ، والتي ستقلنا الى بار : نهض الجنرال ليرافقنا ، مضيفاً كما كي لا ينهي ضيافته المتواضعة والخالدة ، دون أن يبلغ جوهر الموضوع . قال :

ـ تذكروا ما كنت قلته لكم : أجد أن لا شيء مشتركاً بيني وبين ما يجري .

ـ لكن الشخص التاريخي يبعد الابهامات . . .

على أن رجال التاريخ لا يشبهون قط ما يتمناه لهم خصومهم . وقد لا يشبهون نفسهم كذلك . . . أكمل قائلاً :

في السياسة ، ثمة خطة اسمها التاريخ . والكلام عليها كالكلام على المبارزة . تعرفون عبارة نابوليون : « الحرب فن سهل ، يلزمه تنفيذ » . فلنفكر قبل أن نتصرف ، لكن التصرف لا يولد من ناحية التفكير انه شيء آخر . قلت لكم سابقاً : القدر التاريخي لا ينفصل عن أخطاء كثيرة . لم أخطىء كثيراً في تقديراتي عن فرنسا ولا في ما كان علي فعله تجاهها . ومع هذا ، قدّرت أن روسيا ستكون عاجزة عن صنع القنبلة الذرية ، وأن الحرب عام ١٩٤٦ تقترب لا محالة ، وأن فرنسا عام ١٩٤٧ ستعلن عجزها عن الاحتمال . . . عام

١٩٦٠ . قال لي أديناور ان الاشتراكيين اذا استولوا على الحكم في بون ، سيتعاملون مع موسكو . وكان كلانا مخطئاً في تقديره الا على مصير فرنسا ، لم اكن أخطىء فلم أخطىء في تأكيدي إن بيتان لن يذهب الى الجزائر . كنت على حق في قولك إن المرور في مونتوار يؤدي الى سيغمارنجن . فلم يكن يجب المرور في مونتوار . من هنا ان فرنسا ، عليها ، حتمًا ، التصدي لاعادة تنصيب رايخ جديد ، ووضع اكليل على الجندي الالماني المجهول . . . الزمن وحده يصنع التاريخ . واذا تاريخ فرنسا يمر في استقلال الجزائر ، فليمر ! في اتحادنا مع المانيا ، فليمر ! لم يكن مفرحاً ، الندم على استقلال الجزائر . كان يجب ، على أي حال ، التفكير بأننا مسؤولون عن فرنسا . وعلى عكس ما يعتقده السياسيون ، لا يقومون هن بأي شيء يجمعون مساحات ، بانتظار خسارتها . يدافعون عن مصالح بانتظار الانقلاب عليها . ان التاريخ ، طريقة من دروب اخرى . هؤلاء المساكين يظنون أنني تصديت لميتران أو لبوهير . . . لكنني وجدتني متصدياً لما جئت الآن تتكلم عليه . فرنسا كانت روح المسيحية ، واليوم روح الحضارة الاوروبية . فعلت كل ما بوسعي للحفاظ عليها هكذا . . . فما اهمية أيار وأخبار السياسيين ؟ أنا حاولت اقامة فرنسا مقابل نهاية عالم . . .

صحيح . . . وهو كان كتب : طويت صفحة الانظمة الاستعمارية . وطوّر الفكرة ، اننا نعيش نهاية المغامرة الكوكبية الأولى ، التي بدأت مع الاكتشافات الأولى . فاكتشفنا العالم كله ولم يكتشفنا أحد . ثم كانت المستعمرات ، ثم الانظمة الاستعمارية ، وأخيراً إزالة الاستعمار . تبدأ الأمور غامضة ، ثم تنتهي في وضوح :

نهرو في دلهي عام ١٩٤٧ ، ماو في بكيز عام ١٩٤٨ . والقوى الثلاث أو القوتان والنصف : أميركا وروسيا واليابان ـ وهي ركائز المحيط الباسيفيكي ، وبينها الهند لا مع أوروبا . وبعد المقولة : في القرن الثامن عشر ، دخلت اميركا وروسيا معاً في التاريخ » ، ستقوم المقولة : « في النصف الثاني من القرن العشرين ، حين انهارت الهيمنة الاوروبية . . » وعاد الجنرال الى الكلام :

ـ تراني فشلت ؟ لسوف يحكم الآخرون . لا شك اننا نشهد نهاية أوروبا . فلماذا على الديمقراطية البرلمانية ، وتوزيع مكاتب التبغ ، أن ينهضا بأوروبا ؟ ولماذا على فرنسا ان تتحمل وزر جيرانها ؟ ولماذا نموذج من الديمقراطية كدنا نقضي عليه ، يكون مقدّساً ، حين المطلوب تجاوز العقبات الكبرى التي يتطلبها خلق أوروبا ؟

لم يكن متأكداً من امكان نموبلجيكا . ومعه ، بت لا أؤمن بتسليم قدر وطن الى ما نريد التغيير فيه ، حين يكون هذا البلد مهدداً . لكنني كنت أؤمن بتسليمه قدر أوروبا . وراح يكمل :

ـ يقدرون الديمقراطية بعد فقدانهم إياها . وأية ديمقراطية ؟ لدى ستالين أم لدى غومولكا أم تيتو أم بيرون ؟ أم ماو ؟ الولايات المتحدة عرفت سلطانها : روزفلت ، وهي اليوم نادمة عليه . من هنا سقوط أوهام كيندي . انتخابه كان على الشفير ، وهذه ظاهرة ستتكرر : في بريطانيا وعندنا . في الانتخابات الأخيرة ، لم أحصل على هذه الاكثرية الا بالخوف ، وراحت الاكثرية مع الخوف . يوم ولدت الديمقراطية ، ولد العالم على البعد الثالث . ولماذا لا يمكن الحكم بنسبة ١ ٪ من الأكثرية ، لماذا ؟ أما أوروبا ، فتعرفون مثلي ، فاما أن

تتحالف مع الولايات المتحدة ، أو أن تنهار . نحن آخر الأوروبيين في أوروبا ، بعد المسيحية ، أوروبا الممزقة والموجودة رغم تمزقها ، أوروبا التي تتكاره فيها الامم . . . بلى ، فرنسا لن تستعيد اوروبا ، وموت اوروبا يهدد فرنسا بالموت .

أظنه يتكلم على أوروبا ايام الاسكندر . . التفت وراءه ، فوجدت الغابة تمتد خلفه مديدة . سلت برهة وأردف :

ـ الطلاب المهتاجون ، عملية تفصيلية . خُلِقَ الطائفيون لطرد الشيطان ، ثم أُدخل الشيطان بين الطائفيين . الديمقراطية الحقيقية أمامنا لا وراءنا ، وعلينا خلقها . يمكن الأمة أن تكسب الوقت ، ويمكن الشيوعية أن تظن الشيء نفسه . يجوز ان تكون الحضارة بلا أي ايمان معينّ ، ولكن ما تضع مكان هذا الايمان ، وعبّياً أم لا وعبياً ؟ لا شيء نهائياً في هذا الموضوع . لو كانت فرنسا تعود فرنسا . . على كل ، حاولت ما في وسعي . . . إن كان مكتوباً علينا أن نشهد موت أوروبا ، فلنشهد : هذا مشهد لا يحدث كل صباح . . . فرنسا شهدت حكم الكثيرين . . . قلت لكم مرة إن الأمر لم يكن يسير كما يجب ، يوم معاهدة بريتيني ، ولا يوم ١٨ حزيران . . ولكن اكرر : إنطلاقاً مما قمت به ، لا مما يقام اليوم . كل ما يجري ليس يعنيني في شيء .

وهل من يشك في ذلك ؟ جميع المسؤولين اليوم يعرفون انهم لن يجروا بعد الى هذا الرهان الخطر . وغير المنظور ، بعد اليوم ، لم يعد فرنسا ، بل لدى الآخرين . . .

الى هنا ، كنا وصلنا الى الباب . مدّ لنا الجنرال يده ، وتأمل في الفلك النجوم الأولى ، بين غيمتين هاربتين ، وقال في سخرية :

ـ انها تؤكد لي فراغ الأشياء من المعنى . . .

واقلعت بنا السيارة . وبقي الثلج الابيض ينهال على الأشجار السوداء . هل ، حقاً تكون دون معنى : المحافظة على فرنسا ضد كل شيء ، والمقاومة البائسة وكل هذه المغامرة اليائسة ؟ وهل من الوهم : ازالة الاستعمار ، ونهاية المأساة الجزائرية ، والرجل الذي كان يعني فرنسا كلها متكلمًا ، الند للند ، مع رئيس الولايات المتحدة ؟ تذكرت احد نقابيي عام ١٩٣٤ ، اذ كان في تلك الاضطرابات عامئذ حاملاً علمًا أحمر وأسود ، فيما المسؤولون السياسيون يصرخون أمام الشرطة الحارسة : « أنزلوا هذا العلم . . . أسقطوه . . . أسقطوه . . . » . .

الثلج ما زال يتساقط . . . عدت الى عصور من الظلمة انتصبت فيها الأجراس الأولى . . . الى عصور كانت فيها الساعات تسهر على المسيحية برقاصها الوحيد . . . ساعة سنغور دقت ضربة واحدة في مكتب داكار المكيف الهواء ، فارتجف الهواء الساخن خلف الشبابيك . هل الطقس جيد في داكار اليوم ؟ وهل رؤساء البلدان الافريقية الجديدة ـ وهم لا يفكرون بأوروبا الا لمساعداتها ـ يحلمون بالوحدة الأفريقية ؟ تذكرت ذاك الزنجي الختيار يمشي وراء حماره في ذاك الزقاق . وفكرت : ما أهمية افريقيا وماو (اذ عاد يحتل الصين) والاهواء التي انهالت على الشعوب ، وما اهمية حتى الشعوب ؟ وما يمكن ان تحمل لماو وللملكة كازامانسا ، دوائر هذا الثلج العتيق ، ورفيقاته الخالدات هذه الغيمات العابرة فوق الأجراس الحية والمقابر الزائلة ؟ فكرت بتوحشي بورنيو ، وجميعهم حالون . . . وفكرت كذلك ـ ربما عن خشيتي ان تكون هذه

آخر مرة أرى فيها الجنرال ـ بمنزل نهرو ، وبيبيانـاريس : « أنا موت كل شيء وولادة كل شيء . . أنا الكلمة والذاكرة ، المثابرة والشفقة . . . أنا صمت الاشياء السرية . . . » وراح الغانج يحمل في انسيابه انعكاسات زرقاء وحمراء في الليل . . . « الآن ، فالفظ عبارات الحكمة غير المجدية » . وتعود لي انوار المصابيح الشحيحة في دروب بيناريس المسدودة ، وبالامس في شوارع اور وبابل ، يرافقها نباح كلاب من بعيد .

في برونين ، عام ١٩٤٠ ، كان ضابطنا ينتظر الاوامر . واذ لم يكن لائقاً ترك الجنود بلا عمل ، كانت مهمتهم ان يبحثوا عن انفال من اربع وريقات (لا ثلاث) . . . اتذكر انعكاس القمر على مصفحتنا ، فيما نحن متجهـون صوب الخـطوط الالمانية . . وذات مساء من حزيـران ١٩٤٠ ، كان ضبـاب الصيف كثيفاً ، وكان الفلاحون يحـرقون كـومهم قبل مجيء الليل . اتذكر الكاهن الذي مات في غلير . . . كان ذلك في ليلة مثلجة كهذه ، وكنا نتقدم في خط قتال متلاحق . كان يحمل بندقيته ويمشي بطيئاً . تباطأت لأنتظره ، قـائلاً لـه : « بماذا تفكر ؟ » فقال : « احاول ان أرى المسيح » . ولما كان عليه أن يلفظ الصلاة الأولى لضحايا الادغال ، قال فقط : « يا رب ، الذي تسمعني ، اعطنا التسامح . . . . وعند المساء سقط بطيئاً بين زوابع الثلج . وانتهى زمان هذا الـرجل ، وزماني . وهي نهاية زمن مسيرة غاندي نحو المحيط ليجمع منه الملح ، ومسيرة ماو نحو التيبت ليجمع منها الصين . وانها نهاية هتلر في زاوية غرفته الحصينة تحت الارض في برلين ، وهو يسمع جلجلة المصفحات الروسية الأولى تصل ، ونهاية نهرو

متذكراً اعشاب سجنه ، ونهاية فرق ماو المعلقة على الجسر امام البنادق ، ونهاية فيتمنه الساحقة بالنابالم ، عند الاثداء المدماة الاندونيسيات اللواتي صرن شعائر الاحزاب المتعاقبة على الانتصار . تذكرت ليالي الهند الصينية ، ومدن الهند المتروكة للطواويس او للقردة ، والضياع التي صارت عواصم متلألئة كما عينا ذاك الهر الفوسفوريتان في ليل داكار . واتذكر الجيش الالماني الكانت فيالقه تغني في شوارعنا ، والمدن الالمانية حيث دخلنا مع مطلع ١٩٤٥ ، بين تلك الشبابيك الكانت فيها شراشف السرير اعلاماً بيضاء . واتذكر قول الجنرال في مأتم جان مولان : « ادخل هنا ، جان مولان ، بموكب جنازتك المهيب » .

وأتذكر برقيات لندن الى الادغال .. وعناصر البوليس الالمان حين كنا نحمل مسدسنا الأول ... واتذكر رفاقنا الضائعين ورفاقنا الموتى ... ومعسكرات الابادة الكانت تضيع فيها قوانا ... وحواجز الجزائر وآخر مؤتمر صحافي ضاج بكاميرات التلفزيون على منصة صالون الشرف حيث كانت تجري حفلات الباليه الكانت تلي مآدب استقبال الملوك ..

كانت اغصان الجوز تتكسر في الفضاء المنطفىء ... فكرت بجوزاتي في الألزاس ، المرمية على الجذع ، والمهيأة تكون بذوراً من جديد : انها الحياة بلا ناس . وكان لنا ان نحاول القيام بما يستطيعه الانسان بيديه الزائلتين وفكره المعدم ، ازاء سلالة الاشجار الأقوى من المقابر . فهل الجنرال ديغول سيموت هنا ؟

مررنا أمام مرقب فيه حارس حامل بندقية ، وغادرنا ساحة

البواسري الجنائزية ، وفيها الآن ، آخر رجل عظيم هز فرنسا : هل هذه احتضار ام تحول ام وهم ؟

هبط الليل كلياً . . .

هذا الليل الذي يجهل التاريخ . . .

*

بعد الثلج الميروفنجي في كولومبي ، بدا لي ما ينشقه بنا القطار الى باريس ، ثلجاً مدينياً وعصرياً . . . وحدي ، في القطار ، بمن عساي ، الا به ، افكر؟ كما ، وحدي ، في السيارة التي اقلتني بعد لقائي معه في اوتيل لابيروز . لكنه ، هذه المرة ، تغير قليلاً . وفقد ، نوعاً ، حواره اللجوج حول المستقبل : « الآن علينا النهوض بدولة موحدة ، وتجميد العملة ، وحل المشكلة الاستعمارية » .

طوال عشر سنوات ، كنت امام رجل مهاجم . واليوم كنت أمام رجل محاط منذ اشهر بهالة الوحدة والانفراد ، وجهاً لوجه مع ذاته ، ازاء قدر لم يعد يحميه شيء . كان مرة قال لي عن نابوليون : « لم يبق له وقت لروحه » . . . وها هو اليوم ، اظنه يصرف وقت روحه .

يمضي نهاره ساعات طويلة في الكتابة ، والشطب والتعديل ، عاملاً على فسحة الأمل ، حتى انه ، في عنوان كتابه ، ذكر الأمل . لم يهرب مني نبضه ، كما الآن ، ولم اشعر مرة ، كما الآن ، كم ان الذي يجسده ، لا يشبهه كثيراً .

حين قلت له : « شخصيات تاريخنا الكبيرة ، لم تطع الا ما ارادت هي ان تخدم » ، لم يجبني فوراً ، ثم قال : « أنا

كذلك ، كنت اسطورة » .

اسطورة ؟ اجل ، لكنها غريبة عن كل تأليه لشخصه ، فانها سابقة له . نحن نعرف وجوهاً من الخيال غائرة في الانسان ، بانتظار تجسدها الذي تظهره احياناً : فيوليوس قيصر كان يحلم بالاسكندر ، ونابوليون كان يحلم بيوليوس قيصر . والانسانية لم تحتج عصافير لتتخيل الملائكة (وهم علامة الانتصار الاغريقية) ولا فزاعات لتتخيل الاشباح . والجنرال ، عام ١٩٤٠ ، تقرب من الاسطورة بواسطة الاحتجاب وطغيان الحضور ، حتى باسمه . لم يكن الا هذا الاسم ، وتلك الرتبة التي كانت لعبت دوراً ضده لو كل ما كان يقوله وكل ما كان يقال عنه ، يتناقضان وكلمة جنرال .

وهو كان ليشبه قادة الحرب الاخيرة ، لو لم يتميز عنهم « بالكلمة » . وانما اقيمت المقارنة بين نداء ١٨ حزيران وجدول اعمال اجتماع المارن ، لو كان جوفر سجل النداء الثاني .

كان مر وقت لم نسمع فيه كليمانسو ، فيما سمعنا الكثيرين سواه . ذلك ان كلام فرنسا الحرة لم يكن هو نفسه كلام مجلس النواب .

وهو منذ اليوم الأول ، لم يكن رئيس بعثة اجنبية ، ولا رئيس حكومة في المنفى ، يتصدى للجنرال بيتان ، الذي كان يتولى لهجة غير منضبطة . الجنرال قال ان فرنسا شهدت غيره الكثيرين ، وكانت فرنسا ، هذه المرة ، تتكلم للمرة الاولى بدون تشبيهات ، لكي يسمع كلامها . فرنسا لم تخسر الحرب ؟

المنطق الكان يسمع وقتها : « اسمعوني ، فاذا سمعتموني ، اكون حية » .

لعبت الايديولوجيا في ثورتنا ، دوراً جعل العقدي ، في نظرنا ، هو صاحب العقيدة لا تجسيدها . فسان جوست ، مثلاً ، لم يكن يهتم بتطبيق آرائه في « الانظمة » ، بقدر ما كان همه العقدي الأول : السلام العام . ومن هنا ، ان خصم « مانيفست » ماركس ليست نظرية ديغولية ، بل نداء ١٨ حزيران .

ان الفرنسيين ـ لا أنا ، رغم تلميح الجنرال ـ هم الذين اخترعوا كلمة ديغولية ، كما اخترعوا كلمة « الستالينيين » ، بينما في الولايات المتحدة ، لم تسر كلمة « الروزفلتيين » . وعبثاً حاول الجنرال ابعاد هذه الكلمة ، لانه كان يقترح ولاء ازاء كلمة « بيتانيين » ، عقيدة ازاء كلمة « شيوعيين » . مع ان الواقع الديغولي والعقائد ، ليست امراً واحداً في طبيعة واحدة . فالاسطورة النابوليونية ليست وليدة القانون المدني . وليست التوماوية هي التي تحرر أورليان ، ولا العمل الفرنسي او الماركسية تخلق فرنسا الحرة . فالجانداركية تيار غير وارد .

يوم ١٨ حزيران ، طرح الجنرال ديغول مبادئ السلام العام . والذين لم يسمعوه ، اعتبروه قائد بعثة اجنبية تائهة ، والمدافع عن الوطنية التقليدية . أما الذين سمعوه ، فظلوا مدهوشين . فكلما اعطى احد الى فرنسا هذه اللهجة الدورية (كما في اغريقيا القديمة) . ذلك ان وطنيته ليست التعصب الاعمى ، فيما كان الفرنسيون يخلطون بينهما . فلماذا كثيرون

من الفرنسيين اعتبروا من التقليد ـ او من الاستمرار ـ احدى اعمق هيولاتنا : هيولي الوطنية ؟ منذ ١٥٠ عاماً ، سرت وليس في فرنسا فقط ، تسمية شعور التفوق الوطني . وتنامي مفهوماً الدولانية والسلمية ، ضد مفهوم القوميات اكثر مما ضد مفهوم الاقليميات . كانت الأمة اليائسة ، التائهة ، الضالة ، تغمغم نداء مازوشياً يدعو الى التقاليد والعودة الى الامجاد الغائبة . فالوطنية التي تكلم عليها الجنرال كما على بديهة ، كانت مبنية على الحرية فقط : الألمان مكانهم في برلين لا في باريس . كان ضد الفاشية ، ولم تكن تكتلاتنا كذلك . كان الفرنسيون الأحرار يواصلون القتال (حملت اليه معركة بير حكيم رمزاً يائساً) وكان اعلن منذ اليوم الأول ان اللعبة خاسرة . كانت فرنسا تعتقد نفسها حية فيما محتضرة وتصرخ بالكارثة : جاء هو ، فخاطب هذا الضمير الواهي الذي يوحد الفرنسيين للمرة الأولى منذ امد طويل . لم تكن فرنسا ، الا صورة من ابينال ، وانما الجميع ، بفقدانهم فرنسا هم الخاصة ، اكتشفوا هم ايضاً انها ليست كذلك . انه تكلم بقوة لاعقلانية ما يعرفه الجميع ويسكتون عليه ، وعبر عن الاتحاد الكان يعطي الامة المسحوقة ابسط معادلات الحب : « انت ضرورية لي » .

من هنا ، ان هبته السماوية كانت اعادة فرنسا قريبة وقوية ، كما فعل القديس فرنسيس بالمسيح . فتقريب الالهي المقنع ، لدى اكثر الديانات ، هو زرع الشعور بالحضور الذي لا يقنع الا حضوره . ومن البديهي ان فرنسا لا تنتمي الى الفوطبيعي ، لكنها ، بهذا الحضور ، لم تعد تنتمي الى المجردات .

ان فرنسا الحرة جمعت اولئك الذين ضمهم الى هذه الفرنسا المرة . وعند لحظة الحقيقة ، كان كل واحد متعلقاً بمشاركته اكثر مما بهدفه . وكما « الاقتران بمعركة كبيرة » ، دعا الديغوليين الى الاقتران بفرنسا باسم الاطفال الذين سيولدون من هذا الاقتران ، فاندهش الفرنسيون لتنبههم أن فرنساهم ليست عاقر . كانوا يريدون كل شيء : ديغول وبيتان بدون سيغمارنجن (المدينة الالمانية التي انتقلت اليها حكومة فيشي) .

هذا الماضي الأخوي ، وهو ايضاً ينتمي الى الاسطورة ، كان يمزج جاندارك بالجمعية التأسيسية ، في ديمقراطية متسلطة ووطنية . فهل لوكلير اتخذ اسمه المستعار من ذاك الفارس لرفولي ، عام ١٧٩٢ ؟ عند نهاية الحرب ، كان غرقت في النسيان خطابات الجنرال جيرو ، وبينها واحد يعلن ان الشعب الذي يتكل على السكرتيرات ذوات الطلاء الاحمر على أظافرهن ، لا يمكن يسير الا الى الهزيمة . وليس ادل على ذلك ، مما لم يكنه ديغول وبما كانته الوحدة التي فرضها على المقاومة ـ كما في لندن ـ وامكنت تحريراً رهيباً . وفي ما بعد ، فهم الجميع ان همه التوحيد طهر مفهوم الوطنية .

كانت ايديولوجيته الابسط ، تحير . كان يمكن ان يكون قائد بغتة ، او وطنياً تقليدياً ، او ديكتاتوراً او فاشياً لان المعطيات المعروفة اقوى من البديهة . والمؤرخ الممكن ان يجيب ـ قبل قراراته الرئيسة ، عن السؤال البسيط : « ما عليه ان يحاول ، في الاوضاع الحالية ، رجل يمسك بمصلحة الامة على أنها القرار الاعلى ؟ » ، كان اعتبر عرافاً .

إن فرنسا مدينة لديغول بايمانها في نفسها على هذا الشكل ، اذ كانت تؤمن في نفسها اقل . فالمصلحة العامة ، والخير المشترك ، وكتب روبسبيار وريشليو ، جميعها كانت تبدو ثرثرات ، اذ إختلط ـ في كذبة واحدة ـ كل ما كان يقوله السياسيون . ولم يكن سهلاً امر السيطرة على الديمقراطيات المعتادة ان تترف مبادئها دون ان تعرف باسم ماذا . وان تكون مبادئه جيدة او سيئة ، لم يكن الجنرال يترقبها .

والى هذا ، تجاسر وسمى انقلاباً ، ما حدث في داكار ، وانتصارات رومل ، والعلم الهتلري على الأكروبول ، والانهزامات الروسية . لذا ، فهمه الذي بحجم التاريخ ، وكرهه للسياسة ، وايمانه الكان يشبه تعزية امام نعش ، والـ « لا » التي منذ قالها ، « اول يوم » ، اتخذت حجم اللاءات التاريخية الكبرى ، وصوته ـ دائمًا دون وجهه ـ ، جميعها عوامل ساهمت ـ منذ بدأ يحالفه الحظ ـ في أن تجعل من هذا الصوت ، صوت فرنسا . ذلك ان تلك الـ « لا » المنفردة كانت تزرع ايماناً ذا مستوى ديني عميق . فالايمان هنا ليس شعوراً عقلانياً ، ولا « لا » انطيفون وبروميتيه . وهو لا يعكس رأياً بل يتضمن البؤس والامل » . . . انها « قوانين اكثر جبرية وسمواً من القوانين البشرية » ، وانها بديها مستقبلية « اكثر جبرية وسمواً » من الحاضر . من هنا ان الطريقة الأثبت لعدم فهم الجنرال ديغول ، كانت اعتباره لوكلير آخر ، اذ كان الجميع في انتظار قائد بطل للمصفحات ، جاءت الاسطورة فحلت محله ومحل صورة الجنرال الرجعية . وذلك لم يأت دون جهد ، اذ ان تلك الصورة كانت صارت ذات تقليد واضح ،

جعلت الكثيرين ينسون ما حفظوه من صورة عن الرومان . والجنرال ديغول لم يقد بنفسه اية من قوات فرنسا الحرة . وما كان يقوله ، لم يكن صحيحاً لأن الحدث كان يثبته ، بل كان يصير ديغول لأنه كان يتكلم بهذه اللهجة . لم يكن جنرالاً فرنسياً يحارب في لندن ، بل خلق من هذه الكلمات ، بدون صورة ، بمعنى أن كل خالق كبير يصبح اسطورة تثيرها اعماله .

والاسطورة لا تنحصر فقط في الحركات التي تثيرها ، ولا في ما تخدم ، ولا في من تخدم . لذا ، كانت اسطورته آخر هيولى لأسطورة فرنسا ، التي لاتظهر الا من خلال الهيولات . ومع ان اساطير كهذه تتغذى من الخيال الذي يسبقها ، تفرض نفسها بما لا يخضع لما يسبقها ، كما ابطال الروايات الكبيرة ينتسبون الى الوهم ، انما لا يفرضون نفسهم الا بما يميزهم عن اسلافهم . فالاسطورة ليس تقليد عذراء الفراشات ، بل هي الفراشة نفسها . وهذا ما يمكن الهند ان تسميه : تقمص الامم .

كان للتحرير ان يجسد تلك الاسطورة ، دون ان يكون لها الوقت لتحطيمها ، وفيلكس غوين دفع الفرنسيين للعودة الى كره سياسييهم . ثم نشأت حركة الجمهوريين الشعبيين الفرنسيين ، لكنها لم تكن تملك اذاعة ولا تلفزيوناً . وبقيت ، حتى انتصاراتها في الانتخابات البلدية ، حركة تمردية ، الا على الجنرال ديغول . وكان انتصار آخر محدود ـ او متسع ـ بحسب عدد المناضلين مقارناً مع عدد المقترعين . كثيرون اخذوا كلمة تجميع في محمل طيب ، فيما قصد بها الجنرال اعمق معنى بعد

كلمة الأمة . وكثيراً ما قيل ـ حتى قبل ماركس ـ ان هذه الكلمة لا تعني سوى الوهم او المكر . فكيف يمكن اقناع الذي طوال خمس سنوات لم يحاول الا ذلك ، ضد كل التيارات ؟ ها هو يقول : « لن ينسى التاريخ انني ، في لندن ، استقبلت كل الناس » . وأنبل الاهداف تلك التي لا نبلغها قط : ارادة الوحدة ، وارادة العدالة . فلدى اخصام الجنرال ، كانت إرادة التجميع فكرة طوباوية ، كما كانت الاشتراكية لدى اخصامها ، حتى دخول لينين الساحة . من هنا ، ان الطوباويات تبقى الشكل الافضل للامل لدى الاخصام .

فنسان اوريول اخترع التحالفات الانتخابية : جمع اصوات الاحزاب المتحالفة ، اي جميعها تقريباً ، ضد الشيوعية والديغولية ، أو أن الجنرال كان يحالف حركة تجميع الشعب الفرنسي (مع الحركة الجمهورية الشعبية مثلاً) ، لكنه بهذا كان يدخل في نظام الاحزاب ، او أنه كان يرفض ، ويؤمن انتصار قوة ثالثة قد تتهمه بالتحضير لحزب واحد . ذلك ان اكثرية اعضاء التجميع لم تكن تفهم ان الحزب الواحد ، في مفهوم الجنرال ، اياً كان هذا الحزب ، يفسد الدولة . وكان اخصامه يخشون ان يختار الصيغة الأولى ، لكنه لم يعلنها . ولم يجزم بين النجاح والخسارة ، بل قرر ان يستدعي المصلحة العامة للامة ، ولم يكن يرى ذلك وهماً ، اذ كان يؤمن بالتجربة الرئيسة في حياته : كانت فرنسا الحرة وحدت قوى مبعثرة ، في عمل واحد . وحتى جان مولان كان يقول : بعد الانتصار نناقش . وحين قال ان الحكم يحتاج الى لملمة ، رفض المجازفة بالحرب الاهلية للملمته ، حتى حين تأكد من ان

التحالفات ستقضي على حركة تجميع الشعب الفرنسي اذا لم تدع هذه الى الثورة المسلحة والعصيان . فمنذ ٦ شباط ، كانت حرب اسبانيا (والخشية من حرب اهلية لا تخيف المصادقة فيها عسكرياً ، بقدر ما تخيف نتيجة ان تصير البلاد لعشرين عاماً او ثلاثين ، بلاداً متخلفة) هي العامل الاقوى في تاريخنا . لم يقبله البرلمانيون ، لذا كان فضله على عودة الجنرال ان لم يكن على انتصاره ، لأن الذي عاد عام ١٩٥٨ ، كان جنرال التحرير ، لا قائد حركة تجميع الشعب الفرنسي . فبعد ديان بيان فو ، وبعد آضراب البوليس ، لم يعد النظام خاضعاً لحزب او لمجلس ، بل متروكاً ، كما كانت عليه الجمهورية الثالثة بعد الهدنة . من هنا غلطة الرئيس روزفلت حين اعتقد ان فرنسا يمكنها استعادتها ، اذ كانت باتت متروكة كما الحكم بعد سدان .

وكان الجنرال ناهض حكم الاحزاب ، على غير صعيد :

ناهض ضعفه ، وعجزه عن مواجهة فشل ذريع : نهاية الحكم

وناهض لامسؤوليته ، واضطراره الى رفع التسوية حتى مستوى اسلوب الحكم ، مما اسميته : الموافقة بين المعطيات الموافقة الدفاع الوطني ، في وضع نصف جندي في كل نصف مجنزرة .

وناهض التأثيرات المتناقضة من الخارج ، وهي ذات الطابع المأساوي يزيده تعاقب الحكومات . هكذا ، يرتكز هذا التعاقب المنطقي على فرضية اكيدة هي ان معارضة الحكم ستكمل

سياسة من تحل مكانهم ، حين تدخل المصلحة الـوطنية في خطر .

وناضل اخيراً عجز فرض السلام كما فرض الحرب ـ التي كانت ستنتصر في افريقيا السوداء ـ وعجز التوصل الى وعي إرادة وطنية .

انها افكار نضاليـة ، تفرضهـا سلطته في التفكـير . والى ذلك ، ربما الجنرال ديغول كان يفكر ان الاحزاب انتهت مع ولادة الاحزاب الواحدة التي لم يكن ينافسها الا بمفهوم للدولة كمفهوم ريشليو او انكلترا الملكة فيكتوريا ، فيما تلك الاحزاب لم تكن تهتم من ذلك المفهوم ، الا بمشاطرة ديغول الحكم .

هكـذا الشعوب تمجـد ارباب الايمـان بها : كـولـومب ، الصامت غيّوم الأول ، فريدريـك الثاني ، بـطرس الاكبر ، لينين . وعندنا : الجمعية التأسيسية ، قادة الحملات الصليبية الأولى ، ريشليو ، نابوليون . وهو شعور غير معمق لاختلاطه مع وثوقية الفرص المنطقية ، فيما هو ايماني حدسي اكثر منه حكمًا تقريرياً ، وهو ينطبق غـالباً عـلى سلسلة من الأعمال المتعارضة . وهذه الثقة نفسها ، جعلت من مسألـة الجزائـر « غير مطروحة كما من قبل » حتى لدى اخصامها .

بهذا ، استعاد الجنرال طابعه الاسطوري . فالنواب ـ ليلة انطفاء هياجهم للرحيل (لا للقتال ، اذ لم يعدَ لديهم حتى ولا شرطة تعترض مظليي الجزائر) كانوا انتخبوه في مرارة ، اذ كانوا يعرفون انه لم يناد الرؤساء غي موليه وبيناي وبفليملز ، من اجل مراضاتهم ، ولا عن هم البروتوكول الشرعي ، مع

انهم لم يفهموا قط رفضه المغامرة بترك الدولة لحزب واحد ، حتى ولو كان هذا ، حزب تجميع الشعب الفرنسي . بهذا ، لم يكن ديغول رئيسهم المنتخب الذي يرضى بالذهاب الى الجزائر ، بل الرجل الوحيد إلذي يستمع اليه الجزائريون والجيش ، بل ينصتون اليه . كان « الخلاص الاكبر » ، والوحيد الممكن ان يتكلم باسم فرنسا دون ان يقابله الحاضرون بهزة كتف لامبالية . وكان ذلك واضحاً من نداء الرئيس كوتي . وفي الجمعية العمومية ، ليلة عودته ، وجد فرنسا التي يجمع عليها اصدقاؤه واخصامه ، فاتحة ذراعيها لاستقباله .

وكانت حكيمة في ذاك الخيار . لكن الذين حوله لم يكونوا على اطمئنان . لم يكونوا ، قط ، معتبرين بان حكومته حكومة انتقالية ، ولا فقط كان اليمين الجزائري يهتف : « عبد الناصر بعد محمد نجيب » ، بل اكثر المناضلين الديغوليين كانوا ينتظرون ثورتهم . على أنه ، كان سيطبق اخطر قرار اتخذه منذ ١٨ حزيران ١٩٤٠ ، التصدي لنشوء الحزب الواحد .

كنا نعرف ان هذا تصميمه ، إنما لم نكن نعرف لماذا . هل هي مسألة دون جدوى ؟ هل وجد نفسه غريباً عن فكرة ايجاد الحزب الواحد ، عوض احياء الحزب الراديكالي ؟ هل كان يعتقد بأن رسالة فرنسا ، وهو حاول ايجادها عبر الاتحاد لكن حرب الجزائر كانت شديدة الرهان ـ كانت تفترض هذا التصميم ؟ بين الحماقات السائدة ، كانت حماقة « الحكم » اشدها لمعاناً . وصارت عملية الحكم ، من وجهة نظر الحكام ، عملية مذنبة . فكل حكم كان ينهكه الخبراء في

العقم السياسي ، الذين كانوا يمارسونه لانهم يتقنونه . فالفرنسيون لا يفهمون الحكم قط ، وما يفهمونه : استغلال الحكم ، هذه الفكرة الواضحة المرتبطة بالتاريخ منذ فيكتور هوغو حتى الكسندر دوما . الله ، على ذاك الزمان المبارك ، حين لم يكن احد يغفر للحكم الديغولي ، وحين كنا مع الجنرال نتلقى الهجومات اليومية لانتهاك الحكم .

والجنرال ، حتى يوم رحيله ، كان رئيس دولة شرعياً . وصورة الاحتفال الذي به ترك نابوليون روما مع جيشه ، ثم يعود يرتدي ثوب السلطة بعد الانتصار ، كانت من صوره المحببة : وثوبه الاحمر هو الشاهد .

ذات يوم ، رأيته يدافع (ببعض الانفعال الغاضب) عن الحصانات البلدية التي كان البعض يستغلها ، معتبراً ان المجالس البلدية - لما دون العشرين الف نسمة - هي وسائط جيدة لفرنسا . فهو لم يكن يحتمل - في ارتياح - موقف مجلس الدولة ، ويعتبر مجلس الشيوخ اضعف مؤسساتنا ، لذا ، راهن على طرح تغيير شكله . فهل تراه ما زال متعلقاً بحكم « محدد » ، وبشعور ينضح بميزة متفوقة للحضارة ، على فرنسا المحافظة عليها ، كما حافظت على الجمهورية ؟

كان ديغول يعرف المعادلة الهيغيلية ، وبأن خلود الشعب ليس خلود مجموع افراده . فالادارة العامة - وهي خالدة حكمًا - تتمم القدر التاريخي ، مع او بدون موافقة الافراد الذين يجهلونها او لا يهتمون بها (وهذه معادلة تتفق واستيعاب الحزب الشيوعي للبروليتاريا) . فهل قدر فرنسا لم يكن وقفاً على الكانوا يهتمون

به ؟ جوابه عن هذا كان ، وان ببعض الهجومية ، ان الحكم لا يمارس الا من السلطة/ الدولة .

قالها غير مرة . ولدى سماعها ، يستبعد المصغي كل سوء تفاهم . لكن الناس لا يسمعون الا ما حفظوه غيباً . اقله ، ذلك القرار الذي لم تفسر مذكراته بعد ، والذي قاله مرة لي همساً : « ان حكاية الفاشية الدائمة هذه ، سخيفة . لا علاقة لنا مع هؤلاء الناس . والمنحدر الخطر لن يودي بنا الى الفاشية ، بل الى الملكية . وحتى رحيله ، ظل اخصامه يحددون حكمه على انه فاشية تتحضر » .

من هنا ، كان يقول : « لماذا الانظمة الديمقراطية البروتستانتية ـ السكندينافية والانكلوساكسونية ـ تجد نفسها في انظمة اليسار المتوسطية ، وهي لا تشبهها الا لماماً ؟ لماذا يعتقد الناس انني اهيء دولة توتاليتارية ؟ من اقام الجمهورية ، واطلق الحريات الفردية ؟ اود ان افهم سيرورة كل هذا . . . » .

لكنه بلغ التلفزيون ، وغير طبيعة الافكار من خلال الشاشة . ومكان صور الوزراء الجدد وتوزيع الجوائز ، حلت صور طائرته متوجهة صوب الجنوب ، ومكان صور التهانيء ، حل مؤتمر الجزائر . . وسواء كرهاً ام اعجاباً ، حل التاريخ على شاشة التلفزيون ، مكان السياسة . ويوم ١٤ تموز ، ولأول مرة في ساحة الكونكورد ، رفعت اعلام مؤقتة . وذكر ان سفيراً ستالينياً انحنى عليٌ قائلاً ببعض السخرية : « حتى نحن ، الثوار القدامى ، هذا امر يهزنا » . . . لم يكن مشاهدو التلفزيون يشاركون هذه المهارات ، انما يتساءلون عن الجامع المشترك بين

ما يشاهدون ، وما لم يشاهدوه في العام الفائت ؟ وبنهاية الحكم ، التي صارت عيد الاتحادات ، وبمرسلياز برليوز مستعادة من جديد ، وبالجزائر المضطربة وافريقيا الصديقة ، كانت فرنسا تطل على الشاشة الصغيرة . كانت المؤتمرات الصحافية تتكلم على الأحداث العالمية ، والصدى ـ يجيب : بم تتدخلون ؟ والمانوية الكانت تعارض الديغوليين بمناهضي الديغولية ، والتي لم يكن لها سابق الا ما عارض الشيوعيين بمناهضي الشيوعية (مع ان الشيوعية ايضاً اسطورة) حرك التغير النهائي كما يتم تحريك حلقة تلفزيونية . وهكذا ، ادخل التلفزيون الديغولية الى المنازل الفرنسية عن طريق التاريخ ، كما الاذاعة ادخلت صوت الجنرال الى تلك المنازل ، على أنه صوت فرنسا . هكذا ، لم تتغير البرامج ، بل تغير القدر .

السياسيون ، يرون في الحكم ، توزيع المقاعد ، وانتصار شعائرهم . وهم اتهموا الجنرال باضطراب الميزان بسبب ثقل سلطته ، غير فاهمين انه ، هو نفسه باق ، الرهان الثابت للمجازفة ، بشخصه او بالتزامه . فانتصار مظلبي الجزائر لم يكن يعني ضرورة تعديل الوزارة ، ولا انتصار مثيري الفتنة عام ١٩٦٨ . كما الانقلاب على الرئيس ليس كما حين الرئيس نفسه يقدم استقالته . ان الاسطورة تتساقط في الوهم ، كما البطولة . لكنها تولد اشتراكاً في عمق كل واحد منا . من هنا ، اخصام الجنرال يمزجون دائماً بينه وبين تقليده ، لكنهم ـ رفضوه او قبلوه ـ يعرفون ضرورة قتل جوريس دائماً . فالاسطورة تغذي الاسطورة : الرئيس بلباسه الرسمي ، ضد جنرالات الجزائر ، والجنرال ديغول منتصباً كما منهير (نصب حجري ضخم) لدى

دخول رفات جان مولان الى البانتيون ، في ذاك المعطف المقفل الذي لم يكن لبسه منذ الرسو . وهكذا ، امسكت افعاله بينه وبين الاحداث علاقة وثيقة لا تستبدلها ظاهرة ، حتى ولا العقائد . فهل يمكن تصور جنرال ديغول يعبر عن مواقفه بكتاب بدل موقف ١٨ حزيران ؟

ولكن ، وراء الاسطورة ، يقف شخص ذو خبرة ورصانة ، يقول : « الامور هي ما هي عليه » ، كما لو انه ينصاع لها ، فيما يهم بالتقاط زمامها . بهذا ، يكون جمع الوهم والواقع ، لا في لجم ميوله ، بقدر ما في جمع قوى متناقضة : من جهة ، الديغوليون المتعصبون ، اي جميع المناضلين ، ومن جهة اخرى ، الاكثرية الصامتة الكانت تبدأ بالكلام على الايمان وتنتهي بالتحسر على ديغول . لذا ، كان يبشر دائمًا بان الانظمة الديمقراطية فقدت الحماس الذي يغذي تجمعاتها ، وبأنها الآن تتغذى من اكثريات زهيدة تجعل من ٥٥٪ ضد ٤٥٪ انتصاراً ساحقاً . وفي الاستفتاء حول الجزائر ، الذي اعلنت اوروبا واميركا فيه ان فرنسا تتبعه ، لم يبلغ الاقل بـ ٩٠٪ ثلثي المسجلين . من هنا ، نداؤه الدائم الى التاريخ الكان يجيبه مرة كل اثنتين برداءات ، والتاريخ صنع الاكثريات المتحمسة ، فيما ديغول عرف تظاهرات الشانزيليزيه عند التحرير ، وفرنسا حوله ضد منظمة الجيش السري . ومنذئذ راح يعمل في هوامش ضيقة كما القدر .

كان دائمًا يتساءل : « لماذا لا تكون اكثرية النساء على الرجال في القطاعات الساحلية او المواطنون الذين تبدأ اسماؤهم بحرف « أ » ؟ . كان يأمل ان يجمع حوله ـ في مناصب للسلام العام ـ

جماعات ١٩٤٤ . ولكن هذه ، مم ولدت ان لم يكن من هوى تلك الجماعات الجارف لفرنسا الحرة والمقاومة ؟ عند الرسو ، كان في امرته متطوعون اقل مما كان جند في امرة فيشي .

ذلك ان قدر فرنسا الذي تكفل به المقاتلون ، بات ملكاً لفئة المقترعين الذين باتوا ـ دون ان يدركوا ـ يمسكون بالشرعية الوطنية . ولم يغير ، هو ، شيئاً في ذلك . فانما كان عليه اقناع هؤلاء بالذات ، كما لو ان فرنسا لعبت مصيرها بالنرد . فالوسائل التي استعملها خصومه ، لاقناع العدد الاكبر من المقترعين : عزاباً وشيوخاً وجماعات خاصة ، سقطت جميعها . هو ، لم يحاول اقناع احد . كان يؤمن أنه يضمهم اليه ، بضم فرنسا الى قلبه ، وانه لن يمسك بزمام فرنسا الا اذا بلغ قلوب هؤلاء ، ولن يبلغ قلوبهم الا اذا خاطبهم بحجم فرنسا . كان واثقاً من المستقبل ، وهو على رأس بحارة جزيرة سان ، اكثر من نسبة ٥١٪ من المقترعين . لكنه كان قبلئذ اقام الامة انطلاقاً من وسائل اقل فعالية ، وشعاره : « يجب ان نواجه الامور بما نملك . . . وهنري الرابع لم يكن ينتظر وسائل طوال النهار » .

لدى سماعه الشريط المسجل لخطاب بنوم بنه ، عند العودة من كمبوديا ، بدا مرتبكاً لسماعه صوت فرنسا الحية ، كما سيدة ، لدى عودتها من جولتها في السوق ، تجد سلتها ممتلئة نجوماً . وهو لاحظ ان الفرنسيين ـ الذين يخلطون الدولة مع الادارة ـ كانوا يرضون قانون المسؤولية العظمى تجاه فرنسا ـ المعطاة من الشعب ـ والممارسة من الدولة .

دائماً هاجسه فرنسا ، ولم تسأله يوماً . السائل الملحّ ، كان

الدولة . وكان يتحدث عنها كما عن بونابارت قنصلاً ، وكما العلماء عن العلم : كميدان قوي تغذيه المغامرة . من هنا كان يأخذ على القديس اغسطينوس غياب التفكير السياسي عنده . لذا ، بدا القانون الجديد له ، ملحاً تماماً كما الجزائر . فليس من سلم عام بدون تجنيد ، ولا تجنيد دون الدولة الثورية التي اطلعته وفرضته قانوناً . وليس من امة بدون دولة ، كما فهموها منظرو الاممية الكانوا يفرضون غيابها . بينما الجنرال لا يرى ، ولم ير قط في الدولة ، جهاز سلطة طبقة ، بل وسيط الوحدة الوطنية المهددة دائماً . وكذلك كانت ترى الجمعية التأسيسية . كان يقول ان اكبر خادمي فرنسا ، خدموها وهم يحولون الدولة ، فلا يمكن تصور بونابارت قائداً عاماً للويس السادس عشر .

ان الملكيات والجمهوريات اعطت للامة شكلاً ، بدونه كانت ستبقى جسداً بلا روح ، ومفهوماً مطلقاً بدون تاريخ . ومثلما ريشليو ، كان يعتبر مهمته الأولى خلق الدولة ودعمها ، مما يخدم فرنسا بشكل رئيسي .

وثمة عوامل (كما العمل ، والمهارة ، والصناعة ، وتجارة فرنسا ١٦٢٠) لم تكن مختلفة عن عوامل فرنسا ١٦٥٠ ، حين كانت اقوى ملكية للمسيحية . من هنا ترديد الجنرال : « حين يتحد الفرنسيون . . . عندها . . . » ، مما كان يدل على شعوره بامكان تحريك تاريخي هائل ، لا تعود تلتصق به دولة الاوهام والفوضى . من هنا ان الدولة الكان يحلم بها ، كانت عكس الادارة . فهذه تدير ما يستمر ، وتلك ، ما يتغير . دولته كانت اداة المستقبل في الأمة ، واقوى وسيلة لتنسيق قواه . كان يقول : « لم نفعل شيئاً كثيراً منذ نابوليون . . . الا جهلنا دولة

ننتظر منها كل شيء ، حتى حقنا في السعادة » . لذا تعلق جداً بفعالية جهاز الدولة ، وكان يرى فيه اكثر من جهاز : بنية حية واسيرة ، تنتظر تحريرها من الجمود والامتثالية ، والاقطاعات النقابية واقطاعات أرباب المهن ، ومن الخرافات ، اي كل ما يمكن ان ينافس قيام الدولة . وهو حلم بذلك في قصة كما قصص الحرب التي هي ، اولاً ، قصص الجيوش . وانه كتب قصة الجيش الفرنسي . واذا عدة ضباط تعاملوا مع الستراتيجية ، فأبرز مؤرخ للجيوش ، دلبروك ، ليس عسكرياً ، بل استاذ . فاستخدام القذافات والبندقيات القديمة ، ينتظم وينمو كما استخدام المصفحات . وهذه التحركات الفاصلة ، في الحروب ، ليست عسكرية ، كما مثلاً : التجنيد الذي فرضته فرنسا في نداء : « الامة في خطر » ، الذي ولدت منه التحركات العامة . وكما نابوليون ، كان الاسكندر اخترع توجيهاته العسكرية وتوجيهاته المدنية ، فرسان الجمعيات والهيكلية الإدارية للمناطق المحتلة . لذا ، كان الجنرال يقول عام ١٩٦٠ : « دولتنا متخلفة عن العصر نصف قرن ، في التقنيات ، وحتى في مفاهيمنا السياسية » . وهو كان أعاد تنظيم الدولة عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٨ . ويكمل : « والآن ، يجب على فرنسا ان تنشيء دولاً » . وكان يقصد من ذلك ، خلق جيش البغتات . فهو كان اهتم بتكوين الاقسام كما مع جيش شارل السابع . كان يعرف كل واحد من رؤساء الاقسام ، ويعرف « اختراع » الحريات الأولى كما زمن الضريبة الدائمة الأولى ، او الضمان الاجتماعي ، حتى أن أحد وزرائه ، قال لي متضايقاً : « في هذه الحال ، يجب ان يفتح المعهد الوطني للادارة ، كل صباح » . اما هو فكان يقول : « سلطة الدولة كانت سداً بين

احزاب تتسابق على اكتساب الاكثرية ، لتحكم في مسائل كانت تجهلها » .

كان العالم النقابي باقياً على الهامش ، رغم المليون ونصف المليون من الاصوات الشيوعية . وكان الجنرال تمنى ان تقام معه العلاقة الكانت اقيمت معه في لندن . فمنذ عودته ، اعاد للنقابات حريتها ، اذ كان يرى فيها تمثيلاً اكثر جدية من الاحزاب ، دفاعاً عن الاعتراضات المهنية . لكن الاهداف المشتركة في لندن : اللافاشية ، والنصر ، وسواهما ، لم تعد في الوارد . . . والقطيعة مع ليون جوهو عام ١٩٤٦ ، كانت حاسمة . فتدخله في القرار السياسي ، جعل ديغول ينقله من المعسكر الشعبي الى معسكر الاقطاعات الحديثة . ولدى تبلغه رفض ديغول استقباله ، قال ان الجنرال عدو الطبقة الشعبية . وفي الظروف نفسها ، رفض بدوره استقبال رئيس نقابات ارباب المهن بالطريقة نفسها .

على أن معارضة ١٩٤٦ النقابية ، او بعد ١٩٥٨ ، لم تضع الدولة في خطر ، ولا نمو البلاد وازدهارها . مع ان الديمقراطية تفترض معارضة . ولا شك ان الجنرال كان سيختار غيرها .

وهو ، باكراً ، واجه معارضة الصحافة . ذلك ان الصحف (في مهاجمتها دون هوادة ، وباسم الديمقراطية الصادقة والخلقية السياسية ، الفاشية المستقبلية بشخص ديغول) بقيت طوال سنوات تعبر عن رفض مشترك لدى المثقفين الذين لم يميلوا الى الجنرال ديغول . ذلك ان الشيوعيين وحدهم كانوا يطالبون بحكومة بديلة لا يمكنهم الإتيان بها وحدهم . والتمثيل النفساني ، بل الكوميديا الايطالية التي فيها « اعيدوا هذا

المشهد » ، وهو موجه الى الجنرال ، صارت اوضح من شهر الى شهر : فصار المؤرخ يكتشف ان الانتليجنسيا والسياسيين لم يؤمنوا بالثورة البروليتارية ولا بالعودة الى الجمهورية الرابعة . وفعلاً ، في المواقف الصعبة ، لم يكن الخيار واضحاً . وعن « ما العمل ؟ » للتحرك ، كان جوابه : مقالات .

والواقع ان المثقفين لم يخرجوا قط من حوار الطرشان ، وظلوا يتعارضون في عقائد سخيفة ، لأن الديغولية وحدها هي الجواب عن مسألة فرنسا ، دون ان يكون لها امتداد في أي نظام . فالجمهورية الأولى ، واشتراكية الثانية ، ضمتا انظمتا عصرهما . جاء ماركس فنظمها . انما في السوربون وسواها ، لم يحل مكان برودون وباكونين ، بل مكان « العمل الفرنسي » ، وتحت انظار الجنرال ، الكان يعرفه جيداً . ذلك ان فكرته المتشككة ، لا تختلط مع اي نظام . فالفكرة والكلمة تتناهضان معه ، حتى سمى سلوك الاحزاب « نظاماً » . لم يكن يهتم بما كان عليه التاريخ او الدولة او هو نفسه ، بل بما عليه ان يصنع بالتاريخ او بالدولة او بنفسه . كان يوافق بوذا ، في القول الذي ذكرته عنه له : « اذا رأيت صديقك مطعوناً بسهم ، هل تتأمل طبيعة السهم ، ام تنتزع السهم من صدره ! » . لذا كان يهمه حكم فرنسا كما ماركس او موراس حكم البروليتاريا او الملكية ، لكن فرنساه لم تكن فكرة مجردة في المطلق ، فلم يكن بها يخاطب التاريخ بل السلام العام .

ان انتصار الماركسية ليس في أنها اقنعت الغرب ، بل في أنها ، للكثيرين من الغربيين ، جعلت من المسألة التي تطرحها ، مسألتهم الرئيسة . ولكن لا يمكن وضع عقيدة ـ ولو مهمة ـ في

مجابهة عمل ، ولو مثالي . فالجنرال لم يجعل مسائله خاضعة لتقويم مسبق ، وخاصة مسألة الدولة ، اذ الانتساب الى أفكاره يمر بالانتساب الى اسطورته . وتبقى غريبة عنه كل محاولة انتمائية ماركسية . فالتاريخ الذي يبلغ عنده حجم القدر ، هو ما يتكلم عليه روسو . لذلك ، لا يتخذ المستقبل معيناً ، بل خصيًا ، لا تكفيه أية تيارات لتنتظم فرنسا وتبقى . وباتت الماركسية تتفاوض مع الواقع الوطني الغريب الذي يراه الجنرال في عمق مواجهة العصر . هل في الموضوع وراثة الامم ؟ هذه الجزائر ، ولم تكن يوماً ، امة ، صارت امة . والفيتنام ، ولا يهم ايهما ، ستصير امة . وفي افريقيا ، الاتحادات تنشأ بشكل سيء ، والامم تتكاثر . وفكرة الامة ليست على خصومة مع الجنرال . فماوتسي تونغ ، حدثني عن ديغول قبل ان يحدثني عن فرنسا . والماضي يعطي موقف الشيوعيين الوطني وضوحاً لا يعرفها الحاضر . وكان شيوعيو ١٩٤٥ ، حاولوا ضم حركات المقاومة ، باسم شيوعية ليبيرالية ، شبيهة بشيوعية ربيع براغ . فهل من يؤمن اليوم بأن ستالين ١٩٤٥ كان سيتسامح مع ربيع باريس ؟ والكلام هنا ، على الستالينية الحقة ، والجنرال عرف ستالين عن قرب .

وحين رفض ان يعطي توريز ودوكلو وزارتين طلباهما ، قال لهما : «انتما اخترتما . أنا لا حق لي في الاختيار » . فبأي مقياس كان يأمل ـ ان لم يكن اصلاح وضع الشيوعيين في الدولة ـ فعلى الاقل التوصل الى طريقة حياة معهم ، يساعده في ذلك الميثاق الفرنسي السوفياتي ؟ الشيوعيون ، في لندن والجزائر وايام التحرير ، كانوا تبعوه . انما ببعض النوايا المبيتة . ولكن ، في

تلك الاثناء ، كانت الميليشيات صارت بحكم المحلولة .

وهو كان نقل عبارة لينين : « لم تنته ثورة الا وقوي بعدها حكم الدولة » . ولم يكن يجهل كم كان لينين اضعف الدولة ، كما انغلز ، وكما ماركس . وكثيراً ما كان ديغول ينظر الى الشيوعيين ، كما ماركسي ينظر الى المثاليين . وكانت وجهة نظره تحيرهم ـ كما كل ما لدى الخصم ، ولا ينتمي الى الرأسمالية ولا الى اليسار ـ . ولكن ، هم ايضاً ، كانوا يضللونه . مرة سمعته يتساءل : « ما يكون مصير الشيوعية بعد خمسين عاماً ؟ » ليجيبه دوكلو : « ستبقى على حالها » . وبعد انصراف دوكلو ، نظر اليّ : « هل يعتقد ، حاسمًا ، ذلك ؟ » ، فقلت له : « نعم . فانت خصمهم وما يقال للخصم يكون دائمًا صحيحاً . وختم : « كان يلزمهم الكثير للايمان بفرنسا مثلما آمنوا بروسيا . مع انهم يعملون ويعملون ، وفرنسا في حاجة الى العالم كله » .

حتى لو لم يجد سوى فرصة واحدة لاقامة وحدة الدولة وتماسكها ، كان عليه ان يلعب ، ولو مع مراوغين غشاشين . ولم يتوقع ، (هو الذي كان توقع عدة احداث) انهم سيغدرون به مع افتتاح الجمعية العمومية . وكان على حق في اقتناعه انهم لن يقوموا باية ثورة ، اذ كان حافظاً ذكرى الاحزاب التي عرفها قبل الحرب ، وذكرى الشيوعية التي عرفها في لندن . لذا ، لم يجد امامه الاحزاب ، لضعفها وتضعضها ، ولا الشيوعية التي كان كل عنصر فيها (عدا توريز) يعتبر نفسه لينين والجميع يعتبرونه كرنسكي . والواقع ، ان جميع الانظمة الديمقراطية ولدة من اجماع لم يدم ـ أمام حزب ستاليني قوي ، ويدعي المجيء من الديمقراطية نفسها . صحيح ان هذا الحزب لم يكن من القوة

بحيث يستلم الحكم ، لكنه من الشراسة بحيث يهدم الدولة ، لأن الخارطة السياسية ، وحتى البرلمانية ، لا تقوم نسبة اليه ، بل نسبة الى الستالينية . واليمين الحقيقي يضمحل ، لتقوم مكانها ـ كما بالامس ـ الفاشية ، وكما اليوم : ظاهرة كبار الضباط والمستقلين الذين يريدون ان يكونوا ليبراليين ، والليبراليين الذين يريدون ان يكونوا مستقلين . هكذا ، كانت اشتراكية الأمس ، العدالة والدولانية ضد النظام والجيش . من هنا ، ان الستالينيين يدعون المطالبة بالنظام والامة والجيش والعدالة ـ عدالتهم ـ في مزايدة مستمرة . وهم لا يغامرون بشيء ، لأنهم يريدون هدم الدولة ، فيما الاحزاب يغامرون بكل شيء لأنهم يريدون دعم الدولة او توطيدها .

وما تم انتخاب الجمعية الوطنية ، حتى لم يبق من الفاشية سوى دمية ستالينية . واعتبرت حكومات غربية ان في امكانها اعادة العلاقات مع الاحزاب الشيوعية ، في حوار قطعته الحرب . ولم تعد الاحزاب الشيوعية ، في ارتباطها مع اسلافها ، مرتبطة الا مع روسيا الام المهيمنة على نصف اوروبا ، في ارتباطها مع الاتحاد السوفياتي المحاصر عام ١٩٣٦ . ولم يفهم احد ، في الغرب ، ان الاحزاب الشيوعية انما غيرت كامل طبيعتها في انتقالها من الجبهات الشعبية الى الانظمة الديمقراطية الشعبية .

في ١٣ تشرين الثاني ، حملت الجمعية الوطنية ، بالاجماع ، الجنرال ديغول الى رئاستها . وفي كانون الأول ، كان من اجتماعات اللجنة الحكومية ان حرمت رئيس الجمهورية العنيد ، من كل سلطة ، واحلت الحكومة مكان الجمعية الوطنية . ولم

يعد في امكان احد ، ان يقود هذه العربة المتفرجة الإطارات ، مهما كانت براعة السائق في القيادة .

واذا بالجنرال يخسر ، هذه المرة ، بعدما كان دائمًا رابحاً منذ ١٩٤٠ .

ما زلت في القطار يشق طريقه في الثلج الذي بدأ يتبعثر كلما اقتربنا من باريس . . . تذكرت ان الرئيس سنفور كذلك كان واعياً عملية اهتزاز عالم كامل . والبروفسور توريس ، في جامعة بركلي كما في مكتبي في بور رويال ، كان قال لي : « مع انني رجل من هذا الزمان الغريب » وكان يقول في أيار ١٩٦٨ : « وها هي حركات الطلاب تتجدد ، كما في كاليفورنيا . . . لا تهتم لها . . . » ، او قوله : « هذه المرة ايضاً يربح ديغول ؟ وما يمكن ان يغير ذلك ؟ » او « كل هؤلاء ضيوف عابرون » . وانما لي ربع ساعة لا افكر الا بهلاء الضيوف . وعبارتي : ثمة الشيوعيون ونحن ، وبيننا لا شيء » ذهبت مثلاً ، حتى حين لم تعد تصح . فنحن ، طوال سنوات ، كنا اخصامهم الاقوى والعكس كان صحيحاً كذلك . ومن المستغرب الا نكون اصطدمنا . فالسياسة الخارجية للجنرال . لا تفسر ذلك ، اذ ان الشيوعيين يعتبروننا فاشيين . وهم يعرفون ان لا فاشية دون الحزب الواحد ، وان قرار الجنرال لا رجوع عنه . ومع هذا ، لم يخطر ببال الجنرال ان يحل الحزب الشيوعي ، ولا هذا الاخير (الا بعض الاصطدامات مع عناصر من الشرطة النظامية عام ١٩٤٧) حاول القيام بحركة جماعية ضد الجنرال ديغول . قبل أيار ١٩٦٨ .

بلى . وهو كذلك يتطلع الى « الزمن الغريب » ، كما فلكي

يكتشف كواكب متقلبة بعيدة . ولكن كيف الماضي لم يحمل له الا هذه الاحداث ، في واقع حاسم يجسد الوهم الذي يبقى اسطورة بعد ان يغيب عنه الجميع .

تذكرت صرخات الجنود الالمان وهم يكسرون عصي بنادقنا في باحات المزارع . وكانت البلاد كلها ، يومئذ ، هاجة صوب الجنوب . وتذكرت فرنسا ، ارملة حضورها ، وصوتاً من لندن يصرخ : « ادعو الى ملاقاتي ، مع او بدون اسلحة . . . » . وتأملت : الاسلحة .

وتذكرت الحوار مع الرئيس كاسين وراء طاولات المطبخ المعتبرة مكاتب :

- سيدي الجنرال ، نحن لسنا هنا بغتة ، اعرف . ولكن هل نحن الجيش الفرنسي ؟

- نحن فرنسا . . .

وتحت فندق الكارلتون غاردنز ، كان بحارة جزيرة السين والمتطوعون الأول . وحين وصل الالمان الى الجزيرة ، لم يجدوا احداً .

وتذكرت الاسطول الفرنسي في مرسى الكبير ، بعدما اغرقه الانكليز . « أما الفرنسيون الاحرار ، فانهم اخذوا - مرة نهائية - قرارهم القاسي : أن يقاتلوا » .

وسقط اول فرنسي حر من مظلته صريعاً برصاص . ولم يأخذ الفيشيون على الكترال انه اعدم احداً من الالمان . كل ما في الامر ، كان يطلب منه - منبطىء على الارض - ان يقدم فضائل

غاندية . وبالفعل ، لم يعدم الجنرال احداً .

وتذكرت سقوط داكار ، وكيف تم التأكيد لافريقيا كلها ، ان فرنسا لم تكن في فيشي -

كما تذكرت الخلافات مع تشرشل : « اذا سحبت يدي ، لن يعود للجنرال ديغول حجر يسند رأسه اليه » . كان ذلك قبل اجتياح روسيا وقصف بيرل هاربور ، حين كانت لانكلترا مقدرات مصير العالم . ومع هذا ، لم يرضخ ديغول للحكومة الانكليزية : « كنت من الضعف بحيث لم اكن استطيع ان ألوي » .

واعلنت الاذاعة : « أمس ، دخلت الفرق الالمانية الى الاتحاد السوفياتي » ، وراح ، من اسبوع الى اسبوع ، يتنافى موكب الانتصارات النابوليونية .

وتذكرت أيضاً ، دهشة الجميع عند الخلافات مع قوة روزفلت الخارقة . وهي ولدها دارلان وجيرو وحوارات بيتان - ليهي ، او هيريو - لافال .

كان الحلفاء يكرهون القوات الفرنسية الحرة والمقاومة ، وشبكات المعلومات الكانت تغطي بريتانيا والنورماندي ، ويكرهون الذين يقاومون في خدمة العمل الالزامي . من هنا ، ان الجنرال ديغول كان يجهد ، منذ ١٩٤٤ ، الى توحيد المقاومين والفرنسيين الاحرار . ومقابل الحلفاء ، اي تجمع مقاومين ، مهما اتسع ، كان يمكنه ان يمثل استمرارية الامة ؟

أسس جان مولان ، باسم الجنرال ، المجلس الوطني

والحركات الموحدة للمقاومة ، ومات من عذاباته دون ان يفوه بها ، بعدما عاد الفضل لـ « شعب الليل » في نسف الجسور ، ووضع الالغام في الطرقات وعمليات التخريب . وجميعها فرضت على الامدادات الالمانية في النورماندي ، التأخيرات التي قالها الجنرال ايزنهاور غير قابلة للاستدراك .

وكذا الامر في فرنسا : ممارسة السلطة في المناطق المحررة ، هي توكل الى فرنسيين أم الى جيش التحرير ؟ كان الاميركيون رأوا ـ دون كبير ثقة ـ ان يطبقوا نصاً منسياً من الجمهورية الثالثة ، يوكل الى المجالس العامة تشكيل حكومة جديدة . ولكان ذلك كافياً لتشهد فرنسا اشهراً من الفوضى ، لا يحسمها ـ بعد غياب فيشي ـ الا الشرطة العسكرية الاميركية . ويكون لحكومة الحلفاء العسكرية في المناطق المحتلة ، ان تصدر الألأوامر لدمج فرنسا بالاراضي العدوة في ايطاليا والمانيا . وكان من العبث تصور مصائر سود وصدامات حقيقية مع الحلفاء ، فمن كان يمكنه منع الاميركيين من التخلي عن ستراسبور ، وإقامة حكومة الحلفاء العسكرية في المناطق المحتلة ؟ ولكن ، للاعتراف بسلطة فرنسا محاربة وغير متضامنة مع الألمان ، كان يجب ان تتوجد فرنسا . فمنذ اليوم الأول للرسو ، برز مندوبو الجمهورية المظليون في لندن او المكونون في المقاومة . وفي كل مدينة مستعادة ، وجد جيش الحلفاء في المجلة ، مندوب الحكومة المؤقتة ، منتظراً منذ ايام او منذ ساعات . كانت فرنسا المحررة تجد نفسها في ديغول ، كما ذات يوم وجدت نفسها في جنود لوكلير الواصلين الى قوس النصر بأحمر الشفاه .

وهكذا ، لدى رجوع ديغول ، كانت تنتظره الجموع بالشوق

الى السلطة . وكان اول قراراته ، الا تعاد الحكومة المؤقتة . وكان سؤال : هل سيستقر في الايليزيه ، في الأوتيل ده فيل ام في مكان آخر؟ لكنه استقر في المكان الوحيد الذي منه تمكنه محاربة العدو والفوضى معاً : وزارة الحربية .

وهكذا ، كان لتعدد الازياء العسكرية ـ التي ـ غداة التحرير طغت على البسة رجال المقاومة في الادغال ـ ان راحت تحل مكانه ، لدى المقاتلين ، ظاهرة خطيرة . ذلك ان مزج القوات الفرنسية الداخلية مع الفيلق الاول من الجيش ، ادى الى خيارات تصفوية ، جعلت الصادقين من الفريقين يذهبون الى الجبهة او يلتزمون بيوتهم . بقي الآخرون ، ولا لمدة طويلة . واذ ذهبت الاسلحة الثقيلة كلها للجيش . لم يبق منها شيء في المؤخرة . وهكاذ ، ادى تذويب الميليشيات الوطنية ـ بقرار من حكومة ، احد اعضائها موريس توريز ـ الى توضيح نقطة هامة : ان ليس للدولة سوى جيش واحد ، مكانه على الجبهة .

كان يجب بناء فرنسا ، مع الاستمرار في النضال ، لتأمين الاستقلال . وكان هدف اول : الوصول مع الحزب الشيوعي الى اتفاق حقيقي ودائم ، كان يتمناه ستالين ، فيما كان الجنرال يرفض تسمية « استقلال » ، حالة الانصياع للولايات المتحدة . لذا ، راح الى موسكو ، وعاد منها بميثاق فرنسي سوفياتي ، جعلت العمال الفرنسيين ينصرفون الى أعمالهم .

وهو ظن في ذلك ، انه يسهم في تكوين الدولة ، واستفاق امام مشروع دستور هو الاضعف ضماناً ، والاقل تهيؤاً لدعم الاستقلال الذي ناضل من اجله . وهذا ما قاله في بايو . انما متأخراً . . . عشر سنوات .

عام ١٩٥٨ ، كان هدفه الرئيسي : الدستور الجديد ، وهدفه المباشر : ايجاد فرنسا مقابل المأساة الجزائرية ، وبـدون حرب اهلية . لذا ، الغي الرقابة ، وذهب الى الجزائر .

كان يريد ، قبل كل شيء ، تحرير المسألة الجزائرية المعقدة ، من المسألة الاستعمارية . وازاء انكلترا التي كانت غادرت الهند قبل سنوات ، كان على فرنسا ـ التي بالامس حررت العبيد ـ ان ترتدع عن التعلق بمستعمرة ، وترك الخيار لها بان تنضوي تحت اليهمنة الفرنسية ، او ان تتسلم استقلاليتها الذاتية .

لذا ، خلال الحرب وخلال المفاوضات مع جبهة التحـرير الوطني ، حافظ الجنرال على مدى مختلف تماماً عن الجمهورية الرابعة . في البدء ، ظن انه من الممكن التـوصل الى ذلـك (وجبهة التحرير الوطني لم تقطع معه الحوار ، على أي حال) . من هنا قوله : « مع الاسف ان يكون بعاس فرحاً ذكياً ، امر لا يتعلق بي » ، وقوله في مجلس الوزراء ببعض التشكيك : « يجب ان نعرف اذا كانت المصلحة العليا لفرنسا تتوافق مع مصالح مستوطنات الجزائر » . عندها ، ظننت قراره اتخذ . ومع انه تألم كثيراً مما كان يسميه سرطان الجيش ، اضطر ، لاحياء ذكرى استيلاء لوكلير عـلى ستراسبـور ، ان يستدعي آلاف الضبـاط الذين راحوا يصغون اليه في صمت عدائي . ومرة اخرى ، كان عليه ان يجابه ، وهو ختم كلامه في بطء ، كما لو أنه يتكلم على الحرب الاهلية : « منذ قررت الدولة والامة طريقهـما ، تقرر الواجب العسكري نهائياً . خارج هذه المعادلة ، لا يعود من جنود الا الضالون . . . » وعندها كانت ثورة كبار الضباط . . .

وهنا ، تلتقي اسطوريته والفكرة التي عنـده عن الدولـة ،

والفكرة التي عنده عن نفسه . بهذا ، جسد مقاومة البلاد ، والشعب ، والفلاح الذي جاءه ساعي البريد او المختار لإعلان موت ابنه في الجزائر ، ضد « رجال ذوي وسائل سريعة ومحدودة » يستلون من الجيش مجده وقوته .

أمام شاشات التلفزيون ، راح الناس ينتظرون ، شبه متأكدين انهم سيسمعون الـ « لا » التي سمعوها في ١٨ حزيران : « اذا البس اليوم هذا اللباس ، فلاثبت انني لست فقط رئيس الجمهورية الفرنسية ، بل ايضاً الجنرال ديغول » . او « تتصدون لهؤلاء الرجال بكل قواكم وبجميع وسائلكم » . من هنا ، كانت الديغولية ، تلك المناعة التي فصلت ـ وأمام الخطر نفسه ـ فرنسا عن حكومتها عام ١٩٦١ ، وفرنسا عن حكومتها عام ١٩٥٨ . ويصعق صوته ، في حزم ، هذه المرة : « يا وطني الغالي العريق ، ها نحن معاً ، من جديد ، في حمأة التجربة » .

لم يعد الى مواجهة التموجات الصاخبة ، الا الا في أيار ١٩٦٨ . وبالطريقة نفسها . ذلك انه لم يبد للشبيبة الطالبة ، ؛ الشعور الكان ابداه لجنرالات الجزائر . كان حدس بالثورة العسكرية ، بشكل او بآخر ، وحدس بأزمة الشبيبة في الولايات المتحدة وهولندا وايطاليا والمانيا والهند واليابان وحتى في بولونيا . . . انما لم يحدس احد بالتقاء هذه الازمة مع التحرك النقابي الواسع . والموقف تخذ طابعاً من القرن التاسع عشر ، من تظاهرات ومتاريس وحواجز ، وهو طابع مختلف عما حدث في اضراب عمال المناجم . لكن الصدامات الطالبية ، كما في بلدان اخرى ، بدت ان طبيعتها العميقة ليست في العصيان ، بل هي لا عقلانية في الوصول الى هدفها . لذلك ، لم يلتزم بها

الحزب الشيوعي ، بل واكبها . والتظاهرة الضخمة جمعت جميع القوى السياسية والنقابية التي تحت مراقبة الجهاز الشوري الشيوعي ، الذي كان يدعي انه اقوى من ١٩٤٥ و ١٩٤٧ ، مما لم يكن يجهله الجنرال . فمن خطة الشيوعيين ، ان يجعلوا الثرثارين يتكلمون على القيام بالثورة ، اذ كانوا يعرفون انهم لن يقوموا ، فيكون لهم (للشيوعيين) ان يقطفوها ناضجة . وهذا موقف نموذجي للمحللين : الفوضى العصيانية التي تسبق الاستيلاء على السلطة ، وتتقدم التيارات ضد الحكم والدولة . من هنا ، ان جميع القوى المناهضة للديغولية والمهيأة للصراع والمؤهلة للشغب ، كانت تتجمع امامهم . سقط قتيل واحد . كان رجال الشرطة كثيرين ، انما وسائل القمع قليلة . وكنا نعرف ما استطاعت قنابل المولوتوف ضد الدبابات السوفياتية في بودابست : لا شيء . وطبعاً ، لن تصدر الحكومة امراً باطلاق الدبابات ضد الطلاب او المتظاهرين ، بل ضد الميليشيات المسلحة . فالحزب الشيوعي لم يعد يملك التصرف بقنابل المولوتوف كما الحكومة بدباباتها . كل من الفريقين كان رهن الرأي العام الذي بدونه لا عصيان ولا حكم . ورمي الزهر : الحزب الشيوعي ـ الكان منذ فترة طويلة يتحدث عن « المشاركة في حكم ذي وحدة ديمقراطية » ـ اعلن خشية تدخل الجنرال ديغول : « ان شعب فرنسا يفرض ـ في النظام الجديد ـ ان تأخذ الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي مكانها كاملين » . اذن ، التحديد واضح ، يريدون المكان كاملاً . والجنرال ـ الذي تكلم عابراً على الجزائر في خطابه الانقلابي ، لم يتكلم قط على الطلاب . كان يخاطب الفرنسيين باسم السلام العام . من هنا قوله :

« لن انسحب . عندي انتداب منحنيه الشعب ، وشاملاً فراغه . لن اغير رئيس الوزراء ، الذي - بقيمته وصلابته وقدرته - يستحق ثناء الجميع . وهو الذي يقترح علي التغييرات التي تبدو له ضرورية ، في تركيبة حكومته . واليوم ، اعلن حل الجمعية الوطنية » .

بهذا ، احل فرنسا مكان الحكومة . ومنذئذ ، اصبح الجنرال ديغول ضامناً الاستفتاء الشعبي في الانتخابات اللاحقة . وهكذا وضعت الجمهورية الخامسة على المحك مؤسساتها الرئيسية . وانتهت المهزلة العصيانية ، وبات على فرنسا نفسها ان تحدد مصيرها .

استرجع كلامه : « اينما كان ، وفوراً ، يجب ان ينتظم العمل المدني ، لمساندة الحكومة والمديريات التي صارت مفوضيات الجمهورية ، لتأمين مصالح الشعب ومنع حصول الخلل . ان فرنسا مهددة بالديكتاتورية ، اذ تحاول جهات اخضاعها لحكم يفرض عليها ، في يأس وطني ، المنتصر ، اي الشيوعية التوتاليتارية ، التي تبدأ بتقنيع الحكم بمظاهر غشاشة تستخدم الطموح والحقد اللذين لدى السياسيين المعزولين » .

خلال كلامه ، كانت جموع ، اكثف مما عند التحرير ، تغطي الشانزيليزيه . كانت تمت عملية رفع الرواتب ، والاصلاحات الجامعية ، وسقطت نهائياً طموحات الحرب الاهلية الكانت رمت فرنسا عشرين عاماً لى الوراء . ولم يعد خطر مداهمة البلاد ماثلاً ، اذ باتت مستعدة للمجابهة ، والصوت بلا وجه ، كان يلاقيه مليون نسمة الى الشانزيليزيه . والحشود التي كانت سفارة

الولايات المتحدة تلتقط هتافاتها ، منذ ساحة الكونكورد ، لتبلغها الى البيت الابيض. بلغت قوس النصر . وفي المساء نفسه ، اعلن الحزب الشيوعي انه لا يطلب سوى « ديمقراطية حقيقية » . وبعد الرابع من الشهر ، عاد العمل في اينما كان . فهل يمكن تصور حكومة اوريول تستطيع مواجهة ايار ١٩٦٨ ؟ وخاصة مع رجال الشرطة في حالة الاضراب ؟

من اللافت في « المذكرات » ، انه تشد للالتفات الى الماضي . فالاحداث التي تبلغ حد الاسطورة ، توحي بغير المتوقع وتغير القدر . في هذه الساعة ، حتماً ، ايصور الجنرال ديغول يدور في افكاره الحصينة ، كما في مكتبه الذي ارخى ستائره على الليل المثلج . اتخيله يفكر تارة بنفسه وطوراً بان الاساسي سيعود الى البروز . من هنا « مذكرات الأمل » . فهو درس اوروبا التي تلت الحروب النابوليونية . « حين فرنسا تعود فرنسا ، سيعود الانطلاق من الذي فعلته ، لا مما تم منذ رحيلي » . هل يعني : من افكاره ام من ١٨ حزيران آخر ؟ كان دائماً يقول ان ايديولوجيته لا تسلك في ميدان مسطح ، وان فرنسا ستحيا اذا الارادة الوطنية ساندتها حتى انبثاق غير المتوقع : فحين نودي بريشليو ، كانت فرنسا قوة من الدرجة الثانية .

في تفكير الجنرال ، ان هذا ، طارىء انقلابي لكل ما يبدو انه يهدد فرنسا . ولكن ، من يبلقها في ما لا يبدو من العالم . ريشليو لم يكن يخاف انقراض المسيحية . قال : « حاولت دعم فرنسا ضد نهاية عالم » . من هنا ان الامة ، بتشكل رئيسي ، هو الذي فرنسا اقنعت به اوروبا ذات يوم ، ولدت من صرخة « الوطن في خطر » ، ومن الهيولي التي فرضتها الجمعية

التأسيسية . عام ١٩٤٠ ، كانت فرنسا معنية بشكل مباشر . فهل لا تزال معنية في هذا العالم المشوه الذي تتناحر فيه بقايا الامبراطوريات ؟

عند احتضاره ، قال اندريه جيد : « سيكون لفرنسا ، بعد ، ان تدهش العالم . . . وهو هذا ، الصراع بين ما هو منطقي وما ليس بمنطقي » . وفي الانفاليد ، عند معرض المقاومة ، أمام العمود المنخور برصاص ضحايانا ، وحوله الصحف الممنوعة ، قال الجنرال لمنظمي المعرض ، ما كنت قلته عام ١٩٤٥ : « الصحف تنقل ما قاله رجل المقاومة ، لكنها لا توضح كثيراً كيف قاوموا وكيف ماتوا . لم يعد سواهم لاستكمال الحرب التي بدأت عام ١٩١٤ ، وكما مقاومة بين حكيم ، كان مقاومو المقاومة شهوداً على كل شيء » . بلى ، وهو أيضاً كان شاهداً . فهو ـ وان وحده في كولومبي بين الذكريات الموت ، كما كبار قادة فرسان فلسطين امام النواويس ـ لا يزال سيد فرنسا . هل لأنه تحمل مسؤولياتها ؟ هل لأنه ، طوال سنوات عديدة ، عالج جثتها فيما يقول للعالم انها حية ؟ منذ قليل ، وأنا عنده ، بدا كأنه يحملها ، حين رفع يديه أمام النافذة والثلج : « انها الجنازة الكبرى » . فهو عاش بعد كل من حاربهم : هتلر ، موسوليني ، وبعد الذين حارب معهم ، روزفلت ، تشرشل ، ستالين . وبقي في شعور الجنرالات النابوليونيين الكانوا يقولون نحو عام ١٩٢٥ : « زمن الجيش الكبير » . . . جميع هذه ، ظلال صديقة ، تلعب على ارض باثرة اوراقاً سوداء . . . امام كل ما صار : اوروبا المشتعلة ، انتحار هتلر في مخبئه ، القطارات المتوقفة التي تصفر صفارات طويلة في المتاهات السيبيرية ايذاناً

بموت ستالين . . . هل يفكر بـ « عصر عظيم » عوض « رجال عظماء » ؟

تماماً كما بعد ١٨١٥ ، استقال قدر العالم . انما بقي فيه الايمان الذي بحجم المغامرة حين فرنسا في المصير : الايمان بغير المتوقع ، فليس من رجل ردون احلام . لذا ، هو يفكر ، ولو بافتخار قاتم ، في ما لن يقوله قط : « اذا كان الفصل الاخير مما كانته اوروبا ، بدأ ، فلن ندع فرنسا تموت في الساقية » .

ولكن ، لكي تفهم فرنسا ما يريد ان يورثها ، كان عليه ان يقدم لها ما هو ابعد من الحكم ، وابعد من ترك الحكم : ان يموت .

كولومبي

١٣ تشرين الثاني ١٩٧٠

بعد وفاته بعشر دقائق ، غادر الطبيب منطقة البواسري ليعود صبايا احد عمال سكة الحديد . طلبت السيدة ديغول من احد النجارين ان يسحب المحبس من اصبع الجنرال . وما أنهيا عملهما ، حتى استدعتهما السيدة بليك التي توفي زوجها المزارع .

اليوم ، في يوم الجنازة الرمادي ، استعجلت تحت جرس الحزن في كولومبي ، تجيبه جميع اجراس فرنسا ، وفي بالي ، جميع اجراس التحرير . رأيت المدفن مفتوحاً ، وعليه اكليلان كبيران من ماوتسي تونغ وشوان لاي . ففي بكين ، نكست الاعلام في المدينة المحرمة . وفي كولومبي ، في الكنيسة الصغيرة ، ستكون الرعية الصغية ، والقائلة ، والسلك : جنازة الفرسان . علمنا من الاذاعة ان ساحة الشانزيليزيه ـ التي نزلها

قبل ايام ـ باتت تعج بحشود صامتة . هنا ، في كـولومبي ، وخلف البحارة المتأهبين بأسلحتهم ، كانت ختيارة ، ذات شال اسود ، تصرخ : « لماذا تمنعونني من المرور ! هو قال : يأتي من يشاء ! يأتي من يشاء ! » . وضعت يدي على كتف البحار : «كان يجب ان تسمح لها ، هذا امر يسر الجنرال . فهي تتكلم كما فرنسا » . لكنه عاد فاستدار بدون جواب ، وبدون ان يحرك يديه ، كما لو انه يقدم سلاحه الى فرنسا البائسة الوفية ، فيما هرولت الختيارة نحو الكنيسة ، امام صلصلة العجلة التي تحمل التابوت .

على الشانزيليزيه

الا في الصف الاول ، كـان ظـل الاعـلام المثـة ، يغلّف حَمَلَتها ، جميع هذه الرايات المبلولة المرتفعة في الليـل ، وسط الصمت الذي لا يخدشه سوى بطء الخطوات ـ كانت تتقدم كما اشجار غابات شكسبير . قوس النصر وحده كان منوراً . وكان النهر يجري في العتمة التي ما تزال فيه انوار بعض الحوانيت . الليل جاثم بتقل : في ساعة الليل ، في اضواء قوس النصر ، وفي الغيمات المستعجلة التي ينزل مطرها طوفاناً على النـاس المحتشدين على الارصفة . وكانت ظلال تتأمل ظلالاً اخـرى تحت المطر . ليست مظاهرة هذه : فمن اول الشارع الى آخره ، يتكلم الجميع بصوت خافت . وهم ليسوا في جنازة ، اذ ليس امامهم تابوت . انها مسيرة جنائزية نحو قوس النصر الذي صار مدفناً ، نحو الشعلة المتوهجة التي تتناثر من خلالها نقاط المطر .

بين الحشود ، تقدم مذيع راديو لوكسمبور ، الميكروفون في يده ، من زميل له :

ـ ماذا يخبرونك هنا ؟

ـ بالحرب ، النساء يتكلمن . الشباب ، حين اسألهم : هل صوّتم بنعم ؟ كانوا يديرون لي ظهورهم ، فافهم انهم صوتوا ذلاً . النساء يقلن تقريباً الشيء نفسه : « نحن ندين له بكل شيء » . او « امطرت ام لم تمطر ، سنبقى » . واحداهن قالت لي : « فكرة رش الازهار ، حتماً ، فكرة السيدة ديغول » . واخرى ، تتأبط « الاومانيتيه » قالت : « انا جئت اقول له : وداعاً » . . . والى عجوز قلت لها : « هاتي زهرتك ، ارشها مع زهرتي » ، أجابت : « ثلاث سنوات رافنسبروك ، ثلاث ساعات مطر ، لا تهم » . . . وانت ؟

ـ أنا سجلت لقطات من بائعات البنفسج وبائعي الزهر : الاجوبة نفسها . احدى البائعات قالت لي : « للاسف انه لا يرانا » .

لكنها مخطئة . فالجنرال ، وان ميت ، يسمع هذا الصمت تجلجله آلاف الخطوات . فهو اكثر حضوراً هنا ، منه في كولومبي ، الا حين وصلت العجلة الى مدخل البواسري ، وحملت النساء اطفالهن . عاد المطر اكثر زخماً . كثيرون يحملون مظلات . . . الحشود تتزايد : من الشوارع ، من البيوت ، ومن محطات المترو . وارتفعت تحت المطر انغام المارسلياز ، فراحت الازهار تتنقل من يد الى يد ، وصولاً الى قوس النصر . لم تعد هذه الازهار تخص احداً . انها الارض تؤدي التحية للموت .

وعاد الموكب يواصل طريقه بتؤدة في الليل الجنائزي الطويل . موكب مهيب يزحف معه صمت الجميع ، ديغوليين

وغير ديغوليين . كثيرون ممن يتقدمون في بطء . كانوا هنا في مظاهرة أيار ١٩٦٩ ، وكثيرون كانوا في الباستيل ، في المظاهرة المضادة ، وآخرون كانوا هنا حين اجتاز الجنرال ديغول الشانزيليزيه امام الجنود الواصفين الاحمر الشفاه .

ان هذا الموكب يتوغل كثيراً في الماضي ، ليلتقي بالموكب الجحفل الذي كان يوم وداع فيكتور هوغو . كان الشاعر الكبير قال « لا » للامبراطورية عشرين سنة ، وللسقوط وللقمع . وبعيداً في الليل ، ثمة الـ « لا » التاريخية . والموكب يتقدم كما موكب ثيبا نحو مدفن انطيغون . فالجندي المجهول الذي تنتصب عليه الشعلة ، هو احد الصارخين « لا » فوق نهر موتانا الذي تحت الارض ، اتذكر النساء السود في كوريزيا ، واقفات على تبر الطائلة تذكاراً للمقاومين الذين قتلهم المحتلون . واتذكر الفلاحين اتوا يضعون كيلو من السكر النادر تحت الصليب الخشبي لرفاقنا المقتولين رمياً بالرصاص .

نساء كثيرات . . . والرجال يحملون الزهر عشوائياً . ففي ذاكرتنا القديمة ، ان الرجال لا يحسنون حمل الزهر ، والنساء يقدمن الاضحيات . ومعسكرا بوشنوالد وداشو ، عرفا جميع ظلال الذين اختاروا الموت ، وما اكثر من الموت .

اخيراً ، هنا السياسة تفقد معناها : المستشارون البلديون الشيوعيون ، هم هنا . ونساء يحملن علم اللورين الصغير ذا الصليب ، يتقاسمن باقاتهن مع جاراتهن حاملات جريدة « الأومانيتيه » ولم تجدن زهراً . لم يعد الامر يهم الديغولية ، ولا فرنسا . والذين يسيرون مشياً في هذا الليل الممطر لم يعودوا

Malraux Le Miroir des Limbes**

La corde et les souris

•

Texte traduit en arabe

par

Henri ZOGHAIB

MARIANNE / OUEIDAT

Beyrouth

André Malraux
La corde et les souris



